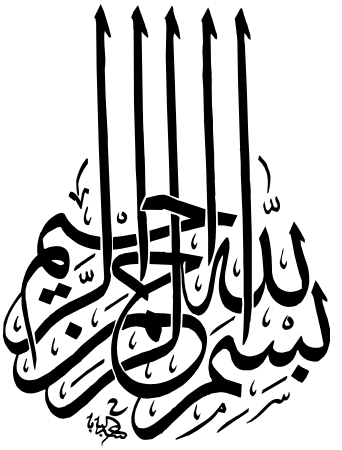
مختارات من كتابات
شيخ الصحافة الحضرمية
الأستاذ محمد بن هاشم


بسم الله الرحمن الرحيم

مختارات من كتابات
شيخ الصحافة الحضرمية الأستاذ محمد بن هاشم

جمع وترتيب
السيد: علي بن أنيس الكاف

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

المقدمة

يعد العلامة الفلكي والمؤرخ المعروف والشاعر والكاتب الصحفي المتفنن الأستاذ محمد بن هاشم أحد أبرز رواد النهضة الأدبية في حضر-موت في مطلع القرن الميلادي الماضي، وقد ساهم بشكل كبير ولافت في إثراء الصحف والمجلات الحضرمية بكثير من كتاباته المتنوعة، وقام بإنشاء عدد من الصحف والمجلات في حضرموت والمهجر، ولكثرة نتاجه وطول باعه في العطاء الصحفي المتفرد تربع بكل جدارة على عرش الصحافة الحضر-مية في حضر-موت والمهجر. وأطلق عليه في الوسط الصحفي آنذاك بـ(شيخ الصحافة الحضرمية).

وقد كتب الأستاذ محمد بن هاشم في الصحف الكثير من المقالات المتنوعة –الدينية والتاريخية والأدبية والعلمية– وغيرها التي لو قدر لها أن تجمع لكانت في مجلدات ضخمة. وجاءت هذه المختارات من كتاباته في هذا الكتاب – الطبعة الثانية – ثمرة جهود مضنية، وبحث طويل وشاق، لجمع ما تفرق من كتاباته ونفثات قلمه الغنية بالمعلومات القيمة. وقد امتازت هذه الطبعة (الثانية) بإضافة الجديد فيها من مقالات ومحاضرات وقصائد.

واعتمدتُ في جمعي هذا على عدة مصادر أذكرها، مستثنياً منها مصادر إعداد الترجمة والتعليق التي أوردتُها في مؤخرة الكتاب وهي:

١. الصحف الحضر-مية التي صدرت في المهجر كصحيفة (حضر-موت) و(الترجمان) و(الرابطة العلوية) بإندونيسيا و(العرب) بسنغافورة .

٢. الصحف والمجلات المحلية القديمة كصحيفتي (زهرة الشباب والنهضة) بسيؤن و(الحلبة) بالمسيلة، و(اليقظة) بشبام.

٣. صحيفة المشاهد السياسي.

٤. بعض المخطوطات والصحف التي نحتفظ بها في أرشيفنا بسيؤن.

٥. بعض المخطوط الذي أفادني به حفيد الأستاذ ابن هاشم السيد هاشم بن طاهر بن محمد بن هاشم.

وإلى ما أشرتُ إليه من مصادر الجمع أحب أن أشير إلى أنني استثنيتُ منه أغلب ما كتبه ابن هاشم من مقالات في جريدة حضرموت والتي كتبها إبان إقامته في اندونيسيا وهو إذ ذاك يشغل رئيس تحريرها، لكونها تختص بالحديث عن جاوه، كما استثنيت ما قام بجمعه ونشره الأخ الدكتور الشيخ محمد بن أبي بكر باذيب من مقالات ابن هاشم في مجلة (الإخاء) بتريم . واكتفيت بما بذلته من الجهد في جمع المتفرق منه في الصحف الأخرى، وما حفظه لنا الدهر من مخطوط.

وقد قسمت الكتاب إلى الآتي:

القسم الأول: ترجمة عن الأستاذ العلامة محمد بن هاشم. استعرضتُ فيها ميلاده ونشأته وسيرته وهجرته والأعمال التي قام بها في مهجره، ثم تناولت سفره إلى مصر، والعودة إلى مسقط رأسه حضرموت، والمساهمة في نهضتها، ثم وفاته رحمه الله، وأشرت لمؤلفاته وأولياته وما قيل فيه. وختمت الترجمة بالإشارة إلى ما كتبه بخط يده من خلاصة لتجربة حياته، وما وصل إليه من مشواره الطويل في الصحافة والكتابة من نتائج سلبيه وإيجابية.

القسم الثاني: يشمل على عدد من مقالاته المتنوعة التاريخية والأدبية من تراجم وسوانح ونقد أدبي وغيره.

القسم الثالث: حوى بعضاً من محاضراته الأولى بعنوان (إقليم حضرموت) ألقاها في مصر بدار نقابة الموظفين، ومحاضرة أخرى بعنوان (نحو اتحاد حضرموت) ألقاها في تريم سنة ١٩٤٦م ثم ألقاها مرة أخرى في مدينة عدن، ومحاضرة (العلويون والهجرة)، وجزء من محاضرة (جاوا وأهلها) ألقاها في مصر

بدار الرابطة الشرقية، ومحاضرة ألقاها في نادي الشبيبة المتحدة بتريم سنة ١٩٣٢م في الفلك بعنوان (نزهة بين النجوم) .

القسم الرابع: وفيه بعض من خطبه وكلماته التي ألقاها في مناسبات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وكلمات التأبين لعدد من العلماء والسلاطين والشخصيات الاجتماعية وكلماته في حفلات التكريم والترحيب المختلفة .

القسم الخامس: جمعت من قصائده التي قالها في مناسبات مختلفة كقصائد الرثاء والمدح والترحيب وغيرها.

وفي خاتمة المقدمة أوجه شكري وعظيم امتناني لكل من أفادني بالجديد في هذه الطبعة -الثانية - ومن ساهم في إخراجها وطباعتها، وأخص بالذكر: الشيخ محمد بن أحمد بافضل، والشيخ الأديب سالم بن زين باحميد رحمه الله، والسيد سالم بن عبداللاه بن سميط . ولا أنس أن أوجه شكري أيضاً لمن كان لهم دور رئيسي في الطبعة الأولى وهم: السيد هاشم بن طاهر بن محمد بن هاشم، والأستاذ الأديب السيد جعفر ابن محمد السقاف، والأديب الشاعر جيلاني بن علوي الكاف ومركز تريم للدراسات والنشر. وغيرهم ممن لا يسعني ذكر أسماءهم خوف الإطالة.

وأسأل من الله سبحانه وتعالى التوفيق في كل أعمالنا ما مضى منها وما هو آت وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم والحمد لله رب العالمين.

علي بن أنيس الكاف

سيؤن - حضرموت

ترجمة للأستاذ العلامة المؤرخ
محمد بن هاشم

مولده ونشأته:

ولد العلامة المؤرخ: محمد بن هاشم بن طاهر في قرية (المسيلة) الواقعة جنوب مدينة تريم سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م. وفي بيت جده الإمام عبد الله بن حسين بن طاهر نشأ على حب العلم، وظهرت عليه أمارات الذكاء والنجابة والنبوغ منذ صغره، وأخذ يتتلمذ على يد علماء ومشايخ جيله، متنقلاً بين مدينتي تريم وسيؤن، ونبغ في تحصيل سائر الفنون والمعارف العلمية المختلفة التي كانت تزخر بها حضرموت في تلك الفترة.

ويأتي في مقدمة مشايخه وأساتذته: العلامة عبد الله بن عمر الشاطري، الذي تصدَّر التدريس في رباط تريم العلمي ذي الشهرة الواسعة، وأخذ عن الفقيه محمد بن عثمان بن عبد الله بن عقيل بن يحيى، والعلامة حسن بن علوي بن شهاب، والشيخ محمد الخطيب. ومن أبرز أساتذته أيضاً العلامة أبوبكر بن عبد الرحمن بن شهاب، والعلامة محمد بن عقيل بن يحيى.

واتصل في بداياته بعدد من كبار الأئمة والعلماء والمرشدين ممن زها بهم ذلك العصر الأغر، كالإمام علي بن محمد الحبشي، وأخيه العلامة المحدِّث حسين ابن محمد، والعلامة عبد الله بن محسن بن علوي السقاف، والفقيه طه بن عبدالقادر بن عمر السقاف، وغيرهم.

هجرته ونشاطاته في المهجر

أولاً: هجرته إلى اندونيسيا:

لما بلغ محمد بن هاشم سن الشباب قرر السفر إلى جاوة (اندونيسيا) التي

كانت محطة لهجرة الكثير من الحضارم. حيث إن كثافة الحضارم فيها والرخاء الاقتصادي الذي تنعم به تلك البلاد في تلك الفترة سيكون عوناً له على نشر العلم والدعوة إلى الله بين صفوف الحضارم وغيرهم. وسيجد هناك متنفساً كبيراً لمبادئه وآرائه.

وكان وصوله إلى جاوة سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، وأول ما بدأ به مزاولة التجارة، ثم تولى إدارة مدرسة (المنَّور) في مدينة فاليمبانغ، وبعدها باشر التدريس في مدرسة (جمعية خير) بمدينة بتافيا، وانتقل إلى باكلنجان إحدى مدن وسط جاوة فأسس بها مدرسة (شمائل الهدى)، ومنها إلى مدينة سورابايا فأسس فيها مدرسة (حضرموت). وفي تلك المدارس اهتم ابن هاشم كثيراً بعلوم الفقه واللغة العربية من نحو وبلاغة وأدب بالإضافة إلى اهتمامه بالتربية السامية والأخلاق الفاضلة والأنشطة الاجتماعية، ويعد من أوائل الذين اهتموا بتعليم الفتاة التعليم الصحيح، وذاعت شهرته ونفع الله به، وتخرَّج على يديه العديد من التلاميذ من مختلف الطبقات والأجناس[١].

ولم يكن العمل في مجال التربية والتعليم كافياً لتوصيل أفكاره وآرائه للحضارمة هناك، فاتخذ من الصحافة على الرغم من أعبائه المدرسية الكثيرة منبراً للوصول إلى أذهان من لم تمكنهم الظروف من الالتحاق بالمدرسة، ويهذب من لم تعد المدرسة ذات نفع لهم. فأخذ يكتب بنفثات قلمه العذبة وبيانه السلسال مقالات تناولت موضوعات مختلفة في صحيفة (الإصلاح) بسنغافورة، التي تعد بالنسبة إليه الصحيفة الأولى التي بدأ الكتابة فيها، ومن جاوة تخطت كتاباته

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين، عبدالله بن محمد السقاف العلوي، [٥/ ٢٩١].

البحار والقفار لتصل إلى مجلة (المنار) الإسلامية عام ١٩١١م.

وعندما انتقل إلى باكلنجان أنشأ جريدة (المدرسة) النصف شهرية التي كان يصدرها تلاميذ مدرسة شمائل الهدى سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، وأصدر في مدينة بتاوي جريدته الخاصة (البشير) بالعربية والملاوية، كذلك أصدر مجلته الأخرى (مرآة الإسلام) بالملاوية وهي دينية علمية، وفي الوقت ذاته اتفق مع نفر من الأدباء على إصدار جريدة (الميزان) بالملاوية بمدينة بندوغ، ولما أُنشئتْ جريدة (الإقبال) العربية في مدينة سورابايا سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، أصبح هو رئيس تحريرها واستمر في ذلك حتى توقفها سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، بعد ذلك تولى رئاسة تحرير جريدة (حضرموت) بسورابايا منذ تأسيسها، وهي إحدى كبريات الصحف الحضرمية التي تصدر في المهجر وكان مؤسسها السيد عيدروس بن عمر المشهور سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م، واستمر عطاؤه الصحفي فيها حتى سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م، وجاءت بعد ذلك لحظة الوداع عن مواصلة مهمته في هذه الجريدة، وكان آخر ما نشرته له مقالاً مؤثراً تحت عنوان (تحية مودع)، ثم اختير رئيساً للبعثة العلمية المتوجهة إلى مصر في شهر شوال من السنة نفسها، والمكونة من بضعة عشر طالباً من الطلبة الحضارم بإندونيسيا بهدف الدراسة في المعاهد العلمية المصرية[١].

ثانياً: السفر إلى مصر:

كان وصول العلامة محمد بن هاشم إلى القاهرة سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، حيث استمر بمزاولة نشاطه ومشواره الصحفي إلى جانب ما أوكل إليه من مهمة

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين، عبد الله بن محمد السقاف العلوي [٥/ ٢٩٣].

هناك من خلال كتابة المقالات في الصحف المصرية كصحيفة (السياسة)، ولعل أجمل بصماته بالقاهرة محاضرته التي ألقاها عن (إقليم حضرموت) بدار نقابة الموظفين، ومحاضرته الأخرى بدار الرابطة الشرقية عن (جاوة وأهلها).

عودته إلى حضرموت

طار صيت الأستاذ محمد بن هاشم في مصر. وذاعت شهرته حتى بلغ صداها إلى حضرموت، وكانت زيارته الأولى إلى وطنه حضرموت بعد غيبة طويلة أواخر سنة ١٣٤٤هـ بصحبة شيخه العلامة محمد بن عقيل بن يحيى[١]، وفي هذه الزيارة التي استغرقت نحو الشهر، استحثه السادة آل الكاف على الاستقرار في حضرموت والمشاركة في الإصلاحات التي بدأت تشهدها البلاد في الجوانب الأمنية والتعليمية والاجتماعية والثقافية.

ولم يتأخر عن الاستجابة لهذا المطلب مشترطاً السفر إلى مصر لإنهاء أشغاله هناك. فذهب إلى مصر، وفي أواخر سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م غادر الديار المصرية إلى عدن. وكان وصوله إلى حضرموت في مطلع سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، وباشر العمل في الإصلاحات وتولى إدارة مدرسة جمعية الحق بتريم.

بعد توقف مدرسة الحق. كان ابن هاشم من الثمانية الأشخاص الذين اختيروا لمجلس إدارة مدرسة الكاف الكبرى الخيرية، التي تأسست في شهر رجب سنة ١٣٥١هـ، وباشر التدريس فيها، وله الدور الرئيس في وضع المناهج التعليمية لهذه المدرسة وخاصة علوم اللغة العربية والفلك والتاريخ.

---

(١) ترجمة كتبها الأديب علي بن محمد باعبود في الأستاذ محمد بن هاشم. (مكتبة علي باعبود الموجودة بحوزة السيد عبد القادر بن أحمد بن سميط).

وساهم في تأسيس نادي (الشبيبة المتحدة) بتريم في منتصف شهر ربيع الآخر سنة١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، وألقى في مقره عدداً من المحاضرات التي يأتي في مقدمتها (رحلة إلى الثغرين) في ١٥ شعبان ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ثم نشرت بعد ذلك في كتاب مطبوع، ومحاضرة (دخول الزيدية إلى حضرموت)، ومحاضرة (حضرموت في القرن ١٣)، ومحاضرة في الفلك بعنوان (نزهة بين النجوم) ومحاضرة عن (الأغاني في حضرموت وألحانها) نشر مقتطفات منها المستشرق روبرت سرجنت في كتابه (نثر وشعر من حضرموت)[١]. وألقى العلامة محمد بن هاشم محاضرة أخرى في قصر المنيصورة بعنوان (نحو اتحاد حضرموت الكبرى) حضرها الكثير من الأعيان والمثقفين[٢].

وساهم الأستاذ محمد بن هاشم في تأسيس نادي (الإخاء الأدبي) وذلك سنة ١٣٥١هـ. وكتب مقالات كثيرة أدبية وسياسية واجتماعية في عدد من الصحف المحلية كمجلة (عكاظ)، ومجلة (الإخاء) التي تصدر بمدينة تريم عن جمعية الأخوة والمعاونة، وصحيفة (الحلبة) بالمسيلة، ومجلتي (زهرة الشباب) و(النهضة) بسيؤن ومجلة اليقظة بشبام وغيرها. واستطاع بكل جدارة أن يتربع على عرش الصحافة الحضرمية حتى لقب بشيخ الصحافة في حضرموت. وشارك في إلقاء عدد من القصائد والكلمات والخطب الرنانة في مناسبات متعددة. وبعث من حضرموت مقالات لجريدة (حضرموت) ومجلة (الرابطة) بإندونيسيا، وجريدة (صوت حضرموت) السنغافورية، ولأهمية هذه الكتابات أعادت نشرها

(١) كانت هذه المحاضرة الركيزة الأساسية والمرجع الأول لروبرت سرجنت في موضوعه الذي تحدث فيه عن الأغاني والإنشاد الحضرمي حيث أشار إلى ذلك في كتابه ص٥٤.

(٢) مجلة التلميذ بتريم العدد السابع، السنة الأولى، رجب ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

الصحف الحضرمية التي تأسست في المهجر بعد سنة ١٣٥٠هـ كصحيفة (العرب) بسنغافورة وجريدة (الترجمان) بإندونيسيا.

أما دوره السياسي: فقد كان الأستاذ محمد بن هاشم موضع ثقة السلطان علي بن منصور الكثيري واستشارته، حيث عينه سكرتيراً له، وعُين كذلك أمين سر في لجنة أمان حضرموت التي شكلها السلطان صالح بن غالب القعيطي والسلطان علي بن منصور الكثيري وعدد من رجال الإصلاح الحضرمي بعد التوقيع على الهدنة بين القبائل سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، وكانت وظيفة اللجنة الفصل في أية قضية من قضايا النزاعات القبلية حفاظاً على ما أنجز من توقيع الهدنة التي مهدت الأمان لحضرموت. وشارك في أغلب الإصلاحات التي شهدتها البلاد في تلك المرحلة والتي تعد من أهم المراحل في التاريخ الحضرمي.

كذلك اختير الأستاذ محمد لمكانته العلمية والاجتماعية أحد الشهود على اختيار لجنة أهل الحل والعقد التي شكلت بعد وفاة السلطان علي بن منصور. وقضت باختيار السلطان جعفر بن منصور سلطاناً خلفاً لأخيه المتوفى، على أن يكون ولي عهده من بعده الحسين بن علي بن منصور الكثيري.

وعينه السلطان جعفر بعد توليه عرش السلطنة سكرتيراً للسلطنة. غير أن ابن هاشم بعد فترة من الزمن استقال من هذا المنصب وتفرغ للتأليف وشؤون التعليم وتولى إدارة المدرسة السلطانية بمدينة سيؤن.

مؤلفاته:

إلى جانب المقالات السياسية والأدبية والاجتماعية والتاريخية في الصحف المتنوعة، والمحاضرات التاريخية والعلمية، والكلمات التي ألقاها في الأندية والمناسبات المتعددة قام ابن هاشم بتأليف كثير من المؤلفات في التاريخ والفلك

واللغة والعلوم طبع بعضها، والبعض الآخر ما يزال مخطوطاً أو مفقوداً، وأبرز تلك المؤلفات:

١. تاريخ الدولة الكثيرية. في ثلاثة أجزاء طبع الجزء الأول منها والثاني تحت الطبع والثالث مفقوداً.

٢. رحلة إلى الثغرين الشحر والمكلا. مطبوع.

٣. دروس الطبيعة. وهو كتاب تعليمي ألفه لبعض المدارس في إندونيسيا، طبع في شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، بإندونيسيا.

٤. مدارج الإنشاء. وهو كتاب تعليمي (مطبوع).

٥. تاريخ الثروة الكَافِيَّة ورجالها (مطبوع).

٦. الخرّيت شرح منظومة اليواقيت في فن المواقيت طبع سنة ١٩٦٧م.

٧. الحكم والأمثال الحضرمية. (مطبوع).

٨. تاريخ جاوة. (مفقود).

٩. ذكرياتي عن ٦٧ سنة. (مفقود).

١٠. تاريخ حضرموت الحديث. (مفقود).

١١. الدروس الوطنية. (مفقود).

١٢. أدب اللغة الدارجة. (مخطوط).

١٣. شرح ورد جده الإمام عبد الله بن حسين بن طاهر (مفقود).

١٤. النوافح الوردية في تقويم الهند الهولندية.(مفقود).

١٥. النباتات والحبوب المتداولة في أدوية الطب اليوناني ومقابلها في اللغة الدارجة الحضرمية + الأصوات وأعضاء البدن والأطعمة والنباتات المأكولة والفاكهة والأدوات والأثاث والشعر ومتعلقاته والحيوانات والحشرات باللغة الدارجة الحضرمية ومقابلها بالفصحى. (مخطوط).

١٦. دروس في الفلك (مخطوط).

١٧. شرح موجز لوصية السيد شيخ الكاف لنجله السيد عبدالرحمن بن شيخ والسيد أبي بكر بن الحسين آل الكاف (مطبوع).

وله قصائد كثيرة لو جمعت لكانت في ديوان ضخم حسب ما أشار إلى ذلك ابن حامد السقاف في كتابه (تاريخ الشعراء الحضرميين).

أسلوبه في التأليف:

إنَّ تعدد تلك المؤلفات والكتابات يدل على القدرات والمعارف التي كان يتمتع بها ابن هاشم، الذي يعد من أوائل المؤلفين الحضارمة الذين اتجهوا في كتاباتهم نحو التخصص، بحيث يتناول الكتاب الواحد قضية معينة أو موضوعاً محدداً، بعكس ما كان عليه أغلب من سبقوه بتعدد موضوعات الكتاب الواحد. والمطالع للكتابات التاريخية لابن هاشم يجد اعتماده بدرجة رئيسية على المنهج الوصفي في كتابة الأحداث مع الشيء اليسير من النقد والتحليل.

ويتميز أسلوبه في الكتابة بعدم التكلف ووضوح المعنى الذي يستوعبه عامة الناس مع قوة السبك وبراعة الإنشاء وتوظيف قدراته البلاغية فيه[١].

وقد وصف العلامة زين العابدين بن أحمد الجنيد الأسلوب الذي تميز به الأستاذ ابن هاشم بقوله:

إذا جادت قريحته بشعر ... فإن قريضه الدر النظيمُ

---

(١) ويتحدث شعراً عن قدراته البلاغية وذلك عندما طالبه أحد السادة آل السقاف برد كتابه الذي أعاره بقصيدة مطلعها:

اردد كتابي لا عدمتك جيداً ... تجتنب المحذور والمحظورا

فأجابه الأستاذ بقصيدة مطلعها:

إن كنت تجرع في البلاغة جرعة ... إنا لنبلع أنهراً وبحورا

المشهور: شمس الظهيرة ص٥٩٦. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

وفي النثـر البـديع لـه اقتـدار كـأن ابـن النـديم لـه نـديمُ

وقال الحبيب العلامة عبد القادر بن أحمد السقاف رحمه الله في أسلوبه:

والكاتب الفذ الذي سحر الورى ببيانـه السلسـال في النفثـاتِ
قلـم لـه إن ينحـدر في الطـرس يـذهب كـالأتِيِّ لغـير مـا وقفـاتِ
ذو لهجـة خلابـة وقريحـة وقّـادة ورَوِيَّـة وأنـاةِ
كـم قـد أهـاب بقومـه لكـنهم لم يعبـأوا بكـلام خـير دعـاةِ

ويقول فيه تلميذه العلامة محمد بن أحمد الشاطري:

ذو المجـد مرفـوع الجنـاب محمـد أسـتاذنا مـن بالتقـدم يُعْـرَفُ
وإذا ارتقى عرش الخطابة لم يـزل كالسـيل لا يلـوي ولا يتوقـفُ
وانظـر إلى منثـوره وقريضـه فهنـاك مـا يحلـو ومـا يسـتظرفُ
أكـرم بـه حـين الخطابـة قـائماً ولسـانه الـدر المنضـد تقـذفُ
إن حـث حـرّك أو تكلـم مادحـاً أطرى وإن وعـظ المدامع تـذرفُ
وإذا أناملـه جـرت لكتابـة أبـدى العجـاب يراعـه إذ يُرعـفُ
تكفيـه نسـبته إلى مـن طهـروا عن كل رجس والشـهيد المصـحفُ
إن كانـت العليـاء لا تـرضى بهـم فـإذاً جميـع النـاس منهـا تـأنفُ

وامتدح أسلوبه وبلاغته السيد محسن بن عبد الله بن محسن العطاس قائلاً:

فتصـدى بهمـة ونشـاط ولسـان فصـيحة وبيـانِ
كيـف لا وهـو في البلاغـة أسـمى مـن جريـر وأحمـد وابـن هـاني
وبعلـم البـديع أبـدع نطقـاً مـن مقـال الفتـى بـديع الزمـانِ
مـا بـديع الزمـان مـن همـدان كبـديع الزمـان مـن عـدنانِ

وقال السيد الشاعر محمد بن حسن بن شهاب في تميز أسلوب محمد بن هاشم:

لله أنـــت إذا نثـــرت فـــإنما سـيال نثـرك للقلـوب عقـارُ
وإذا نظمـــت فعبقـــريّ زمانـــه وعـلى النواصـب صـارم بتّـارُ[1]

وإضافة إلى الإلمام الواسع لابن هاشم بعلوم العربية، كان يجيد اللغتين الانجليزية والملاوية كتابة ونطقاً، وقام بتعريب بعض الموضوعات المتعلقة بتاريخ حضرموت من الانجليزية كمحاضرة المستر انجرامس التي تحمل عنوان (الأمان بحضرموت)، وما كتبه الرحالة المستشرق الانجليزي (جاكوب) عن حضرموت في كتابه (ملوك العرب)، وله مقالات كان يكتبها بالملاوية في صحف المهجر بإندونيسيا.

أوليَّاته:

للأستاذ محمد بن هاشم أوليات وابتكارات حديثة في أسلوب التعليم في المدارس وذلك في أثناء ممارسته العمل المدرسي في اندونيسيا ألخصها في الآتي:

- أول من أدخل الطريقة الحديثة لتعليم اللغة العربية بعد أن كانوا يحاولون تعليمها بواسطة الترجمة.
- أول من أدخل التناوب بين المعلمين في الأصناف بحسب الفنون.
- أول من أدخل الأناشيد المدرسية الوطنية. وأنشأ لها شعراً حماسياً على التوقيع الموسيقي.

---

(١) صحيفة حضرموت العدد ١٤٣، للسنة الخامسة، الخميس بتاريخ ١٦ رمضان ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م ص١.

- أول من جعل الإنشاء درساً من الدروس، وصنف فيه كتباً مدرسية مناسبة لمدارك أبناء المدارس الابتدائية.
- أول من فتح باب الرياضة البدنية لأبناء المدارس العربية.
- أول من فتح مدرسة داخلية لتهذيب الناشئة، لا يخالط تلامذتها غيرهم ولا يغادرون دار المدرسة إلا مع أساتذتهم.
- أول من ألف فرقة الكشافة وفتح باب المباراة الرياضية بين تلامذة المدارس العربية وغيرهم من الأجانب.
- أول من حدا بالتلامذة لتأسيس مجلة مدرسية علمية سميت بمجلة (المدرسة)[1].

خاتمة حياته

استقر العلامة الأستاذ محمد بن هاشم في آخر حياته بمدينة تريم، ولازم مجالس العلامة الحبيب علوي بن عبد الله بن شهاب، وتصدَّر الزيارة السنوية لجده الإمام عبد الله بن حسين بن طاهر في قرية المسيلة، التي تقام بتاريخ ١٧ من شهر ربيع الآخر من كل سنة. وفي العشر السنوات الأخيرة من عمره فقد نعمة البصر ثم جاءت وفاته سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ودفن بمقبرة تريم بعد حياة حافلة بالعطاء العلمي والأدبي والإصلاحي.

قد كتب العلامة محمد بن هاشم خلاصة لتجربة حياته والنتائج التي توصل إليها من مشواره الطويل في الحياة في كلام مسهب ومؤثر نقتطف منها ما يأتي:

"وللتقاليد القومية والأنظمة المتبعة أثرها في نفوس العامة بل وغيرهم، وقد علمتنا التجارب وهدتنا الاختبارات الطويلة المتعددة إلى أنَّ الخروج عن

(١) صحيفة حضرموت في العدد ١٤١ يوم الخميس ٢ رمضان ١٣٤٦هـ/ ٣٢ فبراير ١٩٢٨م، ص١.

منهج التقاليد العلوية، والثورة على الآداب السلفية، لا ينتجان إلا عكس ما يرام ولاسيما بحضرموت.

إلى قوله:

" إننا لنتأكد أنَّ بين القراء الآن من يفند ويسفه فينا اهتمامنا مذ اليوم، بلزوم التقاليد القومية، والنُظُم الوطنية، وربما لمزنا على هذا بالرجعية والتقهقر إلى الوراء، ونعى علينا العودة إلى الجمود على القديم، ومناوأة الروح العصري، الذي يقضي على كل رث وقديم، ويصيح بالمتنورين إلى التجديد وكسر القيود والأغلال التي كبلتنا بها تلك الرمم البالية.

إنْ يستمد قومٌ هذه الآراء المتطرفة من مطالعة الجرائد والمجلات وما أشبهها، أو من أفكار قرائها والمولعين بها، فليتكرموا هنيهة بالإصغاء من شخص قد أكل وشرب، ونهل وعل، وبلغ الشأو الأقصى- من الغوص في قرارات المشارب العصرية، وقد هام بالجرائد والمجلات حتى صار من محرريها، وحتى أصبح من كبار الصحفيين الذين دوى صيتهم في أكناف الشرق الأقصى- بل والشرق الأدنى، وحتى أضحى يصدر في آن واحد جريدة أسبوعية ومجلة نصف شهرية عربية وملاوية، ويشارك في جريدة يومية من كبريات الصحف، واندمج في غمار الصحفيين وحملة الأقلام من أوربيين وصينيين ويابانيين وأندونيسيين ومصريين وسوريين وغيرهم، وتشبع بأفكارهم ودرس وطنياتهم ونفسياتهم ثم نظر إلى اتجاهات تلك النزعات والنفسيات وآثارها في المجتمع ونتائجها، وحاول أيضاً تطبيق تلك الحركات والأفكار وثوراتها حاول أن يجربها على بني وطنه في المهجر فثار وكافح وحارب وصالح وطفق يطبِّق ويحلِّل ويركِّب ويبدِّل ويصنِّف ويكتب ويبذل جهود الجبابرة قريباً من ربع قرن، ثم انثنى من هذه التجارب الطويلة خارجاً من المعمعة بشيء واحد فقط، هو وجوب التمسك بالتراث الذي

تركه لنا أسلافنا العلويون، من رسوم ظاهرة، وأخلاق طاهرة، مع الأخذ من أهداب المدنية العصرية بما يفيد ولا ينافي ديناً ولا أدباً ولا زياً..."[١].

وبالجملة فالأستاذ العلامة المؤرخ محمد بن هاشم من نوابغ العلماء الكبار ورجال التاريخ والفكر والأدب الحضرمي، الواجب على الباحثين إنصافهم والاجتهاد في تتبع أخبارهم وأعمالهم وتوثيقها.

قالوا عنه

قال عنه العلامة عبد الله بن حسن بلفقيه:" شهرة هذا الأستاذ لا تحتاج إلى التعريف به، وهو الطائر الصيت والفارس المجلى والطراز المعلم في كل ناحية من نواحي الحركة الفكرية، وفي كل مطلع من مطالع النهضة بالمهجر والوطن، وله عبقرية وبراعة وبلاغة وسحر بيان، تحبيره الطلى البليغ وأسلوبه الفتان البديع يخلبان الألباب، وله مع ذلك شاعرية عالية"[٢].

ووصفه العلامة الجليل عبد الله بن محمد بن حامد السقاف العلوي في تقريظه لكتاب (رحلة إلى الثغرين) قائلاً: "الأستاذ السيد محمد بن هاشم العلوي في مقدمة الذين أنجبتهم حضرموت ذكاء وأدباً وفضلاً وفي طليعة الكتّاب الاجتماعيين. وأياديه البيضاء على النهضة الحضرمية الحديثة ليست بمجحودة وكيف تجحد وصرير أقلامه لم يبرح رنينه إلى اليوم في الآذان"[٣].

---

(١) للمزيد انظر شرح الأستاذ محمد بن هاشم لوصية السيد شيخ بن عبدالرحمن الكاف لولديه السيدين: أبي بكر بن حسين وعبدالرحمن بن شيخ آل الكاف الملحق بكتاب (عميد الأسرة الكافية عبدالرحمن بن شيخ الكاف) (ص٢٧٧-٢٧٩).

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين، عبدالله بن محمد السقاف العلوي،[٥/ ٢٩٤].

(٣) ابن هاشم: محمد، رحلة إلى الثغرين الشحر والمكلا، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

وقال عنه الأديب علي بن محمد باعبود في أثناء ترجمته له: "وأخيراً نلتفت إلى الماضي القريب البعيد لنرى كيف كانت تتدفق فيه الحياة الفياضة بكل ما في الكلمة من معنى سام خصيب. هذه الحياة الزاخرة ذات جوانب متعددة وفي عرض جانب واحد منها ما يشاد منه تاريخ صرح عظيم فكيف باستعراض الجوانب الفياضة الأخرى التي تكون عالماً فذاً لا نسيج له في الخيال وإنما هو من الشيء الواقعي"[١].

وللعلامة الشاعر أحمد بن عبد الله السقاف قصيدة مطولة يمدح فيها صديقه الأستاذ محمد بن هاشم مطلعها:

جديرٌ بأن يحيى العظيمُ معظّما ... وحقٌ لذي الإقدامِ أن يتقدَّمَا

ومن أبياتها:

صحبتُ فما ألفيتُ غيرَ ابنِ هاشمٍ ... أبيّاً ولم أَلفِ امرأً منه أكرما
وعشتُ فلم أدركْ سواه مهذَّباً ... ورمتُ فأعياني فتىً منه أحزما
بهمّته رام المعالي فنالها ... وبالجدِّ في كلِ المحامدِ أسهما
وبالعزم والإقدام أخضع دَهْرَه ... وبالعلم والتقوى على غيرِهِ سما
فلا فضل إلا وهو فيه مفضلٌ ... ولا فخر إلا كان فيه المقدَّما
له نفسُ حرٍ لا تقيم به على ... أذى الذلِ حتى لمحة الطرفِ ريثما
يلاقي خطوبَ الدهرِ غير مروعٍ ... إذا عبس الدهرُ الخؤون تَبَسَّمَا
تصدّى لإصلاح الزمانِ وأهله ... فلاقى الذي يلقاه ذو العزم منهما
فما فلّت الأهوالُ صارمَ عزمهِ ... بل استنَّ حتى صار أنكى وأصرما
رأى ما بوادي حضرموت فساءه ... وأشفق إشفاق الغيورِ على الحمى

(١) ترجمة الأستاذ محمد بن هاشم كتبها الأديب علي بن محمد باعبود، مكتبة علي باعبود.

إلى قوله:

فلم يثنه عن خدمةِ الشعب ذاك بل ... تجشّم في إصلاحه ما تجشما
فضحّى بما ضحّى وجدَّ ولم يزل ... يرمّم من بنيانه ما تهدّما
وهاجر لاستكشاف حالة قومه ... (بجاوة) فألفاها أضر وأشأما
رأى عجمة قد أخرستهم وخطة ... أضاعت مزاياهم وجهلاً مخيما
رأى ما يذيب القلبَ من سوء حالهم ... ويبكي حنواً كل ذي مقلة دما
رأى أمة تلهو وشعباً يقوده ... هواه بأنواع السموم مسمَّما

إلى قوله:

فيا رجل الأعمالِ معذرة فقد ... عدمتُ لساناً عن علاك مترجما
بماذا أفيد الناسَ عنك وكلهم ... يرى فوق هذا الفضل فيك مسَلّمَا
وإن شذَّ فيهم أكمه بك جاهلٌ ... فلا عجباً أن ينكر الشمسَ ذو عمى

إلى آخر القصيدة التي تتألف من ٨٥ بيتاً.

وفي ابن هاشم يقول العلامة حامد بن محمد بن سالم السري قصيدة بعنوان: (إلى حكيم فهيم)

يضيء كبدرِ التّم عند تمامهِ ... ويبري سقامي ثغره بابتسامهِ
فقد هاج بي من عالج السفح أثله ... وأرقني في الأيك نوح حمامهِ
وألبسني مرطَ الجنونِ صدوده ... فَجَرّعني بالهجرِ كأس حِمامهِ
سل الليلَ عن حالي وسل أنجمَ الدجى ... هل التذَّ لي جفن بطيب منامهِ
ألم يأن لي أن أرشفن أكؤس اللقا ... وأجني ثمار القربِ بعد انصرامهِ
من الماجد الشهمِ محمد إنه ... إمام سبيل المجد وابن إمامهِ

ومنها:

لقد طاب أصلاً ابن هاشم الذي ... توخى العلا والمجد قبل فطامهِ
حكيم فهيم في القريض حبالنا ... حِساناً يحلِّيها بحسن نظامهِ
ومن يبتغي يوماً يُساميه في العلا ... وحقك لو أدنى السما لم يسامهِ

ومنها:

فدمت بخير ما حييت ونعمة ... تنور ربع الدار بعد قتامهِ

ومن قصيدة للعلامة زين العابدين الجنيد يمدح فيها العلامة محمد بن هاشم:

هلموا بني وطني فحيوا ... هماماً زانه الذوق السليمُ
محمد ابن هاشم الأديب الـ ... ـذي ابتهجت بمقدمه تريمُ
تعالوا نتل آيات التهاني ... بواجب شكره أبداً نقومُ
له النسب العريق إلى المعالي ... له التكريم والحسب القديمُ
تربى تحت حجر الفضل حتى ... سعت شوقاً لخطبته العلومُ

إلى قوله:

لكم يا نجل هاشم المفدى ... صراط في المعارف مستقيمُ
نشرت لواءها وغرست غرساً ... جنيٌّ ثماره النفع العميمُ
فتحت مدارساً للعلم كيما ... يكون لك الفخار المستديمُ
كشفت براقعاً للحق حتى ... أزاح لثامه الدين القويمُ
وأضحى الجهل مطروداً ذليلاً ... بنوه لكل مكرمة خصومُ
إذا ما نهضة للعلم قامت ... فأنت لنهضة العلم الزعيمُ
إذا ما الجهل أعيانا علاجاً ... فأنت لدائه نعم الحكيمُ
فدونك حفظ ناشئة صغار ... فمثلك لاعوجاجهم المقيمُ

فسر- وانهج بهم نهج الكرام الـ ـذين بسرـهم يشفى السقيمُ
ومن يقف الكرام فسوف يحظى بسرـ ليس تدركه الفهومُ
وما رجل الفضائل غير حر بساحته الرذائل لا تحومُ
عليكم أيها الأستاذ مني سلام عرفه المسك الشميمُ
ودمت مهنئاً في خير عيش تحف بك المسرة والنعيمُ

وقال فيه أيضاً الشاعر محمد بن حسن بن شهاب قصيدة ألقاها في حفلة تكريم الأستاذ محمد بن هاشم في قصر المنيصورة بتريم:

سرت الحياة وهبت الأفكارُ وتبلّجت بقدومك الأنوارُ
وتباشر العلماء والحكماء والـ ـكتّاب والشعراء والأحرارُ
وسرت بجسم الشعب روحٌ أنهضتْ همماً أضر بجسمها الأغيارُ
وبشخصك الميمون هذا كان للـ آمال من جدث القنوط مثارُ
فمشى السرور يدب في أجسامنا كالكهرباء مشى به التيّارُ
أهلاً وسهلاً يا ابن هاشم الذي سمحت بطلعته لنا الأقدارُ
فانزل على بسط الهنا نلت المنى وعدتك بعد مقامك الأسفارُ
ولك القلوب منازل فانزل بها وكذلك الأسماع والأبصارُ
لله أنت مثقفاً ومهذباً نطقت ببيض فعالك الآثارُ
عبَّدت صعب مناهج التعليم فاقتـ ـطفت بفضل صنيعك الأثمارُ

إلى قوله:

(كن سعدنا) واعمل فإنا كلنا لك سامع وجميعنا أنصارُ
لا عابثين بمغامزٍ ومماذقٍ كلا: ولا يلهو بنا الدينارُ
يأبى علينا ديننا وأصولنا وصحيح عقل لم يشبه غبارُ
فاعطف على الوطن العزيز بنظرة وبنهضة تسري بها الأخبارُ

ها أنت ذا أضحى زمام النشء في ... كلتا يديك تحفك الأنظارُ
فادأب ودربّهم على العمل الذي ... هو للعلوم مقاصد وثمارُ
ما العلم خال عنه إلا صنعة ... ويجيدها الأبرار والفجّارُ
وتعهد الأخلاق فهي أساس ما ... تبنيه وهي على الفلاح شعارُ
حقّق فديتك ما نؤمله فقد ... سرت الحياة وهبّت الأفكارُ[١]

أبيات للشاعر عبد الله بن أحمد بن عمر بن يحيى، قالها في الأستاذ ابن هاشم في ذلك الحفل:

حي المعالي وحي المجد والهمما ... وانشر هنالك في أعلامها العلما
وبيّ كلَ أبي النفس ذي أدب ... سمح السجايا وزكٍّ المفرد العلما
واقضِ الحقوق لأهل العلم من بلغوا ... شأواً وخاضوا بحوراً واعتلوا نُجُمَا[٢]

ومن قصيدة للأديب عيدروس بن سالم السقاف يمدح الأستاذ ابن هاشم يقول:

بأي لسان عن علاك أعبّرُ ... ومن أي آيات المديح أحبّرُ
أ في كرم الأخلاق أم فايض الندى ... أم الهمة القعساء التي لا تصوّرُ[٣]

(١) صحيفة حضر-موت العدد ١٤٣، للسنة الخامسة، الخميس بتاريخ ١٦ رمضان ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م ص١.
(٢) المصدر نفسه. العدد ١٤٣ ص١.
(٣) المصدر السابق. العدد ١٤٣ ص١.

من مقالات
الأستاذ محمد بن هاشم

العام الهجري الجديد

يتم القمر دورته حول الأرض في ٢٩ يوماً تقريباً، وقد جعلوا هذه الدورة وحدة من الوحدات التي تقاس بها مسافات الزمن وسموها شهراً فإذا مضت من الزمن ١٢ شهراً وبعبارة أخرى إذا أكمل القمر دورته الثانية عشرة جعلوها وحدة أخرى لقياس الزمن أيضاً وسموها سنة قمرية.

ولما انتشر الإسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشئون والأعمال في الحكومة الإسلامية وذلك في سنة ١٦ من الهجرة، بعث سيدنا عمر إلى وجهاء الصحابة رضي الله عنهم فجمعهم واستشارهم في وضع التاريخ الرسمي للمسلمين. فأشار عليه سيدنا علي كرم الله وجهه بأن يجعل مبدأ التاريخ أول محرم من السنة التي هاجر فيها رسول الله صلى عليه وآله وسلم إلى المدينة ففعل وكان ذلك يوم الخميس كسنتنا هذه.

وبعد فإننا اليوم نستقبل باسم الله عاماً جديداً ويبدأ القمر سيره في الاثنتي عشرة دورة المقبلة. ولا يعلم إلا الله سبحانه ما تبطنه الأيام وما تكنه الليالي خلال هذه الدورات التي نؤمل أن تمر بالناس، وتغشاهم بفضل من الله ورضوان يجددان وينميان لهم البقية الباقية من قواهم ونضارتهم المسموح لهم باستئنافها من الأعوام الغابرة.

بسم الله تعالى تستقبل الأمة الإسلامية عامها الجديد، وقد بلغت الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية أشدها، وأصبحت النفوس زاهقة، والعقول حائرة، والحرب العالمية الحاضرة حامياً وطيسها مندلعاً لهيبها، والعالم بأسره رافعاً عقيرته بالويل والثبور والذعر والهلع، آخذاً بمجامع القلوب ولم يبق سوى إيمان

المؤمن يمده ببعض الأمل توحيه إليه ثقته بالذات المقدسة وصفاتها النزيهة.

والآمال قديماً وحديثاً لا تزال ترياق المكروب، وسلوة المحزون، والطل المثلوج، الذي يتساقط على أغصان الخواطر الذابلة فينعشها، ويمنح المرء أطواراً جديدة من السوانح المثلوجة فيكتب بها ارتياحاً يفسح له ما ضاق أمام عينه من آفاق الدنيا وميادينها الواسعة.

والناس قد يختلفون بقدوم السنة الجديدة وهم يعلمون أنها ليست سوى مطية تزحف بهم نحو الاقتراب من مغادرة هذا العالم الفاني، وأنها ليست سوى حبة جديدة من حبوب عقد الحياة المنتثر، وأنها كسلفها تشيب الصغير، وتفني الكبير، وتذهب بالقوي إلى الضعف.

لو تصوروا ذلك عند توديع العام الفائت لاقتصدوا في الاحتفاء، ولأشفقوا من تقريبه إياهم من الأجداث، واختلاسه منهم نفيساً من نفائس العمر، ولودوا لو يدفعونه عنهم ليبقى بعيداً بمثابة تموين احتياطي يتمونون منه باقتصاد ما بقي لهم في الحياة مهما بزغت فيه نجوم السعد، وهطلت على سوحه سحائب الخيرات، لكل جديد رونق الجدة، ولكني لا أعقل لجدة الأعوام رونقاً خيالياً صرفاً يعدي الناس بعضهم بعضاً، فيفرحون ويطربون ويلبسون النفيس ويأكلون الفاخر ويعملون ما في وسعهم للتزين والتنضيف والترويح عن النفس بدون معنى.

ما كل شعيرة من الشعائر الدينية كعيدي الفطر والأضحى. فإن لإجلالهما معنى آخر غير الذي نقصده من سطوة الخيال على الحقائق ولعبه أدواراً مهمة في إيجاد السرور للمرء في مواطن جديرة بالأسف وتكوين أحزان له في مواضع

حرية بالسرور.

وقبل مائة سنة أي قبل عام ١٢٦٢هـ على رؤوس أسلاف رحمهم الله وهم يعانون أزمة سياسية عظيمة بالجهاد مع الدولة الكثيرية والقضاء على الفوضى العشائرية والفتن الكبيرة التي تركت القطر يرقص رقصة الديك المذبوح، وقد حقق الله في ذلك العام آمالهم فتم للدولة امتلاك الغرف والاتفاق مع ابن همام صاحب (الخليف) بتريم وبدأت تتقدم تقدماً كبيراً يبشر بنجاح المشروع بفضل التضامن المتين الذي شاده أولئك المجاهدون الأبطال من السادة العلويين ورجال الهمة ومشايخ العلم والفضل.

وها نحن بسم الله سبحانه وباسم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وبروحانية أسلافنا الكرام نستقبل عام ١٣٦٢هـ، فاتحين صدورنا ترحيباً له بقلوب مفعمة بالآمال العوال، والظنون الحسنة في رب العالمين ومدير شؤونهم في أن يغمرنا والمسلمين بعفوه الواسع ولطفه الشامل وفضله العظيم.

* * *

سوانح شهر رمضان

اليوم يتهيأ مقتنصوا المواسم الروحية، ومتعرضوا النفحات الإلهية، والذين يغتنمون التشرف بالجلوس على تلك الموائد – موائد الفضل والرضوان – المبسوطة للمدعوين والمتطفلين. يتهيأ اليوم أولئك القوم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لحلول هذا الشهر الكريم شهر رمضان الممتاز بين شهور السنة بسيادته المعنوية التي أنبأ عنها المعصوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى.

وهي السيادة التي يرتشف من كؤوسها ويتذوق حلاوتها كل من أمات الجسم وأحي الروح، ونهل من علم اليقين راحاً يهتك عنه حجب المادة التي فتن بها أمثالنا من المقصرين والمغرورين.

إن الذين ضربت على أذهانهم الحجب المادية لا يعلمون أن وراء المادة عوالم مترامية الأطراف، بعيدة الأكناف، لا يكون عندها العالم المادي على اتساعه وعظمته شيئاً كبيراً لا يصل العلم البشري إلى شيء منها إلا بأقل بكثير مما يصل إليه علم دودة البطن مثلاً من معارف علماء البشر.

ولقد حجَّر واسعاً من يحسب أن إرادة الخالق العظيمة جل وعلا لا تتعلق إلا بهذه العوالم المادية، وأن الوجود لا يتسع لغيرها، ولا يحتمل ما لا عهد لخيالاتنا به، وما لا انفكاك لحواسنا الخمس عنه، ويحسب أن الأوضاع الطبيعية وارتباط الأسباب المادية بمسبباتها سنة الكون المطلقة ليس له سنن سواها ولا نظم غيرها.

لا ضير! ليبقى أولئك الماديون متمسكين بمادتهم، محصورين في أقفاص جسمانياتهم، معزولين عن البهجات الرّوحية، والنفحات القدسية، التي لا تدركها الجثمانيات، ولا تراها الأعين، ولا تسمعها الأذان، ولا تخطر على قلوب البشر، فلندع أولئك وما اختاروه لأنفسهم من التمتع بما تتمتع به الأنعام، ولنعد إلى ذكر رمضان ومن حوله من رجال اليقين وأبطال الإيمان وأقوياء الإرادة وصادقي العزم، فإن لهذا الشهر العظيم رجالاً هم مركز الدائرة، وهم الذين ينتهزون فرص هذا الموسم السانحة، ويحتضنون تجارتها الرابحة. رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه من هضم النفوس، وكسر شهواتها، ومخالفة الهوى واكتساب المعالي، بصيام الهواجر، وقيام الدياجر، والصدقة سراً وعلانية، وتغذية الأرواح بهدي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وما حدا به حاديه، ونادى به مناديه، من ذكر حكيم ونهج قويم.

إن شهراً قد صرح التنزيل الكريم باسمه من بين الشهور مرة، وأشار إليه بالعهد الذهني مرة أخرى، لجدير بأن يتطاول بهذه الميزة على سواه من الشهور، وحري بالمؤمن الموفق أن لا يدع هذا الشهر ينفلت من بين يديه إلا وقد ملأ حقائبه من تحفه، وعيابه من أطيابه.

ألا وإن شهراً يقول عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – كما رواه الشيخان – "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين" لخليق بالمؤمن الموفق أن يسدّ فيه كل باب أو خوخة أو شباك يطل منه على واد من أودية الجحيم، فإن الجوارح البدنية هي قناطر وساديب يتصل منها المرء إلى درج من مدارج البناء، أو إلى درك من مدارك الشقاء، فالغيبة والنميمة

والنظر إلى المحظور وسماع الخنا ونحو ذلك من المحرمات أبواب من أبواب جهنم التي حظر الدين القيم طرقها في كل زمان ومكان، غير أنها في شهر رمضان توصد في وجه المؤمن فلا يستطيع ولوجها بحال من الأحوال لما يردعه عنها به إيمانه الصادق ويقينه التام.

وما تلاوة الذكر وسماعه، والنظر إلى المصحف وإغاثة الملهوف، وفعل المعروف إلا من أبواب الجنان المفتوحة على مصاريعها لاسيما في رمضان، حيث أسواقها الرابحة وبحارها المتماوجة، وحيث يكون لشياطين النفوس الأمارة بالسوء أصفاداً وأغلالاً من قوة الإرادة وعزائم أولي الألباب[1].

تمر سراعاً الأيام والليالي من هذا الموسم الكبير الذي لا يشاهده إلا ذوو البصائر الثاقبة، فتنتهي أيامه ولياليه وقد تركت وراءها أطواراً عظيمة وبحاراً زاخرة من الغنائم الروحية التي يتناهبها أولئك السعداء المشمرون، ويبقى الشقي المحروم تائهاً في سباسب شهواته لا يدري بما ناله من الخسران إلا بعد أن ينكشف الغطاء ويصبح البصر حديداً، وينتبه المرء من سباته العميق بانتقاله من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة، ومن مسارح الهزل إلى مواقف الفصل.

إنَّ الصوم وإن يك مجلبة للصحة ومرضاة للرب، بيد أن وقوفنا واجمين تجاه تعليل فريضته وتخصيصها بشهر رمضان، وانهطال المنح والمواهب فيه – هو الأليق بأدبنا نحن العبيد أمام أسرار الله في فرائضه وأفضاله وإلا فمن لنا بمعرفة

(١) إننا هاهنا قد نتوجس خيفة من أن يلمزنا لمزة بأننا لم نقصد بما قلناه إلا تأويل الحديث النبوي وصرفه عن ظاهره ونحن نؤكد لذلك اللمزة قبل أن يكون منه شيء أننا لم نقصد شيئاً من ذلك. وإنما نقصد المشاكلة بين المجاز المألوف عند العرب وبين الحقيقة التي أرادها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما هو ظاهر عبارتنا. (الهامش للكاتب الأستاذ محمد بن هاشم).

السر مثلاً في اختلاف عدد الركعات في الصلوات المفروض بل وغير المفروضة. فإن الذي يحاول التعليل إنما أراه يحاول محالاً وإنما أراه مدفوعاً بدافع الصلف والغرور إلى شأن لم يكن من شأنه ومقام ليس من مقامه، والفقهاء رحمهم الله يسمون ما لا يمكن لهم تعليله من الأحكام تعبدياً، وما ذلك إلا لأن أقصى ما وصلت إليه أذهانهم، فالعلة المعروفة في هذا الحكم هو مجرد التعبد لا غير.

وختاماً نبتهل إلى الباري تعالى أن يوفقنا والمسلمين جميعاً في هذا الشهر إلى مبراته ومسراته وخيراته ويعيد أمثاله على الجميع في سعادة وهناء.

* * *

الإمام أحمد بن عيسى المهاجر

هو أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي ابن جعفر الصادق ابن محمد بن علي زين العابدين ابن الحسين السبط ابن الأمام علي بن أبي طالب.

إمام عظيم الهمة، بعيد النظر، قوي الإرادة، تستنتج ذلك من تجشمه المشاق في هجرته من العراق الخصبة والميسرة فيها أسباب الترف ونعومة العيش والتي بها ذويه وعشيرته المحتلة هناك مكانة سامية في السيادة والإجلال لدى الخاصة والعامة، فغادرها تاركاً كل ذلك وراءه مرتحلاً بعائلته وأتباعه الذين ينيفون على السبعين في وقت تتعسر فيه الرحلات فلا بواخر ولا سكك حديدية ولا سيارات ولا هناك قوافل إلا الجمال التي تذرع القفار المترامية الأطراف بخطواتها المتئدة سائرة بركابها الهوينا حتى تصل بهم إلى الشاؤ المنشود.

فهجرة هذا الإمام على هذا الوجه إلى حضرموت الشاسعة القاحلة والتي ليس له بها أصدقاء ولا عشيرة. وسكن بها مع علمه بما هو عليه حال أهلها من المذهب الإباضي الذي لا يتناسب فروعه مع المذهب السني الذي يتمذهب به هذا الإمام كل ذلك دليل مقنع على عظيم همته وبعد نظره وقوة إرادته.

ولد أحمد بن عيسى في مدينة البصرة عام ٢٦٠هـ ونشأ في حجر السيادة والعلم والدين، وانطلق في عنفوان شبابه متوغلاً في ارتياد مناهل العلم ومنابع العرفان. فأخذ الفقه والتفسير والحديث عن آبائه وغيرهم من علماء البصرة وفطاحلة العراق، وأخذ من التصوف العملي، وتهذيب النفس نصيباً وافراً يؤهله للحاق برجاله، حتى أصبح علماً من أعلام الفضل يشار إليه بالبنان، وما لبث أن تولى رئاسة الأسرة العريضية ذات القدر والاعتبار في البصرة. ثم

أسندت إليه المشيخة هناك وهو إذ ذاك لم يتجاوز الخمسين سنة، وما ذلك إلا لما شوهد فيه من النبوغ في النواحي الثقافية والنسكية والاجتماعية.

في ذلك العصر كان العراق ولاسيما مدينتي – الكوفة والبصرة – ميداناً للمماحكات المذهبية والمجادلات الكلامية، وأتوناً هائلاً تشتعل فيه نيران الثورات والفتن الدينية والسياسية وأصبحت الفوضوية الاعتقادية تصول وتجول في روابي تلك البقاع ووهادها. وأصبح العاقل يخاف دينياً على نفسه وعلى ذويه من التسمم بما يتشبع به الجو من تلك العقائد الزائغة ويخاف سياسياً من تلك الفتن المظلمة التي سفكت فيها دماء الجم الغفير من العلماء والصوفية وغيرهم من الأبرياء.

وفي نفس الوقت استولى الزنوج على البصرة فسفكوا الدماء ونهبوا الأموال وهتكوا الأعراض، وأعقبهم القرامطة الذين لم تكن فظائعهم بأقل من فظائع الزنوج هولاً وويلاً.

لم ير الإمام أحمد بن عيسى لنفسه ولا لذويه خيراً في البقاء بالعراق على هذه الويلات فهاجر سنة ٣١٧هـ كما هاجر كثيرون غيره من رجال الفضل فراراً بأنفسهم ودينهم، واستصحب معه عائلته وفيها ولده عبيد الله وحفيده بصري بن عبيد الله واستصحب من أبناء عشيرته جد السادة بني الأهدل وجد السادة بني قديم باليمن، وأخذ معه من أتباعه جعفر ومخدماً وشوية ومختاراً، وترك في البصرة من أولاده محمداً وعلياً والحسن ولكل منهم عقب بها.

اتجه نحو الحجاز مع إحدى القوافل قاصداً طيبة المنورة، حيث أقام بها متنصتاً ما يشاع ويرجف به عن وشك قدوم القرامطة إلى مكة المقدسة، ولهذا لم

يذهب لأداء نسك الحج بذلك العام الذي هجم فيه القرامطة على الحرم المكي في اليوم الثاني من ذي الحجة سنة ٣١٧هـ فاستباحوا مكة وفعلوا فيها الأفاعيل الفظيعة.

وأقام بالمدينة متكدراً ضايق الصدر من تلك الحوادث ومفكراً في اختيار البقعة التي تكون ذريته فيها بمنجاة من طغيان الفتن وانفجار براكينها. وفي سنة ٣١٨هـ قصد مكة وعائلته حتى إذا حجوا وأتموا مناسكهم. ثم رحل بهم نحو اليمن مع إحدى القوافل، وأخذ يتنقل في مدنه وقراه وأوديته تتقدمه أخباره وبشائره ويتلقاه الناس بالحفاوة والإجلال، حتى وصل إلى حضرموت فوجدها على وفق مرامه من حيث الهدوء وقلة السكان وبعده عن الأطماع فارتاحت نفسه إلى استيطانها.

استقر أولاً بقرية الجبيل بوادي دوعن، ثم انتقل منها إلى الهجرين، فأقام بها سنوات، واشترى له بها عقاراً ونخيلاً، ووهبها فيما بعد لتابعه شوية عندما ارتحل منها إلى قارة بني جشير، فأقام بها برهة فلم تطب له فغادرها إلى الحسيسة حيث توطن بها، واشترى بها أطياناً واسعة تسمى صوحاً وهي الأرض التي بين الحسيسة وبور.

وقد أقبل عليه أهالي حضرموت، وحنت إليه أرواحهم، لعمله واستقامته وأخلاقه وكرمه الباذخ ولين جانبه وعظاته وإرشاداته، ولم يزل كعبة القاصدين ومنهل الواردين، إلى أن توفي ببلدة الحسيسة سنة ٣٤٥هـ، وقبره في رأس هضبة واقع في نحو ثلث الجبل الكائن بالحسيسة وعلى ضريحه قبة يصعد إليها الزائرون في درج معبدة متسعة تبلغ نحو الثمانين.

العلامة السيد عبد الرحمن المشهور

هو السيد عبد الرحمن بن محمد بن الحسين المشهور العلوي. المولود بحارة السحيل بتريم في ٢٤ شعبان سنة ١٢٥٠هـ، ونشأ بها في حجر أبيه الذي أدخله مكتب باغريب وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره، فقرأ القرآن الكريم واتجه إلى حفظه فحفظه، وأخذ يتهيأ لخوض غمار الحياة العلمية، فبدأ يقرأ مختصرات كتب الفقه، ثم أخذ يتردد على العلامة السيد عمر بن حسن الحداد في الحاوي فقرأ عليه المنهاج وبعده قرأ التحفة بأكملها وقرأ في الحديث صحيح البخاري. كل هذا وهو في ريعان الصبا.

أما في شبابه فقد استفرغ كل ما لديه من القوى والوقت في الازدياد من المعارف والمباحث العلمية. فقد كان يقرأ كل يوم أثني عشر درساً على أساتذة متعددين في فنون مختلفة مطالعاً عليها اثني عشر شرحاً مطالعة إمعان ووعي، يرشده في كل ذلك أكبر شيوخه العلامة السيد أحمد بن علي الجنيد. فقد كان المشهور متفانياً جد التفاني في التردد إليه والقراءة عليه والانتفاع به، وكان الجنيد معجباً به حتى أنه كان ينيبه عنه في دروسه إذا غاب.

واستأذنه في الرحيل لطلب العلم فأذن له، فاندفع يجوب البراري ماشياً على قدميه حاملاً كتبه على كتفه علاوة على ما يحمله من فرش وكساء وزاد. فكان يقيم بالمسيلة ما شاء الله أن يقيم، ويأخذ عن الإمام الحبيب عبد الله بن الحسين بن طاهر، ثم يرحل إلى سيؤن وذي أصبح وتريس وشبام ودوعن وفي كل من هذه المدائن والقرى يقيم ملتقطاً درر الحكمة والمعارف من أفواه رجالها، كالحبيب الإمام الحسن بن صالح البحر والأئمة محسن بن علوي الصافي السقاف وعلوي

بن سقاف الجفري وأحمد بن عمر بن سميط وعبد الله بن أحمد باسودان وغيرهم من أئمة القطر الحضرمي، وكان يقال عنه: إن المشهور ذكي ولكن اجتهاده أكثر من ذكائه، فكان في غربته يدرس ويدون ويحفظ ويباحث ولا يألو جهداً في الاستفادة.

واستقدمه أبوه إلى تريم وهو إذ ذاك بدوعن، فعاد إليها وهو مفعم العياب الفقهية والآلية، وثمل الروح برحيق الحقائق التصوفية، وطفق يستغل ما أوتيه من المعلومات ويدلي بها إلى من حوله من الطلبة، فأقبل عليه رواد المعارف، وانتشر صيته في البلاد وتهافت الناس على القرب منه والأخذ عنه وأصبح نبراساً يستضاء به في حنادس المعضلات الفقهية والقضائية وصارت كلمته في الفتيا هي القول الفصل، وانتهت إليه رئاسة القطر الدينية.

ورأى وهو في عنفوان شبابه نضوب معين علم الفلك بحضرموت فشد عزيمته على إحيائه، ووجد اثنين من أذكياء الشبيبة يرغبان فيما يرغب فيه هما السيدان عمر المحضار بن عبد الرحمن بن شهاب الدين وعثمان بن عبد الله بن عقيل، فعكف وإياهما على دراسته مسترشدين ببعض من له إلمام به ومكبين على مطالعة كتب الحبيب طاهر بن محمد بن هاشم والشيخ بامخرمة وغيرهما في هذا الفن، فلم تمض عليهم إلا برهة قصيرة حتى اخذوا بنصيب وافر منه يخول لهم عمل الازياج والجداول لمعرفة الكسوفين وإمكان الرؤية واستحالتها وعمل الإمساكيات وتحديد مواقيت الصلاة، فكان مؤذنو تريم لا يكاد أحدهم يؤذن حتى يؤذن السيد المشهور في مسجده.

وطعن المترجم له في سن الكهولة فتفرغ للتدريس صباح مساء، وكانت له

يومياً دروس خاصة وأخرى عامة يحضرها الجمع الكبير من كبار العلماء والأمراء فمن دونهم من عامة الناس، ومنها الدرس العشوي المسمى بالروحة يقام كل عشية عدا يوم الجمعة في قاعة بداره بدون سقف وتطبخ القهوة البنية بين الحاضرين أحياناً، وفي جانب عنهم أحياناً، وتدار عليهم كؤوسها مع ما يتلقون من الفوائد العلمية التي يلقيها عليهم المترجم له، وقد يحضرها رجال من أكابر علماء القطر كالإمام عيدروس بن عمر الحبشي- والإمام علي بن محمد الحبشي- وأخيه الحسين والحبيب أحمد بن محمد المحضار والعلامة السيد أحمد بن حسن العطاس والعلامة عبد الله بن محسن السقاف وأخيه عبيد الله وأمثال هؤلاء كثيرون، يقرأ في الروحة كتاب الإحياء وكتب أخرى شتى.

وقد تربع السيد المشهور منصة الدرس الأثري الذي يلقى في زاوية الإمام الشيخ علي بن أبي بكر السكران ظهري الاثنين والخميس، والذي يتوارث منصته فطاحل علماء بني علي بتريم منذ أكثر من أربعمائة سنة قرئت فيها ألوف الكتب وتدولت فيها نفائس المباحث. وكنت أنا قد تشرفت مراراً بحضور درس السيد المشهور فيه فسمعته مرة –رحمه الله– يتكلم عن القضية المهملة وقولهم أنها في قوة الكلية فوعيتُ منه أن قال: أن قوتها الكلية ليست على إطلاقها لاسيما في الأحكام الفقهية فلا يسوغ جعلها كلية دائماً، وكنت أنا في ذلك العهد لا اعلم شيئاً عن القضايا فلم أفهم فحوى قوله.

ودروس الزاوية يحضرها منذ القديم خواص الرجال ومتنوروهم غالباً أما دروس السيد المشهور فيها بالخصوص فقد يأتي إليها من حين إلى آخر كبار علماء القطر وقد حضرها مرة شيخه السيد الإمام أبو بكر بن عبد الله العطاس

حينما قدم تريم.

وأشرقت شمس السيد المشهور في القطر فأصبح مشاراً إليه بالبنان في الفتيا والإرشاد والصدع بالحق تجاه الأمير والكبير من الناس، وكان سلطان البلاد إذ ذاك يقف واجماً أمام حدته التي يصرح فيها بأخطاء السلطان أو سوء تصرفاته وحاشيته. وإن أنس ولا أنس ما بلغني عنه أنه ذات عشية في إحدى روحاته وقد أخذ يواجه السلطان محسن بن غالب الكثيري بكلام لاذع، وكان بعض ندماء السلطان حاضراً فجعل يستلفت نظر السلطان ليغريه بالجواب ولكن السلطان بقي مطرق الرأس واجماً ولما أن انفض الجمع سمع ذلك النديم يقول للسلطان: أتترك المشهور يزدريك أمام الناس وأنت سلطان؟ فأجابه: أنا سلطان الدنيا والمشهور سلطان العلم، ولابد لسلطان الدنيا أن يخضع لسلطان العلم. فأكبرها الناس من السلطان.

وللمترجم له مواقف في الوعظ الديني حميدة الأثر في النفوس رغماً عن الحنين الطفيف الذي يكسو صوته عند الكلام، فكأني أراه الآن هو قائم تجاه الجماهير في زيارة قبر النبي هود بوجهه الأبيض المشرب بالحمرة ولحيته الكثة المخضبة بالحناء منطلقاً لسانه بالوعظ والتذكير يتدفق بالاستشهاد بالذكر الحكيم والحديث النبوي وآثار الحكماء.

ومع كل ما ذكرنا فإنه لم يشأ أن يهمل ناحية التأليف فقد أخرج للناس كتباً ورسائل كلها مفيد، منها كتاب شمس الظهيرة في ضبط أنساب القبائل العلوية ومنها تاريخ راتب السقاف الأكبر، ومنها مختصر فتاوى ابن زياد، أما بغية المسترشدين التي لخص فيها لباب الفتاويات الخمس، وأضاف إلى ذلك من

عنديـاتـه الشيء الكثـير مـن الفوائـد. فقـد رزقـت حظـاً عظـيماً مـن إقبـال العمـوم وطبعت مراراً ونفـذت نسـخها، ولم يـزل الإقبـال عليهـا مسـتمراً بمصر والحجـاز وجاوا وغيرها مادام الفقـه الشـافعي موجـوداً، يقـال أنـه ألفهـا في خلواتـه بشـعب النبي هود، وله كتاب شجرة أنساب العلويين وهو موسـوعة تشـجير لم يسـبق إليـه في نحو عشرة مجلدات ضخمة.

كنت قد قرعت باب داره مرة حوالى الساعة الرابعـة قبيـل الظهـر فـإذا هـو نفسه يفـتح لي البـاب وإذا أنـا بسـجل عظـيم منشـور عـلى القاعـة يمتـد مـن البـاب الخارجي الجنوبي إلى جدار الـدهليز الشـمالي وإذا هـو أوراق متلاصـقة مـع بعضـها والسيد يتنقل من موضع إلى موضع حاملاً قلمه ودواتـه يخـط في السـجل تعليقاتـه وملاحظاته، ولما أن ذهب ليأتي لي بالكتاب الذي أرسلني خالي في طلبه منه دنـوت أنا من السجل فإذا هو المشجر المشار إليه آنفاً.

ومن ينعم النظر في الأعمال اليومية لهذا العلامـة يـرى العجـب مـن وجـده واجتهاده في العلم والعمل والقيام بواجبه الديني والدنيوي معـاً، فهـو مـع إدارتـه شـؤونه الماديـة الخاصـة واندفاعـه في الإفـادة العلميـة والاسـتفادة تـراه في عبادتـه وزهادته وصيامه ونسكه لا يقصر عن أولئك الذين نسمع بهم من رجـال الرسـالة القشيرية وأمثالهم، فإن له تهجداً ليلياً يمتد من نصف الليل إلى الفجر طـول عمـره حتى إذا أوتر أوتر بإحـدى عشر ركعـة، ويـلازم يومياً صـلاة الضـحى والتسـبيح بكماله، أما الرواتب والمسنونات والصلاة جماعة في أول وقتها فلا يعـرف إخلالـه بشيء منها، وفي رمضان يتنفل بمائة ركعة يومياً، ولـه في كـل سـنة رحلـة إلى شـعب النبي هـود استئناسـاً بجـواره والتماسـاً للخلـوة وتفرغـاً للعبـادة والتـأليف، فيقـيم

هناك ثلاثة شهور وهي جمادى الثانية ورجب وشعبان ثم يعود إلى مقره، ومن عاداته الخروج لزيارة أقطاب بشار صباح كل جمعة زيارة حافلة يحضرها الكثيرون من تريم وغيرها، وكان لا ينفك عن حضور حضرة الحداد بعد صلاة كل جمعة ولا عن حضور حضرة السقاف ليلتي الاثنين والخميس

والسيد المشهور على حدته وتأثره من رؤية المنكر أو سماعه يبدو مع جليسه لطيف الأخلاق هشاشاً متنزلاً تنزلاً يدل على إنكاره ذاته وهو للغريب أكثر إيناساً وتراه كأبٍ شفيقٍ له ينزله في داره على الرحب والسعة ويستصحبه معه إلى المحافل العلمية والمعاهد الدينية. وقد تخرج على يديه كثيرون من أعيان حضرـموت وعلمائها، توفي السيد المشهور ليلة السبت بتريم في ١٥ صفر سنة ١٣٢٠هـ وشيع نعشه الجم الغفير عشية السبت تغمده الله برحمته ونفعنا بسره.

❊ ❊ ❊

حضرموت

تصل إلينا أعداد من "المستمع العربي" ونحن بهذه البلاد النائية - داخلية حضرموت- سلطنة الكثيري حيث يتباشر الأدباء والمتنورون بورود هذه الأعداد ويتعايرونها بينهم ويلبثون أياماً بعدها يزينون مجالسهم بمذاكرة ما جاء فيها من طرائف الأدب وروائع الفوائد الثقافية وما يثلج صدور المتعطشين إلى الشوارد الأدبية والاجتماعية.

ونحن نرى أن من واجبنا نحو القائمين بهذه الخدمة العظيمة المهداة للإنسانية ليس فقط أن نشكر هيئة هذه الإذاعة البريطانية وأن نبلغها ما يستفيد متنورها بهذه البلاد من مناهل هذه المجلة الفياضة بل ونشارك كتابها بما نستطيعه من الإدلاء بدلونا الصغير بين تلك الدلاء الكبيرة التي تروي الصداة وتسعف العفاة.

وحضرموت اليوم - وتسمى وادي الاحقاف- قطر له شهرته بين رجال السير والجغرافيا وله ذكر قديم في الجاهلية والإسلام فهو في الجاهلية مسكن عاد الأولى وأصحاب الرس ومقر التبابعة والأقيال وموطن ملوك العرب وذوي التيجان من كندة أرباب الحصافة في الرأي وأصحاب الطول والحول. وجاء الإسلام فورد ذكر حضرموت أولاً بالإشارة لها بالهجرة النبوية إليها أو إلى يثرب ثم تتابع ذكرها في التاريخ على العهد النبوي وأيام الردة وخروج الأباضية بها وهلم جرا.

واليوم وقد أصبح هذا القطر في التاريخ الحديث وطناً لرجال من السلالة العلوية وغيرها من أفذاذ طبقت شهرتهم الآفاق وانتشر بهم عرف ذكرها في

غالب الأقطار..... [١]

وحدود حضرموت على ما قرره علماء الجغرافيا من متقدمي الحضارمة من مرسى بلحاف والمحدجة وعين بامعبد غرباً إلى سيحوت شرقاً ومن البحر جنوباً إلى جردان وجبال مأرب شمالاً وهي الواقعة بين ١٥ و١٧ درجة وفي الطول بين ٤٩ إلى ٥١ درجة غرينتش.

التطور بها:

وادي الأحقاف كغيره من البقاع يجري على سنن الانتخاب الطبيعي فتتطور حالاته وتتبدل أسماء محاله وتتفرع قبائله فتنتسب إلى فروع أخرى تتجدد وتندغم بطون في آخرين وتبيد عشائر وتحل محلها غيرها وربما استبدلت اسماً للمحل الذي تحله بالاسم السابق فينمحي هذا ويثبت ذاك وتحفظ لنا سجلات الأجيال الغابرة من الأسماء ما لا يعرف اليوم على أننا نرى أن حضرموت من أبطا بلاد الله سيراً وأثقلها تطوراً وتقدماً إلى الأمام كما أن جزيرة العرب عموما لا أراها تختلف حالتها الاجتماعية الحاضرة عما كانت عليه في القديم إلا اختلافاً يسيراً لا يكاد يكون شيئاً إذا قورن بالخطوات الواسعة التي تخطوها البلاد المتمدنة الأخرى في التقدم الاجتماعي والثقافي وعلى هذا فإن قليلاً بحضرموت ما قد محته الدهور وأبدلته بغيره من أسماء الأمكنة والبلدان وإن يكن هنا قسم وافر من أسماء القبائل والعشائر التي يذكرها لنا التاريخ في أدواره الأربعة الآتية لا يعرف الآن منه شيء بيد أن المنقبين والباحثين من رجال التاريخ - جزاهم الله خيراً – لم يألوا جهداً في تطبيق طائفة من أسماء المواضع المعروفة بعصرنا هذا على ما كانت

(١) فراغ من الأصل.

تسمى به في تلك العصور، وكذا إعادة عدد من فروع قبائل القطر إلى أصولها السابقة وهذه خدمة جليلة قدمها أولئك الباحثون على قلتهم تفيد القطر وأهله فائدة عظيمة، وهي وإن كانت لا تزال فجة لم يدرك ثمرها إلا أنها تسهل الطريق إلى إيصالها إلى درجة النضج والهمداني من رجال القرن الرابع في كتابه "جزيرة العرب" خير من وصف حضر-موت جغرافياً وعدد ما فيها من أسماء الأمكنة والبقاع وما هو معروف أكثره حتى الآن.

أدوار التاريخ:

قسم السيد الباحثة عبد الله بلفقيه العلوي وهو أحد نابغي عصرنا التاريخ الحضرمي إلى أربعة أدوار.

الأول: دورها قبل الإسلام.

والثاني: دور ظهور الإسلام وما تلاه من حوادث الردة.

والثالث: دور قيام الاباضية بحضرموت أو ما يسمى بالعهد الاباضي.

والرابع: دور العهد السني من إدخال مذهب الشافعي ويمتد حتى وقتنا الحاضر ونحن نرى أن هذا التقسيم صائب لا يجد غيره.

الفوضى السياسية في السابق:

وأنت إذا ألقيت نظرة على صفحات الأدوار الثلاثة الأخيرة من تاريخ حضرموت وهي الأدوار اللامعة فيه والتي تسمح للباحث بشر-به من المعلومات تطبع في ذهنه صورة لتلك الأيام الغابرة إذا ألقيت نظرة عليها من الوجهة السياسية تجد الصورة هي العصبية والاضطرابات العشائرية قد حلت وهاد

حضرموت ورباها وألفتها طوال تلك القرون وتجد أن السلطات الدولية التي تدعي الاستيلاء على وادي الاحقاف إنما تستطيع أن تحمي نقطاً محدودة من البلاد لا تتعداها إلى غيرها فالعشائر المسلحة تصول وتجول وتقطع السبل وتجد ثمار النخل وتتقاتل مع بعضها من دون أن تنال منها تلك السلطات التي تحمي البلاد بزعمها منالاً.

وكان أعضاء العائلة المالكة نفسها كثيراً ما يسطو بعضهم على بعض ويغزو القوي منهم الضعيف ويسلب منه الملك بعد أن يبطش به وينكل بذويه والذي يظهر لمن يمعن النظر في تاريخ حضرموت هو عدم وجود دولة منظمة قائمة على أساس التملك الوراثي وجارية على النواميس الطبيعية لحراسة الملك وحماية البلاد بأسرها.

ويلوح لنا أن الدولة الكثيرية الأولى والدولة الكثيرية الثانية الحاضرة والدولة القعيطية هي أقرب من عرف من دول حضرموت إلى ما ذكرنا من الرسوخ على أساس التملك الوراثي والجري على الصورة التي تجري عليها السلطات القانونية.

فتاريخ حضرموت السياسي في تلك القرون مفعم بالغارات العشائرية والتنازع المحلي والانقسامات الداخلية فهو تاريخ مضطرب الجوانب جم الملتويات والتعاريج يتعسر على المؤرخ ضبطه وتبويبه لتوالي دوله وتعددها في آن واحد وسرعة قيام سلطات جديدة تقتسم البلاد ثم تسقط حثيثاً وتحل أخرى محلها فإذا تفوقت طائفة بالقوة وامتلكت إحدى المدن لعبت بها كما يشاء لها هواها ودعت نفسها دولة ورئيسها سلطاناً ريثما يتفوق عليها غيرها فيزحزحها عن

موضعها ويحتله مؤقتاً وهلم جرا.

والحالة السياسية اليوم بحضرموت هي أصلح منها بكثير من القرون الغابرة فقد استقر الحال منذ نحو القرن إلى عصرنا هذا على رسوخ حكومتي القطر المتحابتين – القعيطية والكثيرية – وقد ساد بينهما الوداد وصدق الإخاء وارتبطا فيما بينهما بزيارات ودية ومعاهدات صادقة ومواثيق أكيدة وإخلاص صفاء يحولان دون التفكير فيما يكدر أحد الطرفين من الآخر. ولاسيما بعد أن بذل رجال من أبناء حضرموت في السنوات الأخيرة جهودهم في إرشاد حكومتيهم إلى الارتباط بالحكومة البريطانية فتم ذلك على ما يرام وأصبحت اليوم حضرموت مطلة على باحات السعادة ومتمتعة بشيء من الهدوء والرفاهية ومقدمات الإصلاح بفضل مساعي المستشار المستر انجرامس (W. H Igrams) الذي منحه السلطان الكثيري لقب صديق حضرموت.

وإذا أتيح لنا فإننا سنواصل فيما يأتي بحوثنا الموجزة عن تاريخ القطر وتكوين دوله وتراجم رجاله من الشخصيات البارزة في الأدب والسياسة والثروة ودخول هذا القطر في النظام الجديد وكل آت قريب.

* * *

شبام مدينة الحكمة(١)

الحازم ما يكتبه وهو يتأكد أن وراء ما يكتب عيوناً حديدة البصر- لا تلتهم ما تخطه اليراعة صفوا عفوا بل تكتنفه أخذا وردا وتوسعه تقليباً وبحثاً، ثم تضرب بالزائف منه عرض الحائط وتجيز بالقبول منه ما هو حقيقة لا مرية فيها فالكاتب المؤرخ لا يكتب للتسلية والفكاهة فحسب ولا للعبث بألباب البسطاء وأذواقهم وإنما يكتب للفائدة والتاريخ عارفا بأن وراءه رجالاً محققين يعملون أكثر مما يعلم ويبحثون أشد مما يبحث ويفكرون اعمق مما يفكر ويميزون الغث من السمين والزائف من الاصيل بدافع غيرتهم على الفن

قال الشبامي:

وقولنا شبام مدينة الحكمة هو قول لا نعلمه إلا بعيدا ومن الخطل... [١] في التاريخ الحضرمي، فإن مدينة شبام في الماضي والحاضر مهد الحكمة والى أهلها تنسب الأقوال المأثورة فيقال عند رواية المثل السائر أو القول الدائر (كما قال الشبامي): كيت وكيت بمثابة قولك كما قال الحكيم.

ولم تؤلف الحضارمة هذه الجملة اعتباطا ولم ترسلها مثلاً إلا بعد أن علمتها التجارب طول القرون أن اللسان الشبامي قنطرة قويمة تعبر عليها الحكمة من الذهن إلى الخارج. ولعل حرف (ال) في كلمة الشبامي لم تكن في نظر سادتنا النحاة للعهد الذكري ولا للذهني وإنما هي للاستغراق فيما نحسب، والمناطقة يعتبرون القضية المهملة في قوة الجزئية. وعلى كل حال فبنو الإنسان أمنع من أن يكيلوا الثناء جزافاً ويرسلوا الأمثال عبثاً:

---

(١) بياض من الأصل.

والناسُ أجدر من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

الحكمة هنا:

ومقصودنا بالحكمة هنا تلك المصابيح الساطعة من الكلمات المرشدة للسراة إلى الصواب والسداد نظرياً وعملياً. ونحن نرى أننا ننظر نظراً مريباً إلى قول من يقول: إن الحكمة هي: في ألسن العرب وأدمغة اليونان وأيدي الصينيين. إذ نرى الواقع يكذبه اليوم وقبل اليوم. ونعتقد أن الحكمة هبة من المواهب السامية يتصرف فيها مدبر العالم سبحانه فيؤتي الحكمة من يشاء (ومن يؤت الحكمة فقد وأوتي خيراً كثيرا) فمتى غرزت هذه الحكمة في دماغ أي شخص كان عربياً أو يونانياً أو صينياً أو غيره وأتيح له لسان فصيح يستطيع به أن يعبر عما يخالج ذهنه فإنه لا يلبث أن يقذفها جوهراً كريماً على سامعيه فإن لم يتح له ذلك فإن الحكمة ستظل محتبسة في دماغه حتى يذهب ذلك الدماغ قرباناً للدود بعد عمر طويل.

وأنا لا أستطيع أن أتصور لسانا ينتحل الحكمة من دون أن يستمدها من الذهن ولعلي واهما في هذا وعليه فإنني أعزم على من شاء من قراء (اليقظة) أن يأتي بما يزحزح عني هذا الوهم.

والحكمة الشبامية لو أوجد لها الحظ السعيد من المعارف والفنون كليات راقية ومدارس جامعة تغذي أهلها بما تتغذى به أرواح النوابغ في البلاد المتمدنة لأشعت أضواءها على القطر الحضرمي بل البلاد العربية بأسرها ولم تك (أثينا) هي منبع الحكمة الفياض لبلاد اليونان كلها بل ولأوربا قاطبة والعالم بأجمعه إلا بعد أن سوعدت بمعاهد العلم وكليات الثقافة لتنمية تلك الموهبة الثمينة الكامنة في تلك الدمغة الكبيرة التي برهنت على استعدادها لابتكار الحكم وخلقها وستبقى الحكمة الشبامية خالدة بخلود

تربة شبام وهواءها وماءها حتى تقيض الأقدار لها من يقدسها ويرفع منارها فيزدهر القطر كله حينئذ متمتعاً بنتائج عقول تتقدم في مدارج النمو والتنظيم.

المنزلة الشبامية:

والمنازل الشبامية هي في منهل من المناهل العذبة التي يستقي منها رجال الميقات والفلك. فالقمر الذي قدره الله منازل يقطع كل ليلة في فلكه منزلة واحدة من المنازل التي أولها الهقعة بدء بفصل الربيع وأخرها الهقعة من فصول الشتاء على الاصطلاح الزراعي بحضرموت واليمن، وحيث إن المنزلة الطالعة في الأفق الشرقي مع المغرب تكون غاربة بالطبع في الأفق الغربي فجراً فهي تسمى المنزلة الغاربة وهي التي يقال لها: المنزلة الشبامية ورقيب المنزلة الشبامية هي المنزلة التي تطلع فجرا في الأفق الشرقي وتغرب مغربا في الأفق الغربي وعليها عمل الفلكيين في أكثر الجهات.

فمثلا ترى المنزلة الشبامية اليوم لدينا هي الحوت ويسمى الرشاء أيضا - وهو يظهر كل ليلة في الأفق عند المغرب ويغرب مع الفجر إلى بعد مضي ١٣ يوماً فيتزحلق إلى الأمام ويتعقبه النطح وهلم جرا. أما في مصر وبقية الجهات فإن المنزلة اليوم هو النطح لأنه يطلع فجراً ويغرب مغرباً والمعنى واحد وإنما الاختلاف في الاصطلاح ولا مشاحة فيه. وعلى كل حال أما آن لشبام أن ترفع رأسها فخراً لتمركزها في فن الميقات مركزاً خوَّل لها أن تذهب فيه مذهباً وجيهاً يدل على غزارة علم وأصالة حكمة وحصافة رأي. ويخيل لي أن بعض القراء الكرام ليسوا بالمقتنعين بالحكم على أن شبام هي مدينة الحكمة بمجرد ما قد أدلينا به في هذا المقال من البراهين التي لعل فيها مقنعا لغير المماحكين ولكننا سنواصل المقال بحلقات نلم فيها عن تاريخ شبام وبعض رجالها حتى يبدو للعيان واضحاً جلياً أنها حقاً مدينة الحكمة.

شبام مدينة الحكمة (٢)

إننا سواء كنا نكتب للأجيال الحاضرة أم القابلة فإن مدينة شبام التي نكتب عنها ما نلهمه الآن غنية عن التعريف الجغرافي أو التاريخي إذ هي شهيرة لدى المؤرخين جاهلية وإسلاما لما اكتسبته من مكانة تجارية ولباقة اجتماعية وسياسية خولت لها النقابة على مدائن القطر جمعاء. وهذا الهمداني من رجال القرن الرابع يتحدث إلينا في كتابه (جزيرة العرب) عن مدائن حضرموت وقراها وهو فيما أرى – خير من وصفها جغرافياً وعدد من أسماء الأمكنة والبقاع حينذاك ما هو معلوم بعضه حتى الآن. يقول عن شبام بلفظه : (وأما شبام فهي مدينة الجميع الكبيرة وقد يسكنها حضرموت وبها ثلاثون مسجداً ونصفها خربته كندة وهي أول بلد حمير).

ويقول المؤرخون : أن شبام كانت تسمى في الأصل شباه بالهاء فأبدلت ميماً. يسكنها في القديم بنو حضر-موت بن سبأ الأصغر وهم ملوك الجاهلية والإسلام وهم العباهلة والأقيال الذين كتب إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسلموا.

قالوا: وشبام ... [١] وهو يشمل شبام وتريس وذي أصبح وسيؤن وبور والحول الذي هو موضع الغرفة اليوم.

ويقول ياقوت في معجمه: أن شبوة مدينة لحمير وأحد جبلي الملح بها الآن قال: (ولما احتربت مذحج وحمير خرج أهل شبوة عنها فسكنوا حضر-موت وبهم

(١) فراغ من الأصل.

سميت شبام وكان في الأصل شباه) انتهى كلام ياقوت قلت ولعل شباه معناه شبوة الكبرى.

بيوتات شبام

للبيوتات النبيلة بل وغير النبيلة في مدينة الحكمة تقاليد وعادات عريقة في اللياقة قد يحسبها البسيط النظر عادات جوفاء لا تكن في أحشاءها لباباً من الحكمة المعهود صدورها بالغريزة من أهل هذه البلاد. وهي في كنه الأمر مدارس فياضة بالتهذيب والتدريب على سلوك السرـاديب المظلمة لهذه الحياة ولذا تجد السرـي الشبامي النبيل في الغالب سارياً بين الحياة سريان النجم في حنادس الظلماء يسترشد به الضال ويستنير به الأعشى وما ذاك إلا نتيجة من نتائج التربية والمدارس العلمية التي جرى عليها الشباميون في تقاليدهم وعنايتهم بأولادهم مزاولة وكفاحاً من دون سابورة ولا طباشير.

تلكم هي المدرسة التي نبغ منها رجال شباميون في فطاحل الأعمال وتخرج من بين جدرانها أبطال عنوا بدراسة الحياة دراسة حقيقية فيها الغاية المنشودة من هذا الكفاح الحيوي بنفع أنفسهم وعائلاتهم والوسط المحيط بهم.

من حكمة الشبامي أيضاً

لم ير الشبامي سبيلاً يقود الطفل إلى ما يتطلبه الآباء في أبنائهم من الرجولة أجدر من مجابهة مشاق الحياة في أوائل تباشيرها، وهذا لا يكون بين حجور الآباء وأحضان الأمهات. إذ أن العاطفة الأبوية قد تقوم حاجزاً أحياناً دون تهذيب أغصان الأخلاق وخضد أشواكها بعنف. فالشبامي يرى أن زحزحة الناشئ عن أهله وعن مدلليه إلى من يوثق بعنايته ورعايته أمثل نهج يتجه به نحو العصامية

ويصل به إلى الاعتماد على النفس.

وقد أدلى قديماً وحديثاً جمهور منهم بهذه الوسيلة فإذا هي خير وسيلة للتوصل إلى الاعتزاز بالذات والإشراف على الميادين الواسعة لتنازع البقاء وبقاء الأصلح. فالشبامي ينتهي إلى الشأو الذي يرمقه كل الطلاب من دون أن يزهو سبقه ومن دون لفظ أو ضوضاء فخر قد تحدث عنه فوز غيره من الآخرين عند هذا السبق.

إن لي فيما أرى حقاً وقد ألمعت إلى ما ألمعت إليه أن أدعم هذا الإلماع بذكر أبطال من أولئك الذين أنبتتهم تربة مدينة الحكمة وأنعشهم هداءها وقد كان لهم في التاريخ الحديث قدم راسخة في القيادات العلمية والاجتماعية والتجارية ولكنهم وأضعافهم معهم ممن لم أذكرهم لم يتحصلوا لا في حياتهم ولا بعدها على ما قد تحصل عليه أمثالهم في البلدان الأخرى من أوسمة الإعجاب ومسح الأجواخ والطبطبة على الأكتاف.

* * *

نشوء الدولة الكثيرية

(٤)

العلويون وعزلتهم

وربما يلاحظ القارئ فيما نقلنا من هذه النتف التاريخية، أن العلويين غير مذكورين بشيء ما. لا بتحيز ولا بإصلاح تجاه تلك الفترة الهائلة والتناحر الشديد بين طلاب السلطة في القرنين السادس والسابع.، ويؤخذ من التاريخ أن الجدير بمركز العلويين في ذلك العصر الرهيب هو الابتعاد عن مادة (ساس يسوس) والامعان في الهرب من المشاغبات والمماحكات التي ولع بها رجال ذلك الجيل. ولذلك ترى العلويين إذ ذاك كسروا سيوفهم وقطعوا أوتار قسيهم إعلاناً لتطليقهم السلاح الذي هو الأداة الوحيدة للتناطح في سبيل الاستيلاء والتفوق السياسي، وهو الزميل الناصح لمن تطمح نفسه إلى السلطة والتغلب، وما يدريك فلعل رجالاً من أهل تلك العصور ساورهم شيء من الظن بالفقيه المقدم وقومه تطلعهم للملك وتشوفهم إلى الاستيلاء وطمعهم فيما يتزاحم عليه الناس من دواعي السطوة، وأرائك الغلبة، لا سيما وهم المنتمون إلى الأصول الهاشمية والدوحة الطالبية، الذين طالما غازلوا الإمامة وغازلتهم وصبوا إليها وصبت إليهم في كل مكان وزمان وبكل بنان وسنان وحيل بينهم وبينها بأطراف القنا وبواتر السيوف.

ولكن الفقيه المقدم رضي الله عنه. برهن بكسره سيفه لأولئك الظانين على أنه بواد غير وادي سفاسفهم وحطامهم، وأنه في شغل شاغل عما أخذ بمجامع قلوبهم ومسالك وجهاتهم.

سارت مشرقة وسرت مغرباً ... شتان بين مشرق ومغرب

وهنالك رأيت العلويين معرضين إعراضاً كلياً عن المشاغبات وكل ما يقرب إليها من قول ومن عمل عاكفين على تدريس العلم وإرشاد الطالب، ونشر الفضائل، وإكرام الوارد والصادر، والتزام الطريقة الصوفية التي هي كما يقول السيد البحاثة عبداللاه بلفقيه في كتابه (تاريخ المهاجر) نقلاً عن العلامة علوي الحداد العلوي: (وتمرين النفس على العمل بالعلم والتخلق بالأخلاق الحسنة والتحقق بحقائق الإيمان ومطالبة النفس بأحكام العبودية لا تصوف الحقائق المجردة الذين ينهون عنه أبلغ النهي ويعيبون من مال إليه ويمنعون أبناءهم من مطالعة كتبه ولا هو تصوف الأوضاع والرسوم فقط). انتهى.

عود على بدء

أقول: وأشفق أن يمل القارئ من عودتنا إلى مثل تلك الحوادث المتشابهة من هجوم ونهب وسلب واستيلاء – الأمور التي كانت تشرق بها حضرموت .... ولم يغنها فتيلاً احتلال الأيوبيين لها، ولا استيلاء الرسوليين عليها، بل مضت السنون تباعاً والحال على ما وصفه التآكل القومي ومن مباغتات الويلات والأهوال.

ومات مسعود بن اليماني والي تريم سنة ٦١٨ وكان كثير اللهو والملذات غير أنه قبيل وفاته أقلع على يد الشيخ الخطيب نفع الله به، وترك الملك لابنه عمر بن مسعود ولم يأل هذه جهداً في اضرام نيران الفتن على العشائر المناوئة له.

الحبوظي وظهوره

زفي ذلك الوقت نبغ سالم بن إدريس بن أحمد الحضرمي وكان أمير ظفار، كما سنبينه بعد فاستفحل أمره وطمع في حضرموت وأقبل إليها، وانتهز بنو كثير الفرصة فقاموا معه ووالوه وروجوا سياسته، وكان قد احتل شبام سنة ٦٨٣ وطفق يستولي على قرى حضرموت قرية قرية فأحاط بتريم وحصر ابن مسعود

فيها وأقام تحتها شهور، وافتتح دمون والعجز والغيل الأعلى وسيؤن، وفي حصر- تريم كان عمر بن مسعود قد أرسل ولده يماني إلى ... ليجند جنداً يدافع بهم ويهجم ولكنه فشل وعاد ولم يأت بأحد معه.

* * *

نشوء الدولة الكثيرية
(٥)
الحبوظي وآل كثير

وتولى آل كثير إدارة العسكرية الحبوظية واشتدت الفتنة على تريم فخلت البلاد من أهلها وعم الخراب، ولم تقم في تريم جمعة مدة الحصر الذي امتد إلى تسعة شهور، وتوجه سالم الحبوظي إلى ظفار مقر مملكته، وأناب آل كثير على القرى. ومات في ذلك الوقت علي بن عمر بن كثير الأول سنة ٦٧٥، وليس هو علي بن عمر بن جعفر الآتي ذكره، وخلف علياً الأول ابنه محمد بن علي بن عمر بن كثير ولم يكن دون أبيه حزماً وعزماً وتفكيراً.

ومات أيضاً فيها عمر بن مسعود بن يماني والي تريم بعد أن فعل الأفاعيل وصبغ أطيان ولايته بالدماء، وصد الحبوظي على تريم وان قد ترك أخاً له أديباً شاعراً يسمى محمدا رفض أن يتولى الملك بعد أخيه فتولاه أبنه يماني بن عمر.

وعندما توجه الحبوظي إلى ظفار كما ذكرنا كان صدره مفعماً بالآمال العظيمة في أن يتبسم له الدهر ويتملك البلاد بطولها والعرض، ولكن المواصلات البطيئة في ذلك العصر كانت لا تساعد المحظوظ على حفظ ما يستولي عليه من المواضع إذا هو ابتعد عنه. ولا على الإسراع إلى استعادته عندما ينفلت منه. فالرجل الجم المطامع يحتاج حينئذ إلى شكيمة قوية وجندية واسعة وإدارة منظمة ورجال أمناء أكفاء يأتمنهم إذا غاب ويعتمد عليهم إذا غفل. ولم يكن الحبوظي كذلك فإنه قد يكتفي باسم الاستيلاء فقط والاقتناع بشيء من الرسوم ثم يترك البلاد وشأنها جاعلاً عليها عاملاً فريداً لا يلبث أن يستقل بها أو يطرد عنها.

ومكث الحبوظي يدور على البلدان التي امتلكها بحضرموت فيجدها خاضعة اسماً فيضيف إليها ما يسهل استيلاؤه عليه حتى طمعت نفسه في الشحر

إذ بلغه أن الغز استولوا عليها، وأنه هرب صاحبها ابن شجنة إلى الجبال وذلك سنة ٦٧٧ فجهز الحبوظي عليها بحراً وبراً ونزل إلى البر والتحم الحرب بينه وبين الغز وانتهى بفشل الحبوظي وانهزامه. وعاد إلى ظفار وأقام بها إلى سنة ٦٧٨ حيث جهز الملك المظفر عليها جيشاً من البحر وجيشاً من البر من طريق حضرموت أميرهم ابن الجنيد ففتح الهجرين، وجعل عليها ابن شماخ وأجتمع الجيشان تحت ظفار ففتحوها وقتلوا سلطانها سالم بن إدريس المذكور.

سبب تجهيز الملك المظفر على ظفار

ولسبب تجهيز الملك المظفر على ظفار خبر طويل حكى بعضه صاحب هدية الزمن وأوضحه المؤرخ اليمني صاحب العقد فرجحنا نقل كلامه برمته لفائدته وعلاقته بما نحن، فإليك قال:

(ابتداء سبب فتح ظفار وقتل صاحبها سالم بن إدريس الحبوظي وقتل معه يومئذ نحو ٣٠٠ قتيل وأسر خلق كثير – هو مجاعة عظيمة وقحط شامل أصاب أهل حضرموت فأقبل أهلها إلى سالم بن إدريس الحبوظي، وطلبوا منه ما يدفعون كلب الجوع عنهم تلك السنة وسلموا إليه مصانعهم وحسنوا ذلك عنده فأجابهم إلى ما طلبوا وخرج هو مع الوفد إلى حضرموت لإتمام الكلام وهذا أمر غريب لم يسبقهم إليه أحد.

ولم يعلم هو بدهائهم ومكرهم فلما أخذوا منه جميع ما طلبوا سلموا إليه المصانع فقبضها وعاد إلى ظفار ورأى أنه أفلح وأن حضرموت قد صارت كلها تحت يده، فلما رجع إلى ظفار مالوا ميلة واحدة على مصانعهم وأخذوها طوعاً وكرهاً. ولم يكن دونها حائل، فأصبح لا مال له ولا بلاد. فكاد يهلك أسفاً على ما فرط منه في أمواله.

واتفق أن السلطان المظفر الغساني رحمه الله ندب سفيراً له إلى فارس بهدية وصحبه جماعة من التجار فصرف بهم الريح من طريقهم ورمى بهم إلى ساحل ظفار فقبضهم سالم بن إدريس الحبوظي وقبض ما معهم من الهدايا والأموال، وافتكر أن هذا خير مما فات عليه في حضرموت. فراسله السلطان المظفر بسبب ذلك وكاتبه وقال له: لم تجر عادة بهذا ونحن نجلك عن قطع الطريق، وأنت تعلم ما بيننا وبين والدك من الصحبة والجميل. غير أننا نتأدب بآداب القرآن العظيم فإن الله سبحانه يقول: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا. فازداد سالم جهلاً وغيظاً وأجاب: هذا الرسول فأين العذاب، وغير ذلك من العجب والحمق. ولم يكن بعد ذلك إلا أنه أفسد صاحب الشحر راشد بن شجنعة فمال إليه هرباً من الخراج الذي كان عليه للسلطان المظفر، وكان عليه مرسوم يحمله إلى الخزينة المعمورة فكان حتفه في سوء رأيه.

ونهض مع ذلك سالم بن إدريس وسولت له نفسه الغارة على عدن، وكان السلطان المظفر يومئذ بالجبل فاستكبر الناس ذلك من سالم بن إدريس إذ لم يقدر على هذا صاحب الهند ولا صاحب الصين ولا ملوك فارس، واغتاظ السلطان المظفر غيظاً شديداً وجهز الأمراء والقواد تتبعها العساكر العظيمة من الفرسان والرجالة براً وبحراً ومقدم الجيوش يومئذ الأمير شمس الدرين ازدمر سناد وزير السلطان. وقال له السلطان: أنت تقتل سالم بن إدريس إن شاء الله، فإني رأيت في ما يرى النائم أن حيو عظيمة خرجت إليَّ من كوة فقلت لك اقتلها يا أزمرد فقتلتها وعدت إلى مقامك، وكان طريق الأمير شمس الدين في البر صعباً ووعراً على شواهق الجبال مرة وعلى كثبان الرمل أخرى وقد يسيرون على شط البحر. والمراكب تجري موازية لهم، فإذا بعد الطريق عن البحر زاد تعبهم وضاقت أحوالهم حتى يدور إلى الساحل فيرتاحون، وكانت المراكب مشحونة بالقنا

والسيوف ولجم الخيل وسروجها وأنواع الأسلحة، وكانت الأسواق قائمة كأعظم ما يكون من الأسواق في المدن وفيها من أصناف الطباخين والخبازين والحلاويين وأرباب الصنائع ما لا يوجد مثله إلا في المدن. وقد اجتمعت الجيوش المذكورة كلها في بندر سيوت بظفار فأقبلت السنابيك في البحر كأنها العقبان ثم أقبلت الطريدة وهي المركب العظمى وقدامها السفر وكأنها الجبال الماخرة، والسيوف مسلولة، والأعلام خافقة، وفي هذه الطرية توجد خزانة السعيدة وفيها أربعمائة ألف دينار ملوكية، وأما القماش من البنادقي والسوسي والموصلي والزبيدي ما لا يحيط به الحصر. فلله دره ملك ملأت البحر والبر كتائبه، ووسع العرب والعجم مواهبه، فكان كما قال عمر بن كلثوم:

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

* * *

المصنوعات الوطنية

المصنوعات الوطنية في كل بلاد لها قيمتها الأدبية والاقتصادية إذ هي التي ترمز إلى ذكاء الأهالي ونشاطهم وقرائحم وهي التي تحفظ ثروة البلاد عن أن تتسرب إلى الخارج إذا أتيح لها النجاح والتفوق فإنها تكون مجلبة للثروة من الخارج، والتجارة إنما تكون في الغالب فرع من الصناعة وخادمة لها.

ولحضرموت صناعات صغيرة قد أشرف بعضها على الانقراض لاستغناء الأهالي أنفسهم عنه بما يجلب من الخارج مما هو خير منه أناقة ونفعاً، وبقي في أيدي الوطنيين شيء من المصنوعات لو جدت منشطاً لأربابها لربما تقدمت أشواطاً نحو التحسن والانتشار.

آنية الأُدم: تصنع من الجلد آنية لحفظ الزيوت والسمن وغيرها وتكون على أشكال متنوعة فمنها (الركوة) و(البطة) ولكل منهما أنبوبة ومنها (الصمار) و(العيار) وليس لهما أنبوبة ويحفظ فيهما العسل والاعطار و(الدبة) كصمار كبير يحفظون فيه البارود.

استخراج زيت السمسم: يستخرج زيت السمسم بواسطة المعصرة التي تدور بها الجمال وفي المكلا معصرة كبيرة لعصر السمسم بواحد وثلاثين قسماً في كل قسم جمل يدير دولاباً بسيطاً من الخشب لعصر بذر السمسم واستخراج الزيت منه والدهن المستخرج على هذا المنوال الشعبي البسيط يعتبر أحلى وأكثر صلاحية للطعام من ذلك الدهن الذي يستخرج بواسطة المكائن العصرية، وأما ثفله فيجعل أقراصاً تغذى منه الجمال.

آنية الخزف: وهو الطين المشوي بالنار، ويقال له: الفخار تصنع منه في

أكثر بلدان حضرموت الجرار والكيزان وأقداح الشراب وطاساته وفناجين القهوة وأنواع الأباريق وخلايا النحل، وصحاف منه لوضع علف الأغنام ومائها فيها، ويصنع منه ألعاب للأطفال كصور **خيل** وجمال وغير ذلك.

النسيج: تصنع المنادف البسيطة من الخشب والخيوط فيندف بها القطن ثم يدفع إلى أمهات المنازل فيغزلنه خيوطاً، وبأكثر مدائن حضرموت عدد من المناسيج تحاك فيها الأزر والأردية المختلفة الألوان وأفخرها نسيج الشحر.

الجص: وبحضرموت أتاتين كثيرة يقال لها المجافي لعمل الجص، وتوجد في المكلا وغيرها ولكن أفخر جص حضرمي هو ما تنتجه معامل تريم وسيؤن وهو على وجه الخصوص يستعمل بمثابة شيد تطلى به الحيطان الداخلية في المنازل ويصقل بحجر صواني ناعم حتى يصير مضاهياً للرخام.

دبغ الجلود: وتدبغ الجلود بأكثر مدائن حضرموت وقد ترسل من الداخلية لدبغها في المكلا من دون أن يصدر منها شيء إلى الخارج.

الخياصة: وللخياصة رواج قوي إذ منها تصدر الحصر والمراوح والمكاتل والقفف وغير ذلك، وأفخر الحصر الحضرمية هي التي تصدر من غيل باوزير.

وبحضرموت صوّاغون ماهرون لاسيما في غيل باوزير والشحر والمكلا. ومن دواعي الأسف أنه قد يموت الصائغ الماهر من أرباب هذه المهن فلا يخلفه في صنعته بتلك البلد التي ربما اشتهرت بحسن الصنعة فلا تلبث أن تصبح شهرتها لا شيء وصارت هذه الصناعات بموت أربابها أثراً بعد عين.

المواشي والدواب بالقطر الحضرمي

حضرموت لا تخلو كما لا يخلو غيرها من البلاد المعمورة عن الدواب والمواشي لاسيما البادية التي تتألف منها ثروة أهلها وتنتعش بها الحركة الاقتصادية فيها. فهم يهتمون بتربية الأغنام – من ضأن ومعز – لألبانها ولحومها وللاتجار بها، فيتجهون بهذا إلى الحواضر للبيع والمقايضة. والأغنام توجد في كل مناطق حضرموت، وتذهب السوائم منها كل يوم للبحث عن الكلأ تحت رعاية بعض النسوة غالباً.

ويقول المستر هيلد رئيس البعثة الزراعية في تقريره: "إن الأغنام بحضرموت لم تعط حقها من الالتفات نحو اختيار مدة الموسم الملائم للتوليد، وذلك قبيل فصل الصيف، حيث يلد الضأن غالباً بمعدل واحد بينما هو في أعلى حضرموت إذ يكثر الكلاء تلد النعجة توأمين"، ويرى هيلد أن الضان ببلاد ميفع يتغلب على صوفها السواد إذا كانت من ذوات الأذناب السمينة المتجعدة غير أنها أصغر حجماً من الضان المصري، والمعز بميفع أصغر أيضاً من المعز المصري، وكانت أغنامها مجلوبة في الأصل من بلاد اليمن، وأغنام حضرموت بالجملة تشبه في الحجم أغنام سوقطرة، وتظهر تربيتهن إلى درجة عظيمة في جميع البلاد، واللون الغالب عليها هو البياض ثم السواد وتندر السمرة والحمرة.

وللأبقار أهمية عظيمة في الحرث لاسيما في الحضر، وقليل ما ينتفع بلحومها وألبانها إذ لم يقتنين لذاتهما إلا نادراً، وقد يتفشى في الأبقار وبالأخص في أعلى حضر-موت مرض الطاعون المخصوص بالمواشي والمسمى (أبوهد) لأن يفعل بها الأفاعيل، وقد ذهب ضحية هذا المرض بمدينة الهجرين وضواحيها في

نحو يومين نحو ستين رأساً من البقر، ويقول المستر هيلد: "إن خلاصة مغلي الفجل يعطى للدابة المصابة بطاعون المواشي فيفيدها".

أما الجمال فهي أكثر المواشي عدداً وأهمهن فائدة، فضلاً عن الانتفاع بلحومها وألبانها وجلودها، وتستخدم للحمل والنقل ورفع الماء من الآبار وإثارة الأرض للزراعة عقب الغيث، ودوس الحبوب بالنورج عقب الحصاد وإدارة المعاصر لاستخراج سليط السمسم، وهي المراكب البرية التي تحمل الركاب والأمتعة إلى المسافات الشاسعة (ولكم فيها جمال حين تريحون....) الآية.

وقد قدرت الحكومة القعيطية عدد الجمال في سلطنتها بنحو ٢٠.٠٠٠ جملاً.

والنواضح التي ترفع الماء من الآبار (السواني) هي مزيج من الإبل والبقر والحمير ومن الرجال والنساء ترفل الجميع في المقود – وهو الخندق المحفور على طول البئر – زرافات ووحدانا، ومتى وصلت الدابة إلى أعلى المقود قدم لها ربطة صغيرة من العلف تتزودها ريثما تذهب في المقود وتعود.

وأما الخيل فقد أقفر منها حضرموت في العصر الحاضر بعد أن كانت

من أفخر منتوجات البلاد ومن مقتنيات الأغنياء والأعيان وذوي الشخصيات الكبيرة ولم يبق منها الآن بها ما يزيد على عدد أصابع اليد.

ويقام بحضرموت للدواب والمواشي أسواق ومواسم سنوية يتقصد بها البقاع المقدسة غالباً والبلدان التي حاطها رجال من ذوي النفوذ الروحي كشعب النبي هود عليه وعلى نبينا السلام وكالمشهد وقيدون والقطن وغيرها.

* * *

مهنة العسل بحضرموت

وعسل دوعن الشهير هو أهم نتاج اقتصادي تصدره حضرموت، أما عسل جردان له شهرة محلية عظيمة، وبالمواضع كتريم لا يمكن اعتبار نتاج العسل فيها لوجود الطير ذي الخد الأزرق والآكل للنحل وهو من الطيور المألوفة الجميلة بوادي حضرموت غير أنه لم يشاهد حيث يطلق عليه الرصاص إذا رؤي.

وخلايا النحل عبارة عن أبنية تحفر كسر اديب باطن جدران الديار المخصصة لها وتحتوي على أقسام مستديرة يبلغ قطر دائرتها نحو القدم وفي الجدار الخارجي ثقب صغير يتسرب منه النحل بواسطته إلى الداخل ومنه يغادر الخلية.

وتتمتع دوعن بجنيتين للعسل في السنة ويعتبر شهور جون وجولاي وأغسطس أحسن وقت للجني، لأن النحل يجمع العسل من أزهار شجر السدر (العلوب) في ذلك الوقت، وذلك في أواخر الصيف وأوائل الخريف (بحساب الشبامي).

ويتحصل على العسل مدة الجنية الثانية من نوفمبر إلى مارس يجمعه النحل من القرمل (الشتاء وطرفاً من الربيع. بحساب الشبامي) حيث يكون العسل غاية في الحرارة الطبع حتى تمنع الحوامل من أكله.

وإن هطلت الأمطار طول مايو وابريل يجلب النحل عسلاً أسود اللون يقال له الهلب ويعتبر عظيم القوة لأنه يتخذه لنفسه. وأسراب النحل له يعسوب يقال له: الأب قد يغادر الخلية (الجبح) إلى مسافة قصيرة فيتبعه بعض النحل، ويأتي مالك النحل فيأخذ حصيراً ويطويه على شكل الخلية ثم يسد أحد طرفيه

ويرش باطنه بطيب من الأطياب للنساء، وعندما يدنو الخشرم يمد المالك كفه فيتناول الملكة بلطف في أصابعه ويضعه في قفص صغير أعد لهذا الغرض ثم يوضع القفص في داخل الحصير المطوي ويأتي شخص مساعد فيدق على صفيح أو طبق من نحاس فلا يلبث النحل أن يغادر موضعه المحتشد فيه وينطلق ذاهباً إلى الملكة وهنا يؤخذ القفص وفيه الملكة إلى الخلية المعدة لها فيتبعها النحل بأسره ويتسرب إلى تلك الخلية.

يجمع النحل الجنية الواحدة في ١٢ إلى ٢٠ يوماً ومتى رأى المالك امتلاء الخلية أخذ يجهز منها القسم الأكثر وهلم جرا حتى ينتهي فيتحصل من الخلية القوية الواحدة من ثلاثين الى أربعين رطلاً في كل جنية، ويؤخذ العسل من الخلية بواسطة التدخين على النحل من ورائه حتى يخرج فإذا خرج أخذ العسل ويُترك قسم واحدة للنحل، وأحياناً في وقت الجدب يوضع عسل في الخلايا لتقتات منه النحل.

ويجهز العسل كأقراص في علب مستديرة ثم يعبئ للتصدير والبيع في صفائح القاز. والعسل الحضرمي على الخصوص شهير بجودته ولذة طعمه وقوة فائدته للجسم ويمتاز بحلاوة صادقة في الطعم وشذى عطري في الرائحة، أما تعليل هذا فليس من شأننا بل نتركه للباحثين من رجال العلم ولهم بعد ذلك أن يتفلسفوا بما شاءوا من ذكر الهواء والتراب والماء والهيدروجين والأكسوجين والفيتامين وغير ذلك من الألفاظ العلمية.

ولولا جودته ومزاياه التي يخلو عنها غيره من الأعسلة لما رأينا الخارج يستنزفه استنزافاً كاد يعدمه بهذه البلاد مع وجود العسل الكثير في البقاع التي

تطلبه بحضرموت على صغرها وصغر حاصلاتها ترسل إلى الخارج من العسل ما لا بأس به كثرة مما يتجاوز عشرات الألوف من الريالات، فالهند وستريت ستلمنت وجاوا وبرنيو وسمطرة وسليبس وجزائر الملوك تستهلك منه الكثير الطيب، وبعد أن كان سعره بحضرموت قبل ثلاثين سنة اثني عشر رطلاً بريال أصبح اليوم ورطله بريال واحد.

وقد يعترض معترض بأن أثمان الحاجيات كلها قد أصبحت باهظة جداً بالنسبة لذي قبل وهو اعتراض جيد إلا أن العسل من دونها كلها هو الشيء الوحيد الذي ساعد على ارتفاع ثمنه إرساله إلى الخارج حتى صار غلاؤه فاحشاً.

* * *

أهم الأشجار بحضرموت

(**السدر**): هي شجرة من الأشجار الضخمة الجذع، والمتفرعة الأغصان، ومن ذوات المنافع، كثيرة أزهارها يصنع منه نحل دوعن عسله، ومن ثمرها وهو "النبق" ما يتخذ غذاء وذلك إذا ما جفف وسحق فيدخر في كثير من البقاع في أزيار فيقتات به عند الحاجة لاسيما وقت الحرب. ومن جذوعه تتخذ الدعائم وأعمدة السقوف والنوافذ والأبواب وأقاليدها وروافدها وغير ذلك من المرافق الخشبية.

وقد انتعشت بهذا حركة النقل من البادية إلى الحاضرة فكثرت الأشغال هناك وجهز أيضاً من أغصان شجره وقود النار وكان منه الفحم الخشبي النفيس كما أن ورقه ما يتخذ علفاً جيداً للجمال ويتخذ منه غسول للبدن والشعر.

ويقال في: اللغة الدارجة بحضرموت لشجرة السدر "العِلِب" ولورقه "الجن" ولثمره "الدوم" وللمدقوق منه "الحتي".

(القل): وهو المسمى بالدارجة بشجر (الصار) وهو من الفصيلة ذات الخوص ويجلب البدو خوصه إلى الحواضر حيث يصنع منه الحبال والحصر وأغلفة ثمر النخل إلى غير ذلك وثمره يسمى الدوم يؤكل ويتخذ منه شراب مألوف لدى البدو بمثابة نبيذ.

(السمر): شجر شائك عام بحضرموت تقتات منه الإبل والأغنام. ووقوده من أحسن الوقود كما أن فحمه لا يضاهى في القوة والنفاسة ويستخلص من عروقه مادة يقال لها بلسانهم "الفتخ" يستعملها صيادو الأسماك لدهن

خيوطهم بها فيكسيها قوة وصلابة.

(القَرَظ): من الأغذية المألوفة للإبل وغيرها ويتخذ ورقها لدبغ الجلود ويقال إن من البدو من يصنع منه شراباً يستطيبونه بمثابة الشاي لدينا.

(والمشط): شجرة تعظم ويمتد فرعها، حتى يستظل بها العشرات من الناس وهي صالحة لعلف الدواب وللوقود.

(والراك): شجرة مألوفة فهي كثيرة الوجود في أكثر بقاع القطر تأكل الجمال ورقها وأغصانها التي لم تتصلب بعد. وأما الأغنام فلا تستطيع أن تسوغ شيئاً منها وإذا جعلت أخشابها لشيء من مرافق البيت كالسقوف والأبواب وغيرها فإن الأرضة لا تمسها ويتخذ من عروقها الأراك وأغصانه أسوكة لجلاء الأسنان وتنظيفها فتؤدي مهمتها على أحسن ما يرام.

ولا ريب أن هناك أشجاراً أخرى تفيد للكلأ وللوقود يطول تعدادها تفيد القطر اقتصادياً لو حفت العناية بها.

وتغمر القطر بالخير في النجود وبطون الأودية بحضر-موت أشجار هامة لو وجدت هناك رعاية وعناية ولكنها الفوضى الممقوتة التي سيطرت منذ القديم على الوهاد والنجود والبادية والحاضرة لن تدع لهذا القطر المنكوب أن يستغل أية نتاج سمحت به الطبيعة له.

وإذا لم يتكفل المستقبل برعاية البقية الباقية من هذه الأشجار والعناية بها وتنميتها، وأصر رجاله على هذا الإهمال الشائن فإن البلاد لا تلبث أن يعتورها

الإقفار من الكلاء والوقود والصنايع الخشبية وها هو العالم المتحضّر يحظر التلاعب بقطع الأشجار، عالم يتكفل القاطع بغرس عوض ما يقطع.

وإليك أهم ما بقي من الأشجار البدوية التي تصبر عن الماء إلى أمد بعيد:

(العريط): شجر ينبت في المسيلة قد يصل إلى ارتفاع كبير له ورق يجفف لعلف الدواب وخشبه يستعمل في أغراض شتى يتهافت عليه النجارون.

* * *

صفحة من الأدب

أو ديوان السيد ابن شهاب (١)

الشعر نفحة قدسية، وشعور سيال، تنفطر به الفطر، وتنغرز عليه الغرايز، وتتكون منه الجوانح، بل هو مناغاة الحقايق للأرواح، ومناجاة الوجود للنفوس، والأثير الذي تترنح عليه تموجاته معاطف العواطف، والجاذبية العامة التي تتماسك بها جواهر الألباب. وتتآلف بواسطتها نوافر الافئدة.

الشعر ناموس لا يناله الحد، ولا يعتوره التعريف، ولا تبلغ الظنون كنه سره، ولا حقيقة أمره، إلا أن تأثيره يستهوي العقول، ويستفز الأرواح، ويقع في النفس وقوعاً لا يجحده الجاحد، ولا ينكره الجامد، ولا ينبو عن أفهام العامة ولا مدارك الرعاع.

للشعر وجد في الخليقة قبل اتصال الأرواح بالأشباح، والمعاني بالألفاظ، وقبل أن تعرض الأعاريض وتقفى القوافي ويؤسس الروي.

لو كان الشعر هو الكلام المقفى الموزون فقط، لما عمل في الفؤاد عمل البواتر في الأجساد، ولما أفاض الشؤون، وأثار الشجون، ونقر على سويداوات القلوب.

إذا أنـــت لم تعلـــم ســـوى الـــوزن وحـــده
فإنـــــك وزان ومـــــا أنـــــت شـــــاعر

أولئك قريش البطاح البطاح ومن جاورهم من جاهلية العرب أوائل الإسلام، أذهلهم ما قرع أسماعهم من بلاغة القرآن وشدة تأثيره، وحسن إيجازه وأطنابه، ورشاقة عبائره وفواصله. مع تخليه عن بحور الشعر وقوافيه، ورجزه وخببه، فلم يشاؤا إلا أن يقولوا عنه أنه شعر تجلب به القلوب، أو سحر تضرب به العقول.

الشعر أسمى من أن يقف عند لفظ، أو يحصر في لغة، أو تنفرد به أمة، أو يستأثر به زمان، أو يستخلص به لسان، ولكنه الموهبة العالية التي يأخذ بنصيب منها كل من أوتي قوة الخيال وحسن التصور من بني الإنسان الأول.

لا تخلو أية أمة من الأمم الناطقة على سطح هذا الكوكب من رجال تسامت في الشعر كعوبهم، ورسخت فيه أقدامهم، واحتلوا بين أقوامهم من التعظيم رتباً قعساء تؤبد لهم الفخر، وتؤطد لهم حسن الذكر، وتجعل لهم قلوب شعوبهم فجاجاً تتسرب إليها ينابيع الحكمة، وتتطارد فيها جداول الموعظة.

غير أن للعرب –وهي الأمة الشعرية المحضة– من ذلك القدح المعلى، والنصيب الأعلى. إذ لا يحصى شعرها، ولا تحصر شعراؤها، ولا تتقيد أغراضها، ولها بعد ذلك اللغة الوافية، والبحور المتسعة، والموازين المنظمة، والقوافي المتناسقة.

لسنا الآن في مقام ننحو فيه البحث في تاريخ الشعر ولا تعداد مزاياه، ولا الألماع إلى أدواره، وإنما قدمنا هذه الفذلكة اليسيرة توطيئة لما سنقتطفه إتحافاً لقرأينا الكرام من أنفاس شاعر اليمن في القرن الرابع عشر بلا منازع، السيد أبي بكر بن عبدالرحمن بن شهاب الدين العلوي.

طبع اليوم ديوان السيد بن شهاب ولا ريب أنه سيكون صيباً نافعاً تهتز وتربو به النفوس الأدبية، والأذواق السليمة، وروضة لفاء تسرح فيها أذهان الأدباء، فتجد بها ما يروي أوامها، ويزيح قتامها، ويذيقها حلاوة الإنشاء ولذة الترنم.

للسيد ابن شهاب شاعرية لا ينضب ماؤها، ولا يكل حدها، ولا ترتبط برباط يمل الراوي، ويضجر السامع، ولكنها شاعرية تعبر عن مختلف الأذواق،

وتنفذ إلى أعماق الأفئدة، وتطير بالمنشد إلى أملاك من الخيال، يسبح في فضائها، ويتمتع ببهائها، ثم يعود من سياحته حامداً شاكراً.

يمتاز شعر السيد بن شهاب من بين شعر كثير من المعاصرين بمتانة الأسلوب وجزالة التركيب، وإصابة مقاتل الكلام، والتجافي عن حشوه وفضوله، والضرب في كل واد من أوديته، اشبه شيء بشعر المجيدين من شعراء الدولة العباسية إبان الحضارة الإسلامية في قمة مجدها، ومستوى سوقها، فهو إذاً مثل كلام يقوم اللسان، وينمي الملكة الشعرية، ويبسط أديم البلاغة أمام القارئ ليخطر عليه ذهاباً وإياباً بكل طرب وارتياح.

إلا أن ديوان السيد رحمه الله قد خلا بتاتاً من سمج المعاني، وفاحش الكلام، والنقط الشائنة التي تخل بالأدب، وتجرئ على المعاصي، وتطعن في كبد الأخلاق الفاضلة.

لم يحمل السيد ابن شهاب رأساً في شعره بالصفة المتكلفة من أنواع البديع كما هو شأن أكثر المولدين قبل هذا العصر، إذ في اهتمام الشاعر بالجناس والطباق وغيرهما من تلكم الأنواع الصناعية لشغل شاغل له عن إتقان المعنى وإبراز الديباجة سلسة منسجمة. على أنه قد ورد من ذلك شيء في شعر السيد يظهر أنه قاله صفواً من دون تقصد لعدم ظهور أثر الكلفة عليه، ومنه ما قاله تفكهاً أو اختياراً للقريحة، وظهاراً لليراعة لا غير.

ولقد قرع الناظم كثيراً من أبواب الأغراض الشعرية كالنسيب والوصف والمديح والعتاب والوعظ والفخر والرثاء والهجاء وغيرها من الأغراض التي أجاد فيها وأيما إجادة، على إن في الديوان والحق يقال من غير الجيد ما لا يخلو عنه كل ديوان شعر.

انت تعلم حفظك الله أن الشعر الغزلي يكون عادة رقيق الحواشي، لين الجوانب، غنج الألفاظ، ولكنك تمتلي عجباً وإعجاباً حينما ترى متونة التركيب، وجزالة الكلم، وضخامة العباير، لا تكاد تفارق شعر ابن شهاب لا في غزل ولا في غيره، فإنك إن تسمع قوله من أثناء قصيدة.

من كل غانية تخال جبينها ... بدراً تألق نوره أو كوكبا
عصماء في صدف الحجاب وغادة ... غراء ليس لها التحجب مذهبا

يخيل لك من جزالتها أنك لا تسمع إلا بيتي حماس وفخر. وهذا لعمري هو الاقتدار الفائق، والعجب العجاب والبيتان من قصيدة كلها غرر مطلعها:

ضحكت أزاهير الحدائق والربا ... وسرت برياها النعامى والصبا

وبعده:

والطير في عذباتها تهدي إلى ... أسماعنا السجع الرخيم المطربا
ودنت أوابد كل واد فالمهى ... والعصم ترتع في المحاجر والظبا
والحور ترقص في الخدور مسرة ... حتى حسبنا كل خدر ملعبا

ذلك ولعمر الأدب هو السحر الحلال، والسهل البعيد المنال، فسبحان الذي يؤتي فضله من يشاء. ومن تغزلاته الجزلة الأسلوب قوله:

خود مخدرة بأسهم لحظها ... تسبي وتأسر كل ليث مخدر
حوراء تخترم النفوس ولم تبل ... علماً بأن قتيلها لم يثأر
هيفاء قد كاد دائر بندها ... في الخصر يصلح خاتماً في الخنصر
وتنؤ ذاك الخصر حال نهوضها ... أعباء ما اكتنفت عقود المئيزر

يقول إن خصرها النخيل يلاقي عند إرادة قيامها من ثقل الكفل ما يبهظه وينؤ به.

صفحة من الأدب

أو ديوان السيد ابن شهاب (٢)

ربما أكثر السيد في ديوانه من المديح، ولا غرو إذ هو هدية الشاعر، وطرفة الناظم، والتحية التي لا يستطيع تقديم سواها لمن جل في عينه، وحل محلاً مكيناً في فؤاده. ولم يكن التكسب بالمديح هي الغاية التي يتواخاها ابن شهاب، ولا اللهى التي فتحت لهاه كما يقع ذلك لكثير من الشعراء. بل ربما أشار السيد رحمه الله بعد أن يقضي لبانته من المديح في القصيدة نفسها بما يشعر الممدوح بأنه غير طامح إلى جيبه، ولا طامع في سببه، فمن ذلك قوله من قصيدة يمدح بها وزير الدكن الأكبر إقبال الدولة بهادر:

بنت فكر تتثنى عجبا ... ولها تعنو فحول الشعرا
يرقص الطائي والكندي لو ... سمعاها طرباً والشنفرى
شأن مهديها عفاف النفس عن ... بسط كف الذل فيما حررا
بل قصارى قصده عقد الولا ... وقبول العذر عما قصرا

وقوله من مديحة أخرى في عماد الدولة بالدكن:

إليك أتت عذراء نظم من أمر ... له بمقال الشعر جزئي المام
منزهة عن أن يكون زفافها ... إليك لرجوى نيل جدوى وإنعام
ولكنها وافتك مخبرة بما ... لدى ربها من صدق حب وإعظام

وقد كانت قصائده المحبوكات الأطراف والمعارضات للارتقيات كلها مدائح في خديوي مصر توفيق باشا، وهي من أمتن الشعر وأبلغه ومع هذا فلم يقدمها له – الأمر الذي يفهم منه عدم حرصه على اقتناء الجوائز واحراز المال من وراء شعره.

وله قصائد طنانة، بلغت من البلاغة أسماها، ومن الجزالة أقصاها، يمتدح بها الجناب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فمن دونه من الصحابة وأهل البيت ورجالاً من الفضلاء والصالحين الذين لا يؤمل الآمل من جراء مدحهم إلا الاغتراف من فيض بركاتهم، والاستمداد من أسرار دعواتهم.

ولم يشاء شاعرنا أن يصدف عن الورود إلى شرعة السادة الصوفية، والجري على طريقة القوم واصطلاحاتهم، فقد تكلم بلسانهم، ونطق ببيانهم، وأعرب عن أذواقهم، وأبان عن انتشائه بعبير راحهم، وأخذه بنصيب من لطيف أفراحهم. فمن ذلك قوله معجزاً ومصدراً أبيات الشيخ الرفاعي التي مطلعها:

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ... ومن دراه غدا بالروح يفديه

فقال في أثنائها بحيث لا يفرق السامع بين ما قاله وبين الأصل مشيراً إلى الصب:

في ريه ظمأ والصحو يسكره ... والمحو يثبته واللوم يغريه

يبدو له السر من أفاق وجهته ... فأينما أم فالمحبوب هاديه

ومنها:

وكم نوافل جود للوجود سرت ... لله في الكون سر لا يرى فيه

لا شيء في الكون إلا وهو ذ أثر ... فيما يشاهد من تأثير مبديه

ومنها في الموصل إلى المحبوب:

اعدم وجودك لا تشهد له أثرا ... يميته الميتة الأولى ويحييه

واجعل مفاتيح بيت سر في يده ... ودعه يهدمه طوراً ويبنيه

وكل هذه الأبيات نفائس تستفز النفوس نحو قرع الباب والطموح إلى مراتب الأحباب.

يبتهج الناظر في ديوان السيد ابن شهاب حينما تفاجئ سمعه تلك المطالع الرائقة، والاستهلالات الشائقة، التي تستهوي النفوس حسناً، وتلذ للأذواق حلاوة، وتناجي القارئ اللبيب خلسة بما أحتوشته ضلوع قصائدها، ومن ترمي إليه غرر أبياتها. فهي في المديحة التي تفال في اللغوي غيرها في المديحة التي تحبر في الصوفي مثلاً. مع ما يجمعها كلها من الرقة والانسجام. وإليك أيها القارئ الكريم أمثلة من ذلك تذيقك حلاوة الشهد الأدبي، منها قوله في مطلع قصيدة ضافية يمدح به النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

لذي سلم والبان لولاك لم أهوى ولا ازددت من سلع وجيرانه شجوا

فقد أحسن الأدب، وأجاد اللفظ، وأبدع في المعنى، وأشار بذكر ذي سلم والبان وسلع وجيرانه إلى بطل القصيدة صلى الله عليه وآله وسلم. ومن مطالعه الفائقة قوله مستهلاً قصيدة يمدح بها صاحب الجوايب أحمد فارس الشدياق اللغوي. وقد أثبتت في الجزء الرابع من منتخبات الجوايب قال:

شجون الهوى ما مازج الامشاجا فهل اقتحمت عبابه الدجداجا

لو كنت في دعوى المحبة صادقاً لو جدت في سوق المنون رواجا

ومن مطالعه الغراء قوله أول قصيدة تهنئة بعيد جلوس ملك حيدر اباد الدكن فقال:

بشراك هذا منار الحي ترمقه وهذه دور من تهوى وتعشقه

ومن المطالع التي تهز القلوب، وتسبي السامع قوله:

بهزك غصن القد ماذا تريدينا وماذا بلغز العين في السر تعنينا

ولنكتف بما ذكرناه من المطالع إذ لسنا الآن في مقام استقصاء وإنما نحن في مقام تمثيل فحسب.

وخاطر السيد ابن شهاب لم يقصر في شعره في استيلاد المعاني البديعية التي لم يسبق إليها، ولم يطرقها غيره. يجد ذلك قارئ ديوانه من آونة إلى أخرى بين خلال القصائد وغضون الأبيات. فمن ذلك قوله في تخضيب الشيب وهو معنى غريب:

يقولون خضبت المشيب تصابياً ... وفيك شهود أن دعوى الصبا أفك
فقلت سترت العيب لا الشيب إنه ... من العار شيب ليس يصحبه نسك

ومن ذلك قوله من قصيدة خمرية:

رق مرآها ومرأى جامها ... فهي والجام ضمير مستتر
رقصت في جبهة الطاس لدى ... صبها حور الحباب المعتور
رونق الجسم بها منتعش ... ولها في اللب سحر مستمر

وللسيد في الحماسة والعلميات وغير ذلك من الأغراض مواقف حسنة يصعب علينا نقل بعضها هنا، وعليه فإننا نكتفي بما اقتطفناه ثم نحيل الأدباء على الديوان نفسه لينهلوا ويعلوا من رحيقه المختوم رأساً والسلام.

* * *

نظرة في ديوان:

نسمات الربيع. ما له، وعليه (٢)

الشعر والشاعرية:

وقد ذهب الناس في تعريف الشعر والشاعرية مذاهب متباينة، ونهجوا مناهج شتى، يرمي بعضها إلى المادة وبعضها إلى الروح، فزجوا بأذهانهم في مضايق وسراديب لم تكن بالتي توصل بعضهم إلى استجلاء حقيقة معنى الشعر والشاعرية اللتين تستهويان الألباب، وتخلبان الطباع، وتلمس آثارهما لمساً واضحاً من دون أن ينال لوصفهما كنه أو يوفق لتحديدهما على قعر.

وهيهات أن يكون الوزن أو القافية أو التوشية بالمستحسنات البديعية أو الانسجام في الألفاظ أو الإجادة في الوصف أو الإغراق في التوليد أو الإصابة في الحقيقة أو الإمعان في الخيال أو الغرابة في المعاني، هيهات أن يكون أحد هذه أو مجموعها هو حد الشعر أو رسمه، ولكنه بشهادة الذوق شيء وراء ذلك كله. والشعر كالجمال والموسيقى يعملان إعمالهما في النفس والقلب والروح من دون أن يستطيع رجال الفن أو غيرهم أن يخلقوا لكل منها تعريفاً ضابطاً أو حدّاً جامعاً مانعاً – كما يقول المنطقيون – يضبط حقيقته ويرسم قواعده، وأقصى ما في ألباب أن ينتحي المعرفون له منتحى يؤدي بهم إلى وصف تأثيره على النفوس فحسب من باب "النار عنصر محرق" و "الكهرباء جوهر يتولد من...

ومن يقل: إن الجمال الخلاب، والملاحة الفاتنة، هو صفاء البشرة، وقنو الأنف، وتورد الخدين، ودعج العينين، وزجج الحاجبين، وحمرة الشفتين، وصغر الفم، وانتظام الأسنان وبياضها، وتجعد الشعور وسوادها، وما إلى ذلك من

أوصاف الجسم، فقط فقد أبعد في الضلال، وغلط في الخيال، وأفن في الرأي، ووقف عند دمية من اللحم والعظم مكتنفة بسياج من الجلد، غافلاً عما هو وراء هذه المادة من الجمال الساحر الخلاب، والحسن الفاتن الجذاب، ولم يعلم أنه لم يكن في الحقيقة مأخوذاً بكيف الجسم وبكمه، وإنما هو مأخوذ بشيء غامض خفي، وواضح جلي، لا يصل إلى نعته إلا من كشف له عن كنه التجاذب العام.

ومن أمم الأرض من لم يرق لديهم دعج العيون، ولا قنو الأنوف؛ فإن في شعوب الشرق الأقصى- كالصين واليابان من لا يأنس إلا بالعيون الضيقة المنحرفة، والأنوف الممسوخة المبسطة، كما أن من الزنوج من يرى الجمال في المشافر الغليظة، والمناخر المتفتحة الضخمة.

ومن يقتصر على حد الشعر أو رسمه بما ذكرناه آنفاً من الأوصاف المادية، فقد حد شيئاً ليس هو الشعر الذي يهبط بالنفوس إلى أسفل درك، ويسمو بالأرواح إلى أعلى درج، وليس هو الشعر الذي يفتل منه إبليس اللعين حبالاً متينة وشباكاً واسعة يقتنص بها ضحاياه البشرية فيطوح بها إلى حيث يشأ لها حظها. وليس هو الشعر الذي يحدو بالوجدانات الطاهرة إلى الوخد نحو الكمال الإنساني والسعادة الأبدية.

ولا أرى في وقوفك – أيها القارئ الكريم – ساعة من بأس تسمع بعض ما قرب إلى الذاكرة من أبيات مفردة وتوائم تتبين بها الكلام المقفى الموزون ما يمس العاطفة ويشعل فيها ما يثيرها وما يبقي عنها بعيداً لا توصله قوته إلى الدنو منها مهما حاول ربه ذلك، حتى أنك تذعن بأن ما يسميه بعضهم شعراً ليس هو بشعر وإنما هو نظم فقط.

مثاله: أن بعضهم سمع ما يشتكاه الشعراء من طول الليل، وما يكابدونه فيه من الأرق والقلق والوجد والشوق، فأراد أن يبتكر شيئاً لم يسبق إليه في هذا الموضوع؛ فقال:

لا أظلـــــــم الليـــــــل ولا أدعـــــــي
أن نجـــــوم الليـــــل ليســـــت تســـــير
لـــــيلي كـــــما شـــــاءت طويـــــل إذا
صـــــدت؛ فـــــإن زارت فلـــــيلي قصـــــير

فأنت ترى أن هذين البيتين قد حوتا ما حوتاه من صحة الوزن والقافية ومن الانسجام وجزالة اللفظ واستنباط المعنى وإصابة الحقيقة والتزام الطباق وهو من أنواع البديع، ولكنهما رغماً عن كل هذا قد انتبذا معزلاً بعيداً عن الاتصال بالعاطفة، فلم يثيرا شجناً، ولم يهزا أريحية، ولم يحركا ساكناً، وإنما أصاب صاحبهما في تبرئة نفسه عن ظلم الليل وعن اتهامه بالطول أو القصر في أيام الاعتدال الحمل والميزان أو الامتداد بليالي الشتاء والانكماش في ليالي الصيف وهذه حقيقة فلكية لا ينبغي له إلا أن يقرها ولا يجحدها، غير أنه كفر بها في البيت الثاني إذ قال:

لـــيلي كـــما شـــاءت طويـــل إذا صـدت؛ فـإن زارت فلـيلي قصـير

فجاء الكلام غثاً بارداً لا يساوي شيئاً.

واسمع الآن ماذا يقول امرئ القيس في معلقته وانظر الفرق بين النظم المجرد والنظم الشعري.

وليل كموج البحر أرخى سدوله عـــليّ بـــأنواع الهمـــوم ليبـــتلي

فقلــتُ لــه لمّــا تمطــى بصــلبه وأردف أعجــازاً ونــاء بكلكــلِ
ألا أيهـا الليـل الطويـل ألا انجـل بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثلِ
فيـا لـك مـن ليـلٍ كـأن نجومـه بـامراس كتـان إلى صـم جنـدلِ

فها هو امرئ القيس لم يسلك غير المنهج المعهود من التشكي بطول الليل في الجملة غير أنه عرف كيف يفارق غيره ليوقع على توامير الجوانح بنبرات تطير بالسامع إلى عباب من الليل تصطخب أمواجه وتتكاثف ظلماؤه والمسكين يرزح تحت عبئ تمطيه باجوازه ومضاعفة غلظه حينما يردف بأعجازه وينؤ بكلكله. فيستغيث الشاعر فلا يغاث، ويدعو فلا يجاب، ولو أجيب وأغيث بانجلاء الظلماء وانبثاق تباشير الصباح لما خلص من ضغط إلا إلى مثله فالحال هو الحال والصد هو الصد سواء أكان في سواد الليل أو بياض الغد.

وماذا ترى في مطلع القصيدة المشهورة:

يــا ليــل الصــب متــى غــده أقيــام الســاعة موعــده؟

أو ما تحس بشيء لا تدري ما هو يتغلغل إلى قرارة النفس وتتفجر ينابيعه من يا النداء ومن إضافة الليل إلى الصب ومن السؤال عن الغد ثم من همزة الاستفهام التي لا تقال إلا للتصديق. شعر خالص يأخذ بمجامع القلوب.

شاعرية الحامد:

إنك إذا أنشدت مثلاً بيتي ابن نباته اللذين يناجي فيهما طفله ويرثيه في قوله:

يــا راحــلا عنــي وفي وجهــه مخايــل للفضــل مرجــوة
لم تكتمــل حــولاً وأورثتنــي ضــعفاً؛ فــلا حــول ولا قــوة

رأيت نكتة بديعة، وأحسست بحلاوة وطلاوة، أنتجهما إتقان الصنعة وزخرفة الفن، ولأنك لا تجد فيهما من الشاعرية القارصة ما تجده في بيتي شاعرنا الحامد حينما يناجي طفله ويرثيه فيقول:

عهدتك من قرب صغيراً وضانياً فهل رحموا فيك الضنا ساعة الدفنِ
وهل نضحت أجفان باكٍ لك الثرى لدى الدفن حتى بالنيابة عن جفني

ففيهما والله ما يصور الأسى، ويلعج الحشاء، ويستوكف الدموع، ويقف بالسامع على منابع الألم، ومكامن الشجن، ويريك أن ابن نباتة رحمه الله لم يكن إلا هازلاً لا ثاكلاً، وخلياً لا شجياً، لأن لديه فضيلة من السلوى يبحث بها عن اقتناص الزخارف البديعة، بل ولأن عنده لا تزال فكرة رائقة تمكنه من التحايل على مثل هذه التورية الطريفة.

أما السيد الحامد ففي شغل شاغل عن هذه الألاعيب بمصابه الموجع ورثائه الصادق وتحسره الذي يندفع بسامعيه إلى مشاركته في احتساء هذه العواطف. فهذا هو الشعر المؤبد وذاك هو النظم المجرد.

فوز الحامد:

وقد ذهب الشعراء بعيداً في المبالغة بتقديس الجمال وأسرفوا ما شاءت لهم أذواقهم في الافتتان بالحسن حتى رفعوا ربَّاته إلى مصاف الآلهة ولم يتأثموا عن أن يشركوهن في استحقاق العبودية، وقد تفنن كثير منهم بما يمليه إيمانه في الاحتراس من الوقوع في هوة كفرية يصمه بها من يأتي بعده من المؤمنين فالنابغة الذبياني يقول:

لو أنها عرضت لأمشط راهب عبد الإله ضرورة المتعبدِ

لرنـا لبهجتهـا وحسـن حـديثها ولخالـه راشـداً وإن لم يرشـدِ

فها هو لجأ إلى قوله "لخاله إلخ" فراراً عن الوصمة التي أجاد في التحصن منها سواء كان صادقاً أم مرائياً.

أما (كثير عزة) الذي ولد في مهد الإسلام وترعرع في ظلاله فإنه لم يشاء إلا أن يترك الأمر مبهماً والشبهة قائمة فلا يهمه من ذلك شيء ما دام قد أدى رسالة خياله، وتلى وحي تدلهه وغرامه فقال:

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خرّوا لعزة ركّعاً وسجودا

وتسابق الشعراء قديماً وحديثاً في هذا المضمار فمنهم الفائز ومنهم العاجز، وأقبل شاعرنا في الميدان يوسع كيته انطلاقاً فإذا به قائم على رابية الشأو حاملاً قصبة من قصبات السبق، وإذا به شاعر صادق، ومؤمن واثق، تناجيه العينان بما يترجمه الجنان من أن القداسة لله، والإبداع لله، والجمال الأسنى لله. فإن سجدت الجباه لجمال سباها فإنما تسجد لمصوره، وإن عنت الوجوه لحسن سحرها فإنما تعنو لمبدعه، هذا وأكثر من هذا تتبجس به أبيات السيد الحامد إذ يقول:

أوحت اليّ بطرفها شعراً فترجمه الضمير
يا عابد! أسجدني وقدِّ س فيَّ إبداع القدير
لم تدره أن لست تد ري الحسن في الكون الكبير

* * *

نظرة في ديوان:

نسمات الربيع .ما له، وعليه (٣)

ولع الحامد بالرياض

لبعض الشعراء ولع خاص بالإسهاب في وصف الرياض وما تكتنفه من أغصان متهدلة، وأزهار متضوعة وأطيار صادحة، وانهار مطردة، فكأن أخيلة هذا البعض بلابل غريدة لا تأنس بغير الرياض مجالاً لتغريدها ووكنات لسباتها، ومن هؤلاء الروضيين رفيقنا هذا اليوم، فإن له في نسمات الربيع جولات روضية تكاد تتغلب على الحدود التي ينبغي لها عادة أن تقف عندها وتكاد تتلامس مع الحظائر التي ينصبها الذوق السليم لفصل الطبيعي عن الصناعي.

والسيد الحامد شاعر مطبوع ليس للتكلف عنده موضع، وإن كنا الآن نلمح من تزلفه أحياناً إلى الرياض بدون مسوغ ما لمحه الآن. وإن الذي ينعم النظر في نسمات الربيع ليحكم بديهة بأن الإجادة تكسوه في غالب مناحيه المتجهة للرياض بمسوغ وبدون مسوغ، حتى كأن لشاعرنا روضة أنفاً تحتل فراغاً في خياله الواسع.

ونحن نرى أننا غير ملومين إذا قلنا بغرام الحامد بالروضيات، كغرام الشريف الرضي بالطيفيات، وكغرام كل شاعر بوجهة هو موليها، لأن شاعرنا يندفع في أكثر من ثلث قصائده إلى شطر الرياض لجدير بأن يحكم بولوعه بها. وإن لم يك في هذا شيء من العيب غير أن نظرنا – نحن الناقدين الذين ننتحل التمشي مع الفن– قد لا يتمشى مع نظر الشاعر في المناسبات التي تزحف به نحو الرياض

وهو في عرفنا بمعزل بعيد عنها.

والآن بين يدي قصيدة (صباح الشاعر) كلها غرر، وكلها مستهو، وكلها سحر حلال كما يقولون. وإني على رغبتي في أن اختار منها أحاسنها، فقد أصبحت رهين الحيرة في الاختيار إذ لم يقع نظري على بيت واحد خال عن الإعجاب، بريء من الإجادة التي إن لم تكن في اللفظ والمعنى معاً ففي أحدهما، حتى يجدر بي أن أفرزه عن الاحاسن، فلا أختاره هنا! وإذن فهل أكتبها كلها لقرائي؟ تكليف لا أرضاه ولكني ألفت أنظارهم فقط إلى قول الشاعر:

استفق واغنم الصبا قبل أن يفـ ـجأك الشيب مؤذناً برواحك
قم تملّ الحياة واملأ غناء جو روض ملأته من نواحك

وكنت أحسب هنا أن الروض لم يكن إلا استعارة لا حقيقة. والاستعارة عند أرباب فنها تشبيه يحذف عنه المشبه والأداة، وإنما حملني على العدول عن الحقيقة إلى الاستعارة، هي قرينة التملي بالحياة وذكر الغناء والنواح المستعارين أيضاً واللذين لا يكونان إلا في الوسط المملوء بالمناقضات، فكنت أحسب أن الشاعر إنما يعني به الكون أو المحيط أو شيئاً آخر يتناسب مع القيام بتملي الحياة ويتحمل –بسعة صدر– أصداء الغناء والنواح اللذين ليسا هما على حقيقتهما.

غير أني أشفقت على نفسي من أن أنهج – بدون قصد – نهج ابن جني الذي يشرح شعر المتنبي بما يريده المتنبي وبما لا يريده، وبين مسكني ومسكن شاعري مسافة لا تبرر البقاء على حسباني قبل أن أسأله، فبعثت إليه خادمي برقعة استفهام وجاءني من الجواب الآتي بلفظه: بعد السلام المراد بالروض في قولي (جو روض) هو الروض الذي تعودت التردد إليه، والإئتناس فيه بعرائس الخيال،

وهو المعنى بقولي ما بها الروض، فهو روض حقيقي. (صالح الحامد).

قلت: والبيت مطرب بإجماع الأذواق، ولكني أراه مصدقاً لقولي من أن المقتضى لاندفاع الشاعر إلى ذكر الروض هنا هو ليس بالأمر الذي لا محيص عنه فناً وإنما هو ذلك الروض المالئ فراغاً في دماغ الشاعر دائماً وأبدا.

ثم ماذا؟ ثم يثب صاحبنا فجأة من مخاطبة الروض، ويأتي بالعجز البديع، ويصب على الأذان سهلاً ممتنعاً، غير أن الاقتضاب العنيف ربما كان شديد الوطأة على من لم يدر أن نبع شاعرية الحامد إنما يتفجر بين أدواح الرياض وأزهارها، وعلى من لم يعلم أنه أنموذج من تلك الأغنية التي تطلب من الشاعر أن يملأ بها الروض كما ملأه من النواح فيرفع عقيرته قائلاً:

أيها الروض! إنني جئت استو ... حي معاني الجلال من أدواحك
أتملى الجمال من حسن الغض ... وسحر الالحان من صداحك
ما أرق النسيم فيك! وما أبهى ... نضار الاشواق فوق وشاحك
يعبق الحب من ثراك وتبدو ... صور الذكريات من أشباحك
إنك السمح بالجمال وهذي ... زمر الغيد مظهر لسماحك
تلهم الشعر من رباك وتنشو ... حمة السحر من عيون ملاحك

* * *

نظرة في ديوان:

نسمات الربيع له، وعليه (٤)

ثم ماذا عسى أن يكون بعد قوله:

خلنـي أنتشي ـ زهـورك يـا رو ض وأحيا سكراً بسورة راحك
فالـذي أبـدع الطبيعـة صـنعاً صـب خمـر الجـمال في أقـداحك

لم يبق من ذلك إلا أن يحول خيال الشاعر نفسيته الى شعاع يتسرب بين ذرات أغصان الروض وأزهاره ونسائمه وأطياره وقيعانه وأنهاره، فتمتزج به امتزاج السائل الحيوي بالوسيط –على ما يقول رجال الاسبر تيزم– وهنالك تهتز تلك النفس صارخة:

أنـا مـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا كلـما أبصرتـه أبصرتنا

الروض زناد الشعر:

والحامد يصرح معترفاً بأن الرياض هي أعظم البواعث المهيجة لشاعريته الفياضة، وأنها أسمى برج تتألق فيه كواكب العواطف والوجدانات العميقة، وإن بلابلها تبلبل بتغاريدها باله فينطلق لسانه بسوانح الخيال فالحامد يقول عندما يضجره أمر مقراً بصنيعة الروض وبلابله عليه وعلى شعره:

دعني مع الروض تحويني خمائله دعني مع الأيك تشدو لي بلابله
فإن شدا البلبل الصداح من فنن شدوت بالشعر في حيني أساجله

ويقول في الصباح الوليد:

والفجـر طغـى مـن منبعـه بحـراً مـن مشرقه طفحـا

قـــد هـــش الـــروض لمقدمـــه وافـــتر الزهـــر بـــه فرحـــا
قيثـــارة جدولـــه عزفـــت فلـــذاك الطـــير لهـــا صـــدحا
يـــوحي للشـــاعر أخيلـــة تنشـــيه وتملـــؤه فرحـــا

هـذا هـو الأنسـب لترتيـب الأبيـات، ولعـل الشـاعر لا يقصـد إلا ترتيبهـا هكذا جرياً على سنته مع الرياض وتحاشياً من نسبة وحي الشاعرية إلى الصباح الذي لا يعهد منه إلا أنه باب الحركة والضوضاء وموضع انصراف الخيال عن هدوئه في الليل وسبحه فيه سبحاً طويلا إلى الارتباك بفوضى الحواس واضطرابها بمشاغل النهار، فانبثاق الفجر وحده غير كاف في استثارة الشاعرية من مرقدها ما لم يعضده الروض وافترار الزهر به وعزف موسيقى جداوله فيه. وقد قيل في بيتي امرئ القيس:

كـــأني لم أركـــب جـــواداً للـــذة ولم أتـبطن كاعبـاً ذات خلخـال
ولم أسـبأ الـزق الـروي ولم أقـل لخـيلي كـرة مـرة بعـداً جفـال

أنه لو قال:

كـأني لم أركـب جـواداً ولم أقـل لخـيلي كـرة مـرة بعـداً جفـال
ولم أســبأ الــزق الــروي للــذة ولم أتـبطن كاعبـاً ذات خلخـال

لكان أنسب بشهادة الذوق والفن.

وقال سيف الدولة للمتنبي وهو يمدحه:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهـو نـائم!
تمـر بـك الأبطـال كلمـي هزيمـة ووجهـك وضـاح وثغـرك باسـم

* * *

تمـر بـك الأبطـال كلمـي هزيمـة كأنك في جفن الردى وهـو نـائم!

لكان أنسب قلت ولكن ملاحظة سيف الدولة تفتقر إلى ملاحظة، ولنعد إلى الموضوع قال الحامد عن صنع الروض بشاعريته:

ووافى النسـم تـوحي ذكريـات عـذاباً مـن صـبا العـاني صـباه
فهـز الـروض يوقظـه إلى أن تفتح الزهـر وتفتح وزكـى كبـاه
طـوى زهـر الربـا للشـعر سراً فجـاء النسـم ينشرـ مـا طـواه
وللأمـواج فـوق الشـط عـزف شـدا غـرد الطيـور عـلى صـداه
وقـام الشـعر يرتجـل القـوافي يـترجم مـا تـبهم مـن لغـاه
مبـاهج كلهـا حسـن وسـحر وشـعر فـوق مـا الشـعراء فـاهوا

إلى آخر ما قال.

شجون الحياة:

من الشعراء من يرغم شبابه وثروته وصحته فيرى الحياة أحياناً رؤية من تعوزه هذه الخلال، ورؤية من تحيط به النوائب من كل الجوانب، فتضيق بنظره هذه البسيطة المترامية الأكناف، وتسود في عينه نواصع هذه الحياة الحلوة التي يتمنى البقاء فيها كل من البر والفاجر، ولا ريب أن هذا النظر إلى الحياة من وجهها المظلم، هو دأب ذوي الشاعرية المتشائمة التي تعلو بطائرهم طبقة من الزجاج القاتم اللون، ولكن الحامد شأنا غير هذا شأن هؤلاء له بحار من السلوى يمده بها خياله الواسع عندما تشتد به الأزمات، وتضيق به الأحوال يغترف منها ما يزحزح عنه تلك الحنادس التي يغان بها على صدور أولئك الشعراء المتفلسفين فالشاعر الذي يفل جيوش الهموم بقوله:

دعني أرفه عن قلبي وأنعشه لهواً فإني كئيب القلب ذابله
دعني أبدد عن نفسي- بلابلها حيناً فإني فتي جم بلابله
كم بت حيران أرعى النجم في شجن أكابد الليل حتى بان فاصله
والنجم يرجف خفقاً في أشعته فهل درى أن لي قلباً يماثله

لا يكون سعيداً إلا بخياله يمتلك ناصية إرادته بنفسه فيرفه عن قلبه ما شاء الله أن يرفه ويبدد عن نفسه ما تراكم عليها من مشاغل الحدثان.

وليس ذلك فحسب، بل أن شعره يصبح مسلاة لطالبي السلوى، ومنتزها للنفوس المسجونة في طوابق الشجون والأكدار، لأن الشعر –هو لسان الوجدان وملقح الأذهان– لا يكون أنفع ما يكون إلا إذا وقع مرهما للأكباد القريحة يشفي عليلها، ويطفئ غليلها، لا إذا وقع مهيجاً للأحزان مثيراً للأشجان، حائلاً بين المرء وبين ما خلق له من مسار الحياة ومباهجها.

فالخيال الحامدي طبيب نطاسي لا يدع لأمراض الهموم مجالاً للفتك بضمائر مطالعي الشعر الحامدي، وشهاب ثقب ينقض على عفاريت الأحزان فيحولها رماداً... وإليك ما يقوله الحامد:

وكنت وهمٌ ناصب عبء كاهلي أكابده والشوق ملء فؤاديا
وفي النفس آمال كبار تصرمت عليها ليالي الدهر وهي كما هيا
وبي في الحشا داء قديم دفنته أناشد ترياقاً من الطب شافيا

ثم اسمعه يقول:

وحين دعاني العيد لبيت صوته وألقيت أعباء الزمان ورائيا
وصحت بحيات الهموم فرعتها وفرت على الأعقاب تبغي المخابيا

أأسى وموجات السرور تحفني أمامي وخلفي يمنتي وشماليا

وهكذا ترى شعر الحامد باباً من أبواب السلوى ومنفذاً من منافذ السعادة.

❊ ❊ ❊

نظرة في ديوان:

نسمات الربيع له، وعليه (٥)

غراميات الحامد:

للغراميات الحامدية شيطان خاص، قوي الاستهواء شديد التأثير على النفوس، وحتى على نفوس أولئك القوم الذين يتظاهرون بالعفة الجامدة، ويزعمون أن الشعر لا يتطرق مفعوله إلى نفوسهم الصلبة، فإن هذا الشيطان الموفق لا يتورع أن يخلع عنهم لثام الرياء وقناع التصنع مهما لصقا بهم وأن يرغمهم على الاعتراف بالوقوع في هذا الاستهواء والغزل الحامدي السحري.

وشيطان الشعر الغرامي الحامدي له فيما أرى صلة قوية السبب بشياطين امرئ القيس وابن أبي ربيعة والعرجي إن لم يكن حقاً هو واحداً منهم وربما كان يمت بشيء من الرحم إلى شيطان شوقي الذي يقول عند لمته بخياله:

دَخَلَ الكَنيسَةَ فَارتَقَبتُ فَلَم يُطِل ... فَأَتَيتُ دونَ طَريقِهِ فَزَحَمتُهُ
فَازوَرَّ غَضباناً وَأَعرَضَ نافِراً ... حالٌ مِنَ الغيدِ المِلاحِ عَرَفتُهُ
فَصَرَفتُ تِلعابي إِلى أَترابِهِ ... وَزَعَمتُهُنَّ لُبانَتي فَأَغَرتُهُ
قَد جاءَ مِن سِحرِ الجُفونِ فَصادَني ... وَأَتَيتُ مِن سِحرِ البَيانِ فَصَدتُهُ

أفلا ترى أن هذا الشيطان قد كشف عن أسرار هذه المداعبات النفسية ما يتكتم بها كل من المفتون والفاتن، ويحاول كل منهما أن يوقع صاحبه في فخه بدون تصريح رسمي؟. وهذا الأسلوب الشيطاني لم يكن ليكشف إلا عن معنى غريب في العالم الغرامي وإن هو إلا ينبئ بمنهج عادي يسلكه غالب المغرمين في حياتهم

الغرامية، ولهذا يكون تأثيره بليغاً في النفوس لأن هذه المحاولات مألوفة لدى السامع وكثيراً ما كان يحاولها متكتماً بها في قرارة نفسه، حاسباً أنه قد انفرد بها فإذا سمعها في شعر عن غيره تنبه لها وكانت له بمثابة تنبيه للذاكرة وإرشاد إلى الغواية الغرامية التي تزداد نشاطاً في الأخذ بضبع صاحبها إلى الفوز بالمطلوب. والآن اسمع إلى ما يقوله الحامد:

وقفت لحسنائي بروحي وناظري ... أعب الهوى من حسن طلعتها عبَّا!
ويصلى فؤادي من عوادي لحاظها ... قذائف سحر سمها في دمي دبَّا

ثم مشى يلتمس جوانب العواطف إلى أن قال:

عهود قطعناها غراماً ونشوة ... سعيدين لا نألو مراحاً ولا لعبا
إذا نفرت دلاً تقدمت ضارعاً ... وإن ذهبت عدواً خففت لها وثبا
ونبني خصاماً في دلال فإن دنت ... أبيت وإن أقدم على مأرب تأبى
وألمحها تحنو عليه بمقلة ... أراها برغم الصد تغمرني حبا

فماذا ترى. أيها القارئ في هذا الصغير الخبيث الماكر الذي يقرأ في أناسي الألحاظ من أسرار الغرام ما تحرص الفواتن على إخفائه في أعماق نفوسها. ثم يعاطيها المدام بكأسها نفسه فيدنو حين تبعد، ويبعد حين تدنو، حتى إذا اضمحل الهزل وحان الجد جعل لها حينئذ قلبه قرباناً يقدمه على مذبح هيكل الغرام، واتخذ من حسنها إلهاً لا معبوداً وما ذلك إلا لأن جمالها مفاض من مصدر الجمال الأسنى والسناء الأسمى، فيقول:

مثلت لها في هيكل الحب خاشعاً ... وقربت قلبي أبتغي عندها القربا
وألّهت فيها الحسن لا عابداً لها ... ولكنني في حسنها أعبد الربا

وإذا قارن الأديب بين قوله في هذه القصيدة:

تـــدل بصـــمت أنهـــا بي صـــبة كـما أنـا لم أبـرح بهـا هـائماً صـبا

وقول ابن أبي ربيعة:

ولمـا تلاقينـا وجـدت الـذي بهـا كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعلِ

يجد أن بيت الحامد أمتع وأرفع وأوسع. يظهر ذلك للمتأمل.

قصيدة هل تذكرين؟:

وأنت – حفظك الله – إذا قرأت قصيدة" هل تذكرين "رأيت آية الآيات وغاية الغايات في الأخذ بلبات الألباب، والنقر على حبات القلوب، ورأيت السعادة الغرامية تتدفق من حروف قصيدة تدفقاً يطوح بك في أفلاك شاسعة من الخيال اللذيذ تتلمظ فيه الشفاه ويسيل منه اللعاب سكراً وتلذذاً وإليك منها:

هـــل تـــذكرين وأنـــت والأ تـــراب في القصر المنـــير
لمـــا انســـللت لموعـــدي في روعـــة الرشـــأ الغريـــر
فنـــزا الفـــؤاد إليـــك مـــن جـــذلٍ وحـــاول أن يطـــير؟!

* * *

نظرة في ديوان:

نسمات الربيع له، وعليه (٦)

إن انسلال السعادة الفاتنة خفية من بين أترابها إلى ميعاد قد كان بينك وبينها غبطة عظمى لا تكيف، وإن لها ما بعدها من النتائج والمواقف التي قد قدرها الحامد حق قدرها، وقام بالواجب نحوها قياماً تشكره عليه جميع العواطف والوجدانات فقال:

هل تذكرين وقد ضممـ ـتك ضمة الصب الولوع
ولو استطعت فتحت من لهف الغرام لك الضلوع
وجعلت صدري معبداً لجمالك المرح المروع
يفتن قلبي دائباً لك في التبتل والخضوع

ما شاء الله فأي حفاوة تكون بعد هذا وقال:

هل تذكرين شعورنا حين التقت منا الشفاه
وعببت من فمك المعطـ ـر نور أحلام الحياه
لما عرتنا غيبة الـ ـعباد تاهوا في الصلاة
طارت مشاعرنا فكل عن جميع الكون ساة

ليت شعري هل بعد هذا غاية؟ الحكم لك أيها القارئ. أما قوله:

لما انسللت لموعدي في روعة الرشأ الغرير

فهو أليق -في نظري - بالأدب وأمس بالحشمة وأدنى للطهارة من قول امرئ القيس:

سَمَوتُ إِلَيها بَعدَ ما نامَ أَهلُها سُموَّ حَبابِ الماءِ حالاً عَلى حالِ

ومن محاكيه في الخلاءة ومقلده حتى في اللفظ عمر بن أبي ربيعة:

فَلَمّا تَقَضّى اللَيلُ إِلا أَقَلَّهُ وَكادَت تَوالي نَجمِهِ تَتَغَوَّرُ
وَغابَ قُمَيرٌ كُنتُ أَرجو غُيوبَهُ وَرَوَّحَ رُعيانُ وَنَوَّمَ سُمَّرُ
وَخُفِّضَ عَنّي النَومُ أَقبَلتُ مِشيَةَ الـ ـحُبابِ وَرُكني خَشيَةَ الحَيِّ أَزوَرُ

ولا ريب أن الآداب العربية هي الآداب من قديم الزمان إلى الآن، والحشمة هي الحشمة، والطهارة هي الطهارة لم يتبدل جوهرها، ولم يتغير موقفها حتى يسوغ لأحد انتحال الأعذار لأولئك بالبيئة والعصر.

ولنعد الآن إلى النظر فيما يقذفه شيطان هذا الرجل في شعره من المعنى البديع المدعم بمدافعة النهود عند تهامس القلبين، ولمدافعة النهود عاصفة قوية على الوجدانات السليمة، تزعزع أركانها، وتهز أغصانها، والشاعر لم يأت بصيغة الجمع فيهما وهما نهدان فقط إلا لتكميل السحر اللفظي الذي يستدعى من الهواجس النفسية ما تستدعيه آهيا براهيا من القوى الروحانية وهو قوله:

وتهامس القلبان رغماً من مدافعة النهود
فتبادلا شكوى الغرا م وجدّدا قدم العهود

استعطافه الغرامي:

للحامد استعطاف غرامي يذيب الجلمود ويستنزل العصم، وربما توغل في بيدائه حتى ينتهي إلى ما لا يرام من الغفلة والخطل في الفن واليك أنموذج منه قال:

يا مالك الرحمة في الأرض من علمك القسوة من علمك

نبـع حنـان أنـت بـين الـورى من ذا الـذي بـالظلم غـذى دمـك
أصـميتني عمـداً بسـهم الهـوى عـدني بعطـف واحبني بلسـمك

إلى أن قال وليته لم يفعل:

جبلـت ذا عطـف ولـو للعـدا فكيـف تغـدو قـاتلاً مغرمـك

ومن الواضح لدى أهل الفن أن الفاتن لا يحسن منه أخلاقياً أن يكون عطوفاً على كل أحد حتى عداته فإنه –حينئذ– يصبح لعبة في :أكف العابثين، ومتاعاً مبتذلاً بين الواردين والصادرين، أولم تسمع قول المتنبي في هجاء ابن كيفلغ:

يا أخت معتنق الفوارس في الوغى لأخـوك ثـم أرق منـك وأرحـم

ويقول ابن الرومي:

مـا للحسـان مسـيئات بنـا ولنـا إلى المسيئات طـول الـدهر تحنـان
فـإن يـبحن بعهـد قلـن معـذرة إنـا نسـينا وفي النسـوان نسـيان
فضـل الرجـال علينـا أن شيمتهم جـود وبـأس وأحـلام وأذهـان

ومن جيد استعطافات الحامد قوله:

هـــل تـــذكرين أخـــا فـــؤا دٍ كـــاد يتلفـــه الحنـــين
فلـــه خفـــوق الطـــير مـــذ بوحـــاً وأنـــات الطعـــين
هـــل تـــذكرين لـــذاكر ذمـــم الهـــوى هـــل تـــذكرين؟
أنـــا حـــائر أنـــا والـــه! أنـــا فـــوق مـــا تتصـــورين

ومن المرقص في هذا الباب قوله:

ولقيـــة جـــاد بهـــا فـــاتني أمنيـــة مـــا خلتهـــا أن تكـــون

حـــين توافينـــا عـــلى نجـــوة تضـــل عنهـــا حـــائمات الضـــنون
ورمـت أن أشـكوه بعـض الهـوى فســابقتني مرســلات الشــؤون
تعطلـــت كـــل اللغـــى بيننـــا واسـتبدلت عنهـا لغـات العيـون

والاستقصاء في النظر في غراميات نسمات الربيع شيء بعيد الشقة يتكشف عـن فجـاج وسراديـب ومسـالك شـتى، تنفـرج عـن بـدائع ونفـائس تأخـذ بمجـامع القلوب. فلينعم النظر فيها من يريد من هواة الشعر وغواة الفن.

* * *

سوانح الديوان الضائع

سنحت هذه السانحة وأنا اقرأ ما ورد في النهضة حول ديوان الشاعر المطبوع سقاف بن محمد، ذلك الديوان النفيس الذي اختطفته الأيدي الغاشمة. ربه الذي طالما عصر فيه يافوخه يتقطع فؤاده أسفاً وحسرة. وللناس إعجاب كبير وتسل بكثير من نتائج قرائحهم في كل منحى من مناحي الحياة إلا أنني أرى أن الشعراء من أشد الناس إعجاباً وتسلياً ببنيات أفكارهم التي تزداد لديهم جدتها وبهجتها كلما دخلت أغصان حياتهم في الذبول والتقلص فكل شاعر يرى من شعره لنفسه كنزاً ثميناً يجعل من الترنم به والعودة إلى إنشاده مرة بعد أخرى اداماً يأتدم به ما يتجرعه من كؤوس الحياة العلقمية المجبور على تجرعها لما مزجت به من المر الذعاف.

وإذا كان السيد السقاف يندب حظه ويبكي ديوانه فإن اليد الغاشمة التي تناولتها لهي يد متناهية في القسوة والظلم ولا أخال ربها إلا وحشاً منسلخاً عن العاطفة والشعور الطاهر. وإلا فجع الرجل في ذكرياته وتسلياته وقطرات تاموره وترك له من الحسرة والتألم ما يصحبه مسافة شاسعة في أشواط حياته.

وقد يختطف لصوص الأدب كتباً أدبية متعددة النسخ وقد يخون المستعير من الأدباء أمانته عن إرجاع ما يستعيره من الكتب وقد يعزو الأديب فيغير على معان قد سبقه إليها غيره فينتحلها لنفسه كل ذلك قد يكون إما انتشال ديوان برمته انتشالاً يحرم الناس من مجانيه الأدبية ويوقع ناظمه في العريض الطويل كياداً حسداً فهذا مما لم يكن بعد فيما أخال غير هذه الكارثة الأدبية الواقعة لأول مرة في التاريخ الحضرمي.

يتهم الشاعر السقاف أدباء الجن في انتشال ديوانه ولو درى ما فعل لو درى أن أدباء الجن – حفظهم الله- لم يصلوا في الرقي الجرائمي ما وصل إليه بنو الإنسان ولو درى أن أدباء الجن ليعطفون كل العطف على أدباء الإنس ويمدونهم بالمعاني الرائقة والألفاظ الأنيقة، وإن من المستفاض لدى العامة والخاصة أن الحليلة والهاجس والرؤى للشاعر كل هؤلاء أعوان من الجان يقذفون الشاعرية الخالدة في ارواع بني البشر لو درى ذلك لما كال التهم جزافاً لهؤلاء المساكين من بني القاع الذين لا يتاح لهم أن يدافعوا عن أنفسهم أمامنا ولا أن يدرؤوا هذه التهمة المادية من سليقهم الروحية وهم لو شاءوا لاقتبسوا من المعنويات الديوان ما قد يرغبون فيه دون أن يحتاجوا ماديته من الحبر والورق والجلد مما يكشف من أن تتحمله خلقتهم اللطيفة.

إن يكن السقاف – لا فض الله فاه- يفرضه في تهمته أن السارق من قبيل إبليس الرجيم الذي يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم والذين عجنت خلقتهم بنيران الحسد المندلعة ألسنتها علينا نحن بني الإنسان منذ نشأتنا ونشأة أبينا آدم عليه السلام فإني أنا شخصياً أرى أن إبليس أخزاه الله وقبيله أقل وأذل من أن يكون في مقدورهم نقل هذا الديوان من حيز إلى حيز وذلك لما أحاط من سياج اليقين والإيمان الذي سورته به عناية شاعرنا المؤقن المؤمن كما أنني أيضاً أرى أن حسد إبليس لأعظم من أن يتدلى إلى هذا الحضيض من سرقة المداد والكاغد إذ ليس في هذا شيء مما يرمي إليه من الإغواء والإضلال واحتناك ذرية آدم عدوه اللدود.

والآن الديوان ضائع ولست أخاله إلا في رف من رفوف إخواننا الآدميين

وإن كانت هذه السانحة يقشعر جلده عندما يدور بخلده أن الحاسد الأثيم لا يتأثم عن أن يحمله حسده على تقديم هذا الديوان المنكود الحظ قرباناً للنار أو هدية لبئر من الآبار فإن كان هذا لا سمح الله قد وقع فحسبه العلي العظيم.

إني أود لو أعش دور المحرضين المستحضرين وأرباب المنازل وأصحاب الطلاسم ثم أتضرع إليهم في أن يشحذوا أقلامهم ويطلقوا نحورهم ويستمطروا اكف الروحانيين وسدنة الحروف وملائكة الآفاق حتى يكشفوا لنا عن هذا اللغز الغامض والسر العميق. اجل إني أود ذلك ولكننا معشر المتأدبين إن صح أننا متأدبون قد صفرت راحنا عن الصفراء وابيضت عن البيضاء وأصبحنا نتناول الثراء من شق القلم وهذا ميل لا ينقع غلة ولا يندى راحة.

ولو قلم ألقيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بين السيد السقاف وبين ديوانه الضائع وأطعمنا ثماره واسقنا من نمير أنهاره آمين.

* * *

سوانح السيد باعبود

يولد الطفل حين يولد وهو مصحوب بالعصامية التي تسوقه سوقاً لطيفاً نحو الاستغناء عن الاعتماد على الغير فهو من حين يولد يكون مستغنياً عمن يرشده إلى فتح فمه، وامتصاص اللبن من الثدي وهذا ذرة من ذرات العصامية الغريزية التي تنمو وتتناتج بحسب ما أتيح لها من الظروف والمناسبات، أو ما قد ركبته العناية المدبرة في الشخص من الاستعدادات والمواهب.

والذي يلوح للباحث أن العصامية قد تتقوى بالتمرين والعزم والمحاولة كما أنها قد تضعف ثم تنطفى شعلتها عندما يهمل شأنها وتدفن تحت أكداس الجهل والكسل.

والسيد باعبود كونت منه العصامية شخصية طار صيتها بدون حسبان ووقف من الشعر موقفاً يعز على من لم يسهر الليالي طويلاً في الاقتباس من رجال المباحث الفلسفية والاحتكاك بهم والعل والنهل من مواردهم يعز عليه أن يقف إلا إذا كانت العصامية وحدها هي التي تحدوه إلى اقتعاد هذه الذروة السامية التي اقره فيها فطاحل الفن في الشعر والتفكير.

عصاميته وعبقريته:

والعصامية والنبوغ والعبقرية خلال وأخلاق تتحد أصلاً وتتفرع إلى فروع تختلف باختلاف الظروف والأحوال، وأحسبني غير واهم إذا قلت: إن الشخص لا يكون نابغة أو عبقرياً ما لم تصحبه العصامية المناة التي يخلقها بهمته وجده. والسيد باعبود لا يزال كاشفاً ساقيه لخوض غمار الحياة الأدبية التي هو الآن في مستهلها والتي تنتظره في عراصها نواضج الخلال الثلاثة الآنفة الذكر

التي تنضجها في شخصية العبقري العصامي طوال السنين المنتجة للحنكة والخبرة.

ولست أرى دليلاً محسوساً ليشهد على ما أفصح به الآن لقراء (النهضة) أنصع من أن أسوق أمامي نماذج موجزة من تفكير هذا الشاب – التفكير العبودي- المفرغ في قالب شعري يختلب الأذهان فتنة وجمالاً.

وإنما ندعوها عصامية لأنها تكون في صاحبها بمحاولته نفسه لا باستعانة من يأخذ بيده في الوصول.... [1] الموقف وسيان لدي من المعترض عليّ أن ينزل على تسميتي هذه التي صورها لي خيالي أو يسميها نبوغاً وعبقرية إذ لا مشاحاه بيني وبينه في الألفاظ ولا في الحدود والرسوم.

باعبود والتفكير:

ألا وإن التفكير العبودي الذي تعرب عنه شاعرية السيد باعبود لعجب عجاب تقف دونه القرائح الجامدة حسرى لا تتذوق فيه إلا قولاً يتعالى عن أن تصل هي إلى إدراك كنهه المعجب.

وخذ إليك قصيدته (الإنسان الجاحد) ترى فيها صاحبنا يتساءل تساؤلاً إنكارياً عن المناهج الخيالية التي ينتهجها الإنسان الجامد وهو لجدير بأن يجعل الخيال وسيلة إلى استشعار السعادة واستحضار الأماني والبهجة كما هو ديدن ذوي الأرواح بل النفوس الآمنة المطمئنة ولكن اليأس الإلحادي يحمله على أن لا يتخذ خياله- وهو تحت تصرفه- إلا منظاراً ينظر به وجه الدنيا القاتم ويطمعه إلى البحث عن حقائق حيوية اعتقاديه قد تتعصى عن أن تنال بالخيال الأجوف

(١) بياض من الأصل.

فالسيد باعبود ينكر على صاحب هذا الخيال سلوكه فيقول:

ما لصنو الخيال حين أمسى ... مثقلاً بالهموم والأحزان
مستكيناً إلى الونى بعد ما كا ... نت أمانيه مثقلات المعاني
فهو فوق الحياة لكنّ من في الـ ... ـكون دون الحياة بالإيمان

إلى أن قال:

في رحاب النفوس من ذروة الايـ ... ـيمان ما يخرسن ذا العدوان
عالم يظهر الحقائق في الكو ... ن بأجلى مظاهر الافتتان
فهي توحي في معرض الفن بالعلـ ... ـم بما في الصدور من عرفان
ومن العلم أن فيها رحاباً ... هي من فوق قدرة الإنسان

باعبود والحياة:

ورغماً من كل هذا فإن التفكير الصحيح قد يحدو بأديبنا إلى السرـاديب والمضايق التي تورط فيها فيلسوف المعرة فأخذ يصرخ قائلاً:

تعب كلها الحياة فما أعـ ... ـجب إلا من راغب في ازدياد

بيد أن السيد باعبود قد وطن نفسه على المرور بها فوق أشواك الحياة ومقامع زجاجها الحادة مرتشفاً من كؤوسها العذب والأجاج مطمئناً بطمأنينة المؤمن الصادق الذي لا يسأل عما يبدوا منها من الضراء ولا يثق بما يلوح منها من السراء فهو يقول:

وهل نرضى الحياة وما اجلبنا ... بها إلا المصائب أجمعينا
ثكلنا النفس أن نحنا عليها ... فإن عبست فلسنا سائلينا
وإن رضيت وقام الود منها ... لكي نرضى فلسنا واثقينا

وحيث أن السيد باعبود قد استمد نبوغه من نفسه وهذه هي العصامية

التي نشير إليها فإنه إذاً غير ملوم إذا هو اتخذ الطبيعة هي النبراس المشع السامي لهدي الضال الذي لم تبلغه دعوة الحق على وجهها إلى الحقيقة المنشودة ولا ملوم إذا رأى الطبيعة أمثل معلم تتفجر المعارف من جوانبه فتتلقفها ظلالها كما تشاؤه لهم ميزاتهم ومواهبهم.

إن الطبيعة لو ضلت بصائرنا عن الهدى أشرقت بالعرف إيمانا
نسبح الله كم توحي مناظرها للقلب كم رفعت للعلم تيجانا
يسير قدماً إلى رحب الفضاء بها نور الهدى فيموج الكون عرفانا

إلى أن قال:

حسبي الطبيعة في آفاقها سكناً فقد لقيت بها للعلم ميدانا

وهذا نموذج يسير من كلمتنا في السيد باعبود وإنما أوردناها لتكون تعريف قراء النهضة بأديب حضرمي نتوقع عن قريب أن نرى له في عالمنا الأدبي كوكباً وضاء يشع للمدلجين من سراة الأدب ومعرسيه فينتفع به الواردون والصادرون حقق الله الآمال.

❊ ❊ ❊

النقد الأدبي

للنقد الأدبي مكانة سامية لدى أرباب الفن ترتكن عليها حركة العالم الأدبي أخذه ورده ورواجه وكساده، ولعله من الظلم لهذه المكانة أن نحاول إقامة الدليل على سموها وقداسة مركزها، بل ومن الظلم لليراعة نفسها أن نكلفها الدلالة على مكانة الشمس في رابعة النهار.

إننا نحن الحضارمة العصريين لا ينبغي لنا أن نستنكف من الاعتراف لطفولتنا في الأدب وتطفلنا على موائده، ولا أرى من سبيل إلى تنقيصنا بأننا أطفال لأن الطفولية ضرورية للأعمار، ولا من سبيل إلى لومنا على التطفل في هذا الموقف لأننا إذا لم نتطفل اليوم فلا نتأهل فيما بعد أن نكون من الرجال المدعوين أو الداعين إلى هذه الموائد الأنيقة.

وطفولتنا في الأدب وتطفلنا عليه هما اللذان جعلا نقدنا عرضة لأن يكون عرضياً أكثر منه فنياً كالطفل الغرير الذي ليس له رائد سوى الأنانية الخالصة، فالنقد عندنا إنما هو في الحقيقة دفاع عن الذات وسعي في النكاية بالمنتقد عليه رغماً عن التظاهر بأنه نصرة ودفاع عن الفن، لأن النقد الفني تستعصى رسومه ولوازمه عن أن يكون له مساس بغير ما يعتور الفن نفسه من الملابسات، وقد يضع الفنان نقطة في الهندسة بمكان غيره أليق بها منه، وقد يخطئ الموسيقار في تلحينه خطأ لا يميزه إلا فنان مثله أو أقل أو أكثر، وقد يزل قلم الكاتب في لفظة أو فكرة ربما يمجها الفن مجاً، ولكن الفنان القدير الذي يثق بنفسه في التمييز بين جيد الفن وزائفه يعز عليه أن يقف واجماً تجاه هذا التشويش الفني الذي قد لا يتقصده صاحبه متعمداً.

والنقد لم يكن حكماً ولا المنتقد أو الناقد حاكماً إنما النقد تمحيص وبحث لا يلامسان شيئاً البتة من شخصية الكاتب المنتقد عليه لا من عقليته ولا من مميزاته الأخرى، ولكن رجالاً منا نود لو أنهم يرجعون إلى أنفسهم قبل الدخول في مأزق يزعمونه نقداً فيتجافون عن التحكك بحضيرة مقدسة لا تبررها التحكك بها دعوى التظاهر بالغيرة على الفن وإصلاح ما أفسد فيه.

فماذا يعمل المرء وهو قن الأغراض وعبدها إذا لم يكن له من أخلاقه أولاً ومن تضلعه في الفن ثانياً زمام يزعه عن أن يسترسل في التشفي من قرينه بانتحال وسيلة شريفة يزعم بأنه يلابسها وينتحلها لذاتها لا لذاته.

إنني أكتب هذا وقد قرأت في جرائدنا المباركة ما بدأت أن تكشف سوقها للخوض فيه مما لا يكون عاقبته خيراً، فنحن بدافع التجارب المنتجة التي قد تكرمت بها علينا طوال السنين وغرائب المشاهدات ومزاولة الكتابة في صحف جمة بمصر- والأستانة بسوريا وجزائر الهند الشرقية وبدافع ما قد قذفناه على خصومنا من القذائف القاصفة وتلقيناه عنها منهم من الأعاصير العاصفة كل هذا يحملنا على محض النصح لهذه الصحافة الطفلية التي لا يسوغ لنا اليوم أن نسميها صحافة، أن تربى بنفسها عن التدهور إلى أمثال هذه الحمأة التي تلطخها ومنعتها عن النزاهة وعوقتها عن النمو لا سمح الله، فإن للناس فيها آمالاً حسنة حققها الله تعالى.

* * *

الموسيقى الحضرمية وأغانيها

الموسيقى هو شعر الأنغام كما أن الشعر موسيقى الكلام وكلاهما يحدث بوزنه وتنسيقه أثراً تستلذه النفوس وتعنو إليه الألباب وتنبعث له العواطف فيهتز منه الشحيح كرماً والجبان شجاعة والكسول نشاطاً واللئيم مروءة.

وبعد فليس بنا حاجة إلى الإسهاب في فضيلة عموم الموسيقى فلندع ذلك حتى لا ينكرها منكر ولنلتفت التفاتة خاصة إلى الموسيقى الحضرمية وأغانيها المعربة عن أذواق أهل القطر الحضرمي من كافة الطبقات فأغاني كل ناحية وموسيقاها هي القول الشارح والناطق الوحيد بما يدل على شعور أهل تلك الناحية ووجدانهم وهي هي التي تصور للسامع طباعهم وأذواقهم ونحن إذا ذكرنا الأغاني فإنما نقصد بها نغمات الأصوات ونبراتها وهزجها وثقيلها ومدها وقبضها وتمطيطها وتخفيفها وهذا اللفظ والتلحين توأمان يكادان يردفان الموسيقى عند أهل العصر أو هما عينه ولا نقصد بالأغاني ما يقصد بها الكثيرون نفس الأشعار المتغنى بها وما تدل عليه من معان شريفة أو سافلة لأن هذا المعنى وإن يكن من الأهمية بمكان إلا أن الأمم الشرقية تتشابه في هذه المعاني التي يتغنى بها متغنوها من حيث انقسامها إلى مواعظ دينية وحكم وحماس وغزل محتشم وآخر سافل وهجاء وشكوى.... إلخ.

والموسيقى شيء ضروري لجميع الأمم متمدنها ووحشيها ولعله ظهر إلى الوجود بظهور النوع الإنساني إذ به يأنس الوحيد فيترنم مختلياً بنفسه حيث يطرب بصوته ويزيل عن ذاته الخوف والرعب وبه يرتاح التعبان ويتسلى الكئيب وقديماً نبه العلماء إلى فضيلة الغناء والموسيقى فقرروا أصولها وفرعوا فروعها

ودونوا اصطلاحاتها حتى أصبح في طليعة الفنون الجميلة وأوائل مختاراتها.

أما المتأخرون من الغربيين فقد بلغت الموسيقى لديهم الشأو الأقصى- والأوج الأعلى فقد نوعوا آلاتها وضبطوا مصطلحاتها وجعلوا لها أبجدية يكتبون بها الألحان ويقرؤونها بأسهل طريقة وأخفها سواء كان بالفم أو بالآلة وبذلك تحفظ الألحان في بطون الدفاتر وتتخلد التوقيعات حتى يتغنى بها الأحفاد وتتصور الأجيال القابلة حفلات أجدادها وأذواقهم.

ولقد فاتنا العلم الجم بفوات ما كان يتغنى به من الألحان في التاريخ العربي ولقد حفظت لنا الأسفار أغاني معبد والموصلي وأمثالهم وأزجال طومي وهزجه وأغاني من هو على طريقته لوصل إلينا الشيء الكثير من الدراية ولكنا طالعنا كتاب الأغاني للأصفهاني غير متأففين من كل الاصطلاحات العقيمة من الخنصر والبنصر والثقيل والخفيف واليوم وقد احتذت جميع الأمم الشرقية حذو الأوربيين في كتابة الألحان وتدوين ما لديهم من الموسيقى والسير صعداً بهذا الفن الجليل فلم يبق للحضرمي في مناحي القطر فيه بصفته فن والالتفات إلى ترقيته وضبط قواعده والخروج من ظلام الأمية الغنائية والجمود الموسيقي إلى باحات الإتقان والإبداع.

لا ننكر أن الألحان الحضرمية قد بدأت نوعاً ما بدوافع الروح العصري والاحتكاك بالأمم الأجنبية بجاوا والهند وإفريقيا الشرقية في التحول قليلاً من مجراها الجاف وجمودها الشائن وبعد أن كانت "بني مغراه" والشهيق خلالها هي اللحن الرئيسي في الحفلات العامة للقنص والسهرات، أصبح المجتمع اليوم وقد استعاض عنها بألحان هي اقرب إلى الذوق السليم من تلك.

وللحضارمة ألحان قديمة جداً قد أكل عليها الدهر وشرب لا تزال ترن في الآذان حتى اليوم يتوارثها الخلف عن السلف غير حايدين عنها قدر شعرة ومن الغريب أن الأسماع لا تمل والألسن لا تكل من سماعها وتكرارها منذ أكثر من سبعمائة سنة والنشيد الصوفي الذي ينشده الفرد في المحافل العامة والخاصة بدون آلة يصحبه هو في مقدمتها ومثله بني مغراه المار ذكرها وبعض ألحان أخدام السقاف وكثير من الألحان بوقة البطيق وكذلك أصوات الداية" حراثة الجروب" وتابير النخل وحداء الإبل ونضح الماء من الآبار وأصوات النعي والفرح.

ولقد كان من سوء حظنا في التاريخ والآداب الحضرمية أن رجال الموسيقى عندنا سواء كان قديماً أو حديثاً لم يكونوا إلا من الأفراد الجاهلة بمقدار فنهم وما يتمتعون به، وكثيراً ما زايلوا عملهم هذا بتحريك أناملهم أو رفع عقائرهم ما هو مبتذل في جيلهم وفي الأجيال التي تقدمتهم حذوا الفعل بالفعل ولم ينظروا إلى الفن نظرات المجدد المبتدع الذي يختار لنفسه والناس كسر القيود أو فض الأغلال ليتحف الأذان المرهفة بما يشنفها طرباً يملأها نشاطاً وارتياحاً ويفتح للنفوس المجردة أبواباً تنفذ منها إلى حدائق البهجة وعوالم الجمال ليتهم وقد كانوا كذلك تحروا لنا على الأقل سبيل الرواية لأسانيد تلك الألحان المبتذلة التي أصبحت ديدنهم وهجيرهم والتي جمدوا عليها جمودهم على نفس أشعارها وبحورها نعم ليتهم حفظوا لنا منشأها وإبان بروزها ومن هو ذلك الحساس الكبير والموسيقي الشهير الذي أتحف العالم الحضرمي بهذه النغمات الشجية والذي لم يستطع الأواخر أن يحيدوا عن تلحينه البديع ولا قلامة ظفر.

لو وجه الحضرمي همه نحو هذا الفن وشحذ له غرار عزمه لبز غيره من

رجال الموسيقى في جميع الشعوب ذلك أن للحضارمة مواهب غريزية في التلحين والغناء قل أن يجاريهم فيها سواهم فهم على جهلهم بفن الأغاني وأميتهم فيه وإعراضهم عنه وافتقارهم إياه ترى لهم ولعاً طبيعياً بالتلحين وشغفاً عجيباً بالترنم والإنشاد فلا تكاد تجد بينهم من الرجال والنساء من لم يتغن على انفراد أو عند مزاولة مهنته ولا تزال تسمع أغاني النساء على الأرحية وعند التخييط والتطريز ومنهن من تستفزها الأريحية فتتغنى وهي سائرة في طريقها هذا عدا ما تسمعه في مراقصهن العامة وحفلاتهن البهيجة إذ يبدو منهن العجب العجاب من تنويع الأغاني والتغني في الرقص وإبراز الطرب إلى العيان بكل معانيه.

* * *

الوطنية

تبتدئ حياة الأمم والشعوب بنفخ الروح الوطنية في نفوس أفرادها، وانتشار هذا الإحساس المقدس بين عامتها، والشعور بأنها خلقت لا لتكون أثلولاً زائداً في جسم هذا المجتمع البشري ولكنها لتكون عضواً مهماً يشغل مركزاً فارغاً يحتاج إليه العمران وتستمد منه المدنية.

حينئذ تهب الأمة التي يتاح لها التحلي بهذه الإحساسات الطاهرة فتأخذ في إصلاح كيانها والمحافظة على تعميره والحدب على هضابه وشعابه، والتشبث بأهدابه وأسبابه، والتباري في سبيل إحيائه وإعلائه والنظر إليه نظر الابن البار إلى أمه الحنون.

أنى للشعب أن يحيى الحياة الطيبة وينال المركز المرضي بين الشعوب، ويدرك ما يؤمله من فخر وشرف، وهو يجهل مقره ويحتقر وطنه، ويأنف من مسقط رأسه ولا يكترث بمهد آبائه، ولا مأوى رفات أسلافه، ولا يدري بأن له بقعة هو مكلف بتحديدها وتأييدها، وتعميرها وتثميرها، لئلا يهمل ما منحته الطبيعة، وينبذ ما احتفظ به الكرام، فيكون بذلك عاراً على الهيئة الاجتماعية، ووبالاً على العمران البشري، وعثرة على جادة الرقي المطرد في السيار الأرضي.

إن سريان الروح الوطنية في الأفراد مقدّم على الهبوب الوطني لمجموع الشعب تقدم الجزء على الكل فليزن المرء نفسه بمعيار الإنصاف والإخلاص، فإن وجدها تخلوا عن الحب الوطني فهو وإن أصمه صليل نقوده، لا يكون إلا خائناً مرذولاً في نظر كل أمة وشعب وأنه لا يجدر به إلا أن يعتبر ذاته ساعياً في هدم كيان شرفه، ومكداً في تقويض دعائم مجده.

من الغريب أن يبقى الحضرمي الذي وهبه الله من الذكاء الخارق والهمة الفائقة، ما زاحم به جميع الطوائف بهذه البقاع في التجارة وكسب المال، فبذهم وترك كثيراً منهم لا يدركون غباره – من الغريب أن يبقى من هذا شانه متغاضياً عن مركز سعادته، ومصدر حياته وهو وطنه الذي ينتسب إليه، وأصله الذي يعتمد عليه، وأغرب من هذا أن لا يترك أثراً البتة للوطنية الحضرمية في نفوس أعقابه المولودين بهذه الديار. إذ تراهم عندما يذكر موطن أجدادهم ومهد أسلافهم غير مكتفين فقط بالإعراض وعدم الاكتراث ولكنهم يشفِّعون كل هذا بكلح الوجه، وقارص التهكم والاكفهرار الذي لا ينبئ إلا عن خور في الطبيعة، ولؤم في النفس، واعوجاج في التربية.

لقد تمشى كثير من مواطنينا حفظهم الله منذ أمد بعيد على قاعدة ليست بصالحة لإيصالهم إلى الشاؤ الذي يطلبه المصلحون منهم – قاعدة لا ندري من أية سماء هبت على تلكم الادمغة التي تسلمتها كقضية مسلمة لا جدال فيها. وهي أن من علائم الرقي الشخصي والتفيهق في النوادي بسب الوطن المقدس واحتقار رجاله.

لم يك موقع وطننا الجغرافي أو الطبيعي ولا ما هو حال به الآن من الخراب الفوضوي كافياً ولا مسوغاً لتبرير ما يأتيه دعاة اللا وطنية من النظر إلى مسقط رؤوسهم ورؤوس آبائهم نظراً سيئاً مصحوباً ببرودة سمجة ترعش الأطراف وتذبل الشفاة.

كلنا – بني الاحقاف – يلتمس السعادة وكلنا يطمح إلى المجد، وكلنا يتمنى لأمته لو تسنمت السماكين، واقتعدت الشمس. ولكن ليس كلنا يضرب غرابيب

الإبل لنيل ذلك، ولا كلنا يدري السبيل الموصل إليه، ولا اليسير منا من يصدق أن التضامن الوطني هو الطلسم الوحيد لتحقيق تلك الأماني الحلوة والأحلام اللذيذة، كلا فإن الوطنية لفظ لا يزال لدى الجمهور منا خميصاً من المعنى لا تعرفه المعاجم، ولا تقبله الأذهان، ولا يحسب إلا أنه قرقعة هوجاء تخدش الآذان وتشغل اللسان وتضيع الوقت سدى.

مَن ذا الذي يخال أن من الوطنية كياد غير والوطني، والتعصب عليه والإيقاع به، والإعراض عنه، والتذمر منه، والوقوف عثرة على سبيل كده. معاذ الله أن يكون ذلك كذلك، وما هو إلا إحساس شريف، وشعور طاهر يأخذ بناصيته ربه إلى معالي الأمور وكريم الأخلاق، وحسن المعاشرة، ويحدو به إلى مراكز الفضل ومحاط الشرف.

إي بني حضر-موت الكرام من سادة وقبائل ومشايخ هبوا حفظكم الله لتوطيد عرى الرابطة الوطنية بينكم وأحبوا ما بقيتم بعضكم بعضاً فإن الأمواج المتكسرة على شواطئ المحيط الهندي والبحر الأحمر لتردد صدى ما كان لأسلافكم رحمهم الله من قوة الوحدة، وعزة الوطنية وتنذركم إذا لم تلجئوه إلى التضامن الوطني بحلول الخسف الأوربي والنير الانجليزي المنبعث من تحت القبعات الصليبية التي لم تعلموا عنها حتى الآن شيئاً سوى سرابها الخادع وبرقها الخلاب اللامعين. على بقاع المستعمرات البريطانية.

إنه وإن يكن الاستعمار الانجليزي قد ظل باسط جناحيه وهمياً على بلادنا المحبوبة تجهماً واختلاساً من تفريط أشخاص تربعوا على منصات الملك وتاجروا بوطن الأمة وذهبوا والمسؤولية باهظة والجريرة فادحة واللون الأحمر الذي لون

الانجليز به موضع وطننا من خرائطهم كأنما هو مذاب من قلوب الشعب ومعتصر من افئيدته. أجل إنه وإن يكن الأمر كذلك إلا أنه لا يزال لدينا من ليوث بني الاحقاف الخوادر، وسيوفهم البواتر من يرد تلك الأطماع ألاشعبية حسرى، ويصد عن الوطن المقدس من أراد به شراً.

كل هذا والوطنية روح بها مناط وجودنا وعليها قوام حياتنا ومنها تنبجس عيون مجدنا، وعنها تصدر قوة مركزنا، إذ أنى يتاح لأية أمة كانت أن تتبوأ المحتدى الذي يخول لها المكانة المعتبرة بين أصناف الأمم المتزاحمة على وجه البسيطة ما لم توحد كلمتها وتصلح شأن نفسها وتغار على مجموعها. وهذا لعمري هو عين الوطنية التي خصصنا لها هذا المقال مذ اليوم.

الحنين إلى الوطن والعطف على ذويه فطرة فطرها الله الناس عليها لا يتجرد منها إلا من ند عن سنة الطبيعة، وبلي باعوجاج المزاح، وشذ شذوذاً بعيداً يتحتم عليه الإقلاع عنه، والنزوع منه لئلا يصبح أكلة سامة في جسم أمته فتظل سارية فيه سريان الجذم العضال في البدن الواحد حتى تأتي على حياته.

لأية علة يا ترى يسوغ للحضرمي أن يعرض عن وطنه؟ ويعيش من دون خلق الله أجمعين متجرداً عن وطنيته، محتقراً بني جلدته. ناظراً نظر الهزء والسخرية إلى مادة عنصره، ومقر مفخره، ومعشعش رجاله، ومنبت أبطاله الذين طبع لهم التاريخ على جبهته أيادي غراء، ومكارم مجيدة، وآثاراً حميدة.

لا يهولن مواطنينا ما هو أمامهم اليوم من جدب الوطن وخراب أطرافه وقلة سكانه والجهل المخيم على جوه، فإن كل هذا لم يك إلا إعراضاً مفارقة تشتتها همم الرجال، وتطوح بها في مهاوي العدم تلك النفس الحضرمية الكامنة في

أربابها كمون النار في الجمر، والتي رأينا من قوة إرادتها وحسن إدارتها ما لا نستبعد معه أن يستعيد الحضارمة ما اندثر من مجدهم في آن قريب.

* * *

الوطنية والحضارم

الوطنية هي روح مقدسة تتسلط على أفراد الأمة المتعلمة وغير المتعلمة.

والوطنية شواظ ملتهب من نيران الغيرة على الوطن يرسل على أفئدة قوم يندفعون إلى إيصال أوطانهم بكل وسيلة إلى مستوى المثل العليا للمدنية والرفاهية.

والوطنية موهبة سامية لا توهب إلا لمن أتيح من الشعوب له أن يتسنم ذرى المجد وأن يطأ بأخمصيه فراقد الشرف.

والوطنية توفيق عزيز يوفق الله سبحانه إليها من شاء من عباده أن يعيش به وطنه عيشاً سعيداً ويحيى به حياة طيبة.

ولم تكن الوطنية يوماً ما وليدة العلم ولا صنيعة المنطق وإنما هي إلا نتيجة من نتائج التربية الصحيحة ومبدأ من المبادئ الطاهرة التي يغرسها في نفوس صغار النشء كبار المرشدين وأعلام المربين.

والوطنية بمعناها العصري لم تك إلا شعاعاً من أشعة روح العصر ـ التي لم تعهد في الشرق قبل بزوغ القرن الرابع عشر الهجري ولم تلمح لها في الغرب بارقة إلا بعد أن جمع كلمة الجرمان داهيتهم بسمارك ثم جاءت الثورة الفرنسية فجعلت للوطنية شاناً غير شأنها الأول وجعلت من لوازمها التفاني في خدمة الوطن والتضحية بكل غال ومرتخص في سبيله.

ولعل اليد الطولى في تحقيق الأماني الوطنية الخالصة إنما هو لواشنطون بطل الثورة الأمريكية ومحرر تلك القارة النائية من مخالب الأسد البريطاني.

والوطنية هي قومية عنيدة بلغت أشد أدوارها لدى الأمم الحية منذ الحرب العمومية حتى الآن وهي تدل على طهارتها وقداستها قد تتعدى طور الاعتدال وتذهب ببعض رجالها مذهباً شاذاً تستنكره العقول وتمجه الأذواق السليمة.

وأنت ترى أن العرب في العصور الأخيرة لم تكن لهم قاطبة وطنية بالمعنى العصري إلا بعد مشاهدة ويلات الحرب العامة الكبرى والجثث المكدسة تحت رآيات حب الأوطان فالعرب كانوا ينتحلون الجامعة الإسلامية ويحاولون أن يستديموا تحت ظل الهلال التركي حرصاً على تلك الجامعة المقدسة.

وربما يحسب بعض الناس أن اتجاه الوطنية إنما يكون دائماً وأبداً نحو الوجهة السياسية فقط وأن المرء الذي لا تستهويه توقيعات السياسيين ونقراتهم ولا هو ممن يحسن الرقص على عزفهم وضوضائهم لهو المرء المنبوذ عن حظيرة الوطنية والممقوت في نظر وطنه العزيز ولا ريب أن هذا الحسبان لبعيد كل البعد عن الصحة والحقيقة إذ لم تكن الوطنية يوماً ما هي السياسة ولا السياسة هي الوطنية بل الأمر أجل من ذلك وأوسع فإن الذين أفادوا أوطانهم من رجال العلم والصناعة والاقتصاد مثل أديسون ملك الكهرباء وهنري فورد وريكفلر ومن على شاكلته هؤلاء ليعدون من أبطال الوطنية وأقطابها لأن نظرات هؤلاء العباقرة في أوطانهم هي نفس نظراتهم في شخصياتهم أنفسهم ولأن كل واحد منهم يشعر بالإهانة التي توجه إلى وطنه والى مواطنيه شعوره بما يوجه إلى صميم فؤاد نفسه.

وقد يتساءل الكثيرون من أدباء قومنا عما إذا كان في الوقت الحاضر يوجد

لدينا معشر الحضارمة شيء من تلك الوطنية الصادقة التي نراها متجلية بأبهى مظاهرها في الشعوب الأخرى.

ونحن هنا نكتب هذا المقال لا للسلب ولا للإيجاب في جواب أولئك المتسائلين ولكنا نود بهذا أن نستمطر فقط قرائح الباحثين والمفكرين من حملة الأقلام حتى يجودوا ببحوثهم القيمة في معالجة الموضوع على صفحات الحلبة الفتية. والحضارمة قوم مازالوا قديماً وحديثاً أمة قد صقل التجول في الأقاليم المتمدنة جزءاً عظيماً من أخلاق رجالها ولقح كثيراً من أفكارهم وأكسبهم ألواناً زاهية من أشعة الروح العصري أخذوا يجرون بها أشواطاً صالحة في ميادين الحياة ويزاحمون بها من سواهم من الأمم النشيطة في معترك الاجتماع.

ولست أستطيع الحكم بما إذا كان فينا معشر الحضارمة من هو متشبع بروح القومية أو الوطنية في سبيل مصلحة وطنه ولكن يحمله فقط على أن يبذل من أفكاره ومجهوداته وأوقاته في نفع وطنه شيئاً يسيراً مما يبذل في نفع ذاته وأنانيته.

وإن ألوفاً منا معشر الحضارمة يثرون في حياتهم ثم يفتقرون وآخرين يثرون ويموتون وهم أغنياء وغير هؤلاء يرثون الثروة فيبددونها يميناً وشمالاً ولست أرى في هذه الألوف من الناس سوى أفراد لا يتجاوزون أصابع اليد هم الذين يذكرون أن لهم وطناً جديراً بأن يناله شيء من هذه الثروة.

لئن كانت الظروف القاسية بحضرموت في الدور الماضي والحواجز الغليظة الفاصلة بين قاطني هذا القطر لم تجعل للوطنية مقاماً محموداً في نفوس أبنائه فإن لنا في شباب اليوم أملاً عظيماً بأن يغرسوا في أذهان شباب الغد فضيلة

الوطنية قولاً وعملاً لاسيما وقد أخذت الضغائن والذحول والثأرات بين أبناء وادينا المحبوب يتقلص ظلها وينقطع دابرها وما صبرنا إلا بضع سنوات حتى تحقيق الآمال بحوله تعالى.

* * *

الأنانية الباردة

تحت هاتين الكلمتين نجدنا منصاعين لحكم الضمير علينا بالكتابة في تفسير ما قد غرزته الطبيعة المعوجة، وأودعه الوسط السيئ. وألصقته البيئة الوبيلة. في نفوس رجال أخذ الغرور بتراقيهم، وقبض على نواصيهم، وملك عليهم سبلهم، وزحزحهم عن الذوق الفطري، والجادة القويمة، إلى التدهور في هوات الإعجاب بالنفس، والغرام بالذات، والتلفع بالغشية الأنانية الممقوتة، والتعاظم السمج.

لم يكونوا بالقليل بيننا معشر الحضارمة أولئك الأشخاص الذين شمخ بهم غرورهم نحو السماك وهبط بهم جمودهم نحو الحضيض، فظلوا يحجلون بين الملا في سخافة تعاف وسماجة تنكر، وزهو تشمئز منه النفوس، وتنفر منه الأذواق، واحتقاراً لبني البشر لا يصدر إلا ممن ملك الخافقين، وتسيطر على الثقلين، فسلبت العظمة عقله، وصادرته في حواسه، وتركته لا يسمع ولا يعي، ولا يبصر إلا صروح الخيلاء التي بناها لنفسه، وحسبها عنوان سعادته.

ربما يكون لهذا نوع من العذر فيما جره من إزار الخيلاء، واضطبع به من رداء الكبر، إلا أننا ولعمرنا لا نجد لصاحبنا منذ اليوم ما يبرر صنيعه، أو يخفف وزره، أو يضع عنه شيئاً من إصره. إلا أن يكون ذلك هو ما يلاحظه من القذأة في عين أخيه ويعشو عن الخشبة في عين نفسه.

علة أخلاقية تفتك بكثير لكن أفرادنا الذين يتألف من مجموعهم الشعب، ويتحلى بهم جيد الأمة، وينتظر منهم النفع، لن يجهل الواحد منهم قدر ذاته، ويتوسد غير أريكته، وينظر شزراً إلى سواه، وينتحل برسومه الظاهرة، ودعاويه

الفارغة، مكانة الرعيل الأول، والسلف الصالح، ممن شعارهم التواضع، ودثارهم الاعتراف، وغذاؤهم الخشية، وشرابهم اليقين، لا الطموح إلى ما في الجيوب، والتغاير على مواقع الجاه، والتهافت على التزلف إلى العامة، والازدراء بمن قصرت جبته، أو صغرت عمامته، أو ضاقت أردائه، أو قعد به زمانه.

دعونا أيها الأنانيون والتلمظ بذكر سلف يمموا الحقيقة، وعكفوا على اللباب، وصدفوا عن القشور، فتلكم أماني لا تدرك بالتلاعب، ولا تنال بالهوس، ولا تقتنى بالجمود، واذهبوا حفظكم الله إلى احتقار الأنام، والتهام الحطام، وتشمير الأكمام، لدى موائد الطعام، تدخلوا الجنة بسلام.

الأنانية شر خلق يطمس البصيرة، يبعث الرذائل، ويذهب بصاحبه إلى الافتتان برأيه، إلى الافتتان بخلقه، إلى الافتتان بصوته، إلى الافتتان بكل شيء هو فيه، فيظل - وهو الشاب المتشايخ - يتهادى بين القوم مضطبعاً رداؤه، رافعاً عقيرته، زاهياً بنغماته زهو الرواقص في الأوبرا الباريسية.

نحن معاشر الحضارمة أحوج الناس إلى أخلاق فاضلة تلاشي الأضغان، وتريح الخواطر، وتزيح الوحشة. وترفعنا إلى مصاف تلك الشعوب التي أنهلت من جامات الإخاء، وتبادلت كؤوس الصفاء، ولم تمن بأفراد من بنيها يفككون عراها، ويعكرون صفوها، ويفرقون أجزاءها، ويعرقلون مساعي أحرارها بما أُوتوه من الأنانية، وجبلوا عليه من الجمود، ثم هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

لا اليوم ولا غداً سيتاح لأمتنا الخلاص من مآزق التأخر، والانتشال من ربقة الانحطاط - ما دام فيها متنبئون يعدون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إيقاع الشقاق، وبث الفتن، وثلب الأعراض، ومصادرة الناس في أذواقهم،

والتحكم عليهم في عاداتهم.

نود لو يعثر الأناني على مرآة ينظر بها مثاله، ويعرف فيها نفسه، ويدري حينذاك بمقدار تضرر الورى من ثقله، وتبرهم من عجرفته. ومعاناتهم الأمرين من دعواه التنسك، وارتكابه الشطط في التعصب. ليت لنا من الوقت ما يسعفنا بمكافحة هذا الداء الخبيث الذي طفق يمزق أوصال الروابط الاجتماعية، ويشتت شمل الأمة المتحدة – إذاً لأبدينا لقرائنا العجب العجاب من تشريح أجسام هؤلاء المتنفخين كبراً، والمتمايلين تيها، والمبعثرين على سبل الإصلاح تبعثر الشكوك على مناهج المارة.

يلح الأناني على الناس أن يقلدوا صلفه، ويتلبسوا بهوسه، ولا يحيدوا عن ذوقه، وأن يتتبعوا سنته، وينزلوا على حكمه، فلا يرتادون تقدماً، ولا يتطلبون مجداً، ولا يبارون الشعوب الحاضرة في الأخذ بأسباب المدنية، والسعي وراء المصالح الحيوية، التي تخرج بها الأمة من حيز النوح الشاين الذي تحتقرانه أمم عصرها. دعوا أبناء وطنكم يسلكون الطرائق المتنوعة في سبيل الرقي، ونشر ألوية التهذيب العقلي، ما داموا بمعزل عن بث الفتن، وإثارة البغضاء وما داموا في إعراض عنكم وعن مبادئكم السامية ! ومقاصدكم المقدسة–، وليتوجه كل فريق نحو وجهته، ويعمل على شاكلته من دون أن يتحكك مواطنه، أو يتعرض لدعوته وبذلك يسود الوئام، وتتحد الكلمة، وتلتئم العصا. إن شاء الله تعالى.

* * *

حتى متى هذا الحال؟

إن يك بجوانحنا اليوم من التألم الحاد، والشجن الكامن، ما يذهب بالقلم شوطاً بطيناً، ينفث فيه لعابه ويسدد منه سهامه، ويرسل عنه شقشقته، نعياً على وادي بن راشد ما تستبيحه الفوضى بسوحه، وتمثله الهمجية على مسرحه، وتتوخاه الأهواء الضاربة والنفوس العاتية، من تدمير البلاد، وتقويض العمران، والسعي في إهلاك الحرث والنسل.

بلى إن يك بجوانحنا من جراء ذلك ما بها – فإن الواجبين – الصحافي والوطني – يحتمان علينا أن نرفع العقيرة بصوت يشق جلاميد الصخر، ويخترق مسامع الصم، ويستفز جوامد الهمم، وينتحي في استهجان الهجين وإنكار المنكر مناحي تنتهي به إلى الغاية المقصودة والضالة المنشودة.

أي وطن ليت شعري يقاسي من أهليه وبني تربته ما يقاسيه وطننا؟ وأي شعب يكابد من مواطنيه وبني جلدته ما يكابده شعبنا؟ حل تقف اليراعة حسرى دون شرحها. وتذوب المهج أسفاً عند استماعها. وتحار النهى في استقصاء عللها. خوف عام وجدب مستمر، وشقاء رابض، وفتن يلتهب شررها، وأحقاد يطغو ضررها، والناس بين أميرٍ أعمته الرفاهية واستهواه حب المال، وكسر جناحه الجبن، وعالمٍ تولاه الجمود وغل يده الذل، وكمم فمه الضعف، وغنيٍ أبطرته الثروة، وأسكرته الأثرة، فطفق (يجمر على قرصه) ويتلذذ بتعاسة مواطنيه. وحاملِ سلاحٍ كلنا يعلم ما يسديه إلى البلاد وأهلها من سلم وسلام، وروح وريحان.

وارحمتاه لحضر-موت ! لقد مزقت أحشاءها الفوضى، وتأصل فيها داء

التخريب، وتمكن من ناصيتها شيطان الفتن، ورجالها ما فتؤا ممتطين نجايب الغرور، وضاربين في أودية الغفلة، ومنهمكين في إعداد الوسائل لإزهاق روحها والإجهاز عليها.

أين السيد حسين بن حامد بطل الإصلاح ورسول السلام، وخدين الأمن، ألم يأن لسيادته أن يعجل لتلك البلاد السيئة الحظ بجزء مما احتكره من معدات السلام، وانتحله من دعوى الإصلاح، وهو يسمع ويرى ما يجري بأعلى حضرموت وأسفلها مما ترجف لذكره القلوب وتقشعر لهوله الأبدان، من قتل النفوس وشن الغارات وقطع السبل، وتقويز النخل، وإيباس الزرع، وتخريب السواقي، وتدمير المساكن، والإقدام على فضيعة تستنزل البؤس وتستمطر اللعنات.

أين أولئك سلاطين البلد وأمرائها الذين يحبون الجبايات، ويمكسون المكوس، ويتصدون لمزاولة الحكم، وإصدار الأمر والنهي، وييمسون عجباً بألقابهم الضخمة، وبيوتاتهم الرفيعة، ثم هم هؤلاء يرون الأهواء تتلاعب حولهم، والمفاسد تتأصل وطنهم، وهم ثمالى بصهباء الإعجاب، وأسارى في ربقة الملاذ. فأية شبهة تبرر سكوتهم تجاه هذه الفواقر؟ وأية معذرة تخلصهم من ثقل المسؤولية؟ وفي بالوعة سيرمون بوجههم هرباً من النكال عندما تحق الصفقة ويتقدم الوطن جائراً إلى الأجنبي من تفاقم الشر وعدم النصير.

أين ذوو المناصب السلفية، والزوايا الإصلاحية، أين الذين نصبوا أنفسهم لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإسعاف البائس، ونصرة المظلوم، وترميم الخارب، وإطفاء الفتن. فمتى يا ترى سيمثلون دورهم الإصلاحي إن لم يكن في

هذه الأيام السوداء والأونات العصيبة، والبلاد ترزح تحت نيران العتو وتئن من تبعات الجهالة المطلقة.

ثم أين رجال العلم، وحملة الشريعة، وأرباب المعارف، وقادة العامة وهداة الشعب، هلا يستخدمون أفكارهم، ويحركون ألسنتهم، ويهزون أقلامهم، في درء المفاسد، وإزاحة البلايا، وإنقاذ البلاد والعباد.

أفلا يجد بكل من تساءلنا عنهم أن يعملوا لصلاح وطنهم ولو بمعشار ما يؤدونه لأغراضهم الخاصة؟ أفلا يحتم ذلك عليهم الواجب الديني قبل الواجب الوطني؟.

أجل والله. وأين الآخرون من فطاحلة النقود، وأبطال الثروة والصناديد الذين ساعدتهم الظروف، وواتتهم الجدود، فثقلت جيوبهم، وخفت أحلامهم، إلا من وفقه الله منهم _ وقليل ما هم _ فأشاد المدارس، وعمر المساجد، ونشر المعارف، وبعث البعثات العلمية، واستجلب وسائل العمران، وأخذ بأسباب المدنية، وغمر من استطاع أن يغمره من سكان حضر-موت بأياديه البيضاء، وإغاثاته العظيمة.

نحن لا ندري ما هو الحامل لكل هؤلاء على السكوت والإخلاد إلى الهون على أن في الحضارمة رجالاً طالما حدثتهم نفوسهم الشماء بإصلاح وطنهم لولا أنهم سرعان ما تبرد منهم تلك الحرارة الملتهبة. وجذوة الإصلاح المتقدة.

حتّام يدوم هذا الحال ! وحضر-موت ترسف في أغلال الظلام والظلم، وتستغيث من فظائع الفوضى والبؤس؟ وتكاد تظل نكتة سيئة في جبين العصر العشرين عصر المدنية والعمران، عصر العلم والاستنارة، لقد عظم والله الخطب،

وسجل الدهر صخبه، وأمطر العار وابله على أعيان ذلك الوادي الذين سهل عليهم الهوان، وعزب عن رؤوسهم روح الحمية، وضياء النخوة.

رحم الله السيد الحسن بن علوي بن شهاب الدين لقد كان أول من صدع برسالته (نحلة الوطن) دياجي الجمود المتكاثفة، وأول من صرخ فصرح بالنعي على أبناء تلك البقاع وقوفهم عند حالتهم الحاضرة. وعدم تزعزعهم عن ذلك الموقف المشين.

* * *

النفس الحضرمية

لا يحسبن قارئ عنواننا الساعة أننا سنقابله في مقامنا هذا بوجه فلسفي صفيق، يبرمه بالبحث في أسرار النفس ودقائق الفسيولوجيا. ويتيه به في فجاج من المباحث المنطقية، والغوامض الفلسفية، تنتهي به إلى أن لا يفرغ من المقالة – إن استطاع- إلا والغثيان قد جلل أحشاءه، والدوار قد ملك عليه دماغه. والبسيطة قد ضاقت عليه بما رحبت.

أجار الله قراءنا من صفاقة الأقلام، وطغيان الأفهام، ورعاف اليراعة المهوع للأكباد، والمهيج للصفراء، والباعث لذوي الأذواق السليمة على نبذ الصحيفة بعيداً إشفاقاً على الروح أن تزهق، والفؤاد أن ينفطر، والدم أن يجمد، فان للكلم روحاً كروح الأشخاص يخف طوراً على القلوب حتى يتسرب إلى الآذان بلا استئذان، ويثقل تارة حتى يهدَّ قواها بثقله، وينوء بها بكل كله، ويقع عليها كجلمود صخر حطه السيل من عل.

كلا لم تكن مقالتنا مذ اليوم إلا لتبحث فقط عن تلكم الصفات الكريمة التي تحلت بها نفس الأمة الحضرمية، والمزايا التي سرت في سجايا أفرادها سرياناً خول لها ما تمركزته بحق في مضمار الهيئة الاجتماعية. وما اقتعدته من الأسنمة الرافعة في عوامل الشئون الحيوية، وما جعل لها على قلة عددها وتأخر معلوماتها قدماً راسخاً بين الأمم العريقة في المعارف، والمتقادمة في المدنية.

من علم أنه ليس للأمة الحضرمية ببلادها حكومة منظمة، تفتح لها المدارس، وتنمي منها المدارك، وتبذر فيها بذور التمدن، وتتدرج بها في مدارج التقدم، وتهيب بها نحو الموارد الصافية، والمحال السامية. من علم هذا وأبصر ما

سنلم ببعضه مما لهذه الأمة الكريمة من الآثار المأثورة في كل قطر سكنته من مدارس مشيدة، وأعمال مجيدة، ومراكز شريفه، وعيشة راضية. يجزم حقاً بأنها أمة عصامية السؤدد، فطرية المكارم، أصيلة النشاط، حادة الذهن، لا يعتورها اليأس، ولا يتملكها الجمود، ولا يفت في عضدها عدم المعين، ولا إهمال المربي.

إن هذا لهو القول الذي لا ينبغي أن يسرع ذو نفاسة إلى تنفيده، ولا يجدر بذي لب أن يتأفف منه، إذ لا يكفي بالمشاهدة أن تكون دليلاً عاضداً وبرهاناً شاهداً، ينبئ أن النفس الحضرمية لديها موهبة طبيعية، تؤهلها لو وجدت كسائر الشعوب حكومات تربيها وإدارات تسوسها، أن تنال بين الملا عزاً شامخاً وشرفاً أثيلاً. ومقاماً تنتعل به السماكين، وتنادم به الفرقدين.

من الذي ينكر أن الأمة الحضرمية تقصر في التربية عن الأمم الشرقية، ذوات الحكومات السواهر على مصالحها، والسواعي في تقديمها، واللواتي يدربن أبناء البلاد على إدارة الشئون ومهام الأشغال، والقيام بأعباء السياسة وجلائل الأعمال، ثم هم هؤلاء أفراد من رجال بني حضرموت لا يقصرون علماً وحزماً ومجداً وهمة ونشاطاً عن غيرهم من أفراد تلكم الأمم الشرقية الذين قمطوا بقماط الاعتناء وأرضعوا أخلاف التربية.

أجل. لا يجدن علينا في نفسه من لم ير أن يتسلم ما قلناه قضية مسلمة، فإن بحضرموت اليوم من حملة الشريعة ورجال الأدب وأرباب الأقلام، ومن كبار العقول ودهاقين السياسة ومؤسسي المشاريع الخيرية ما يؤيد ما كتبناه آنفاً.

النفس الحضرمية طموحة إلى المعالي، ميالة إلى الرقي، كلفة بالشمم لو وجدت لها من حكومتها صقيلاً يشحذ غرارها، ويوري زنادها، ويجلو فيها تلك

الموهبة النفيسة التي وهبها إياها مصدر الفضل ووهاب المزايا.

النفس الحضرمية ولعمري نفس خامرتها الوداعة حتى أمضتها، وامتلكتها سلامة البال حتى أغبنتها، فأصبح الحضرمي وحسن الظن قايده، وصفاء الطوية رايده، وهو ربما أفرط فأساء إلى نفسه، ونقب عن حتفه بظلفه، وبات يتردد في ليل من الحيرة مسود الأديم، متباعد الجوانب. لا يلبث أن يتردى به في هوة تأخذ عليه حياته، وتحرم مواطنيه ما يؤملونه من نفعه لبلاده.

عدا هذا فالحضرمي امرؤ جوَّابُ آفَاقٍ، وخدين أسفار، ومقدام تتضاءل أمامه شوامخ المصاعب وعظائم المصايب، فتراه وقد مخر المحيط الهندي عابراً إلى بلاد الهند فأفريقية الجنوبية، فالجزائر الأوقيانوسية يحمل بين جنبيه قلباً أبياً وأنفاً حمياً، وهمة قعساء ترمي إلى تناول الثريا واحتلال المجرة.

يشغل الحضارمة في كل بلاد وطئوها مراكز اقتصادية لا تقل أهمية ولا تنقص قدراً عن مراكز التي يشغلها غيرهم من أبناء الأمم الراقية. إلا أنك ترى الكثيرين منهم بمقاطعة حيدر أباد في الهند وقد عدلوا عن الوجهة الاقتصادية إلى الوجهة العسكرية حيث قبضوا على ناصية الجندية بتلك البلاد. فابرزوا حينئذ للملاء برهاناً جلياً على ما كمن في النفس الحضرمية من الاقتدار الباهر في إدارة الشؤون العسكرية، والهيمنة عليها بكل تدقيق.

ألا وان الجاهل الأمي من الحضارمة ليرد إلى هذه الديار والغباوة قد قبضت عليه خناقه، وسلبت عنه حواسه، فلا يمكث إلا بضع سنوات ريثما يحتك بأبناء التجارة، ونبلاء الحضارة – حتى يصبح زميلاً من زملائهم، وقريناً من قرنائهم، يباريهم فيبذهم، ويجاريهم فيؤمهم، ويبدي لهم محاسن الآراء أفانيناً تستدر

الإعجاب، وتدهش الألباب.

بلى وإن أخمصيه لتطأ هذا اليابس لأول مرة، وما أن دار بخلده قط معنى من معاني السياسة، ولا شذرة من شؤون العالم العامة، ولكنك بعد سنوات يسيرة تراه وقد تربع قطيفته، واعتمد أريكته مرسلاً دلوه بين أدلاء الممتحين من موارد الساسة، ومهام الدول، ومفوقاسهم فكره الوقاد نحو سلاسل الحوادث، وحركات الممالك، مستنتجاً منها بين جلسائه ما يخيل إليهم أنه تربى في المشاكل الدولية، وتغذى بِلِبَان التجارب السياسية، وأشاب فوديه بين طوامير المعاهدات. وسجلات المخالفات.

ما ذاك إلا أن استعداد هذه النفس كان عظيماً جداً لقبول المعارف والتقدم في كل نافع. ولسنا مع ذلك ممن يرى أنه ليس في الحضارمة اليوم شيء كثير مما ينتقد عليهم. ويتمنى المحب الغيور زواله عنهم. بيد أن لهم من شممهم العربي وأياديهم الغراء وحسن وفادتهم لمن ينزل بهم وفتح بيوتهم لمن لا يرد إليهم لشفيعاً يدرأ منهم بعض العتب والملام.

* * *

إلى أيـــن؟!!

إلى أين أيها الوطن العزيز أنت متجه؟ وإلى أي وجهة أنت مولي؟ وإلى أي واد – عافاك الله – تذهب بك الذواهب وتطوح بك الطوائح وتستاقك الظروف وتتربص بك الحتوف وينتهي بك هذا السير الأعمى الذي تقطع به أشواط الحياة خبباً ووثباً؟! إلى أين يا حضر-موتنا المحبوبة كبى بك كوكبك المنقض على غير هدى؟ وبأي حضيض – لا قدر الله – سوف يتهشم بك طيارك الخالي عن الدفة والذي نشاهده الآن يترنح أمنامنا ترنح الثمل الذي لا يدري أين تستقر قدماه؟! إلى أين نحن سائرون؟! فإننا لا نتسأل هذا التساؤل الرهيب إلا ونحن نعلم أننا شعب مغلوب على أمره غير مختار في سيره. تائه في واد يغشوه الضباب ويسود جوه الاكفهرار. ويشتبه فيه الليل بالنهار وتتعهد به المهاوي والحفائر. وتتشعب فيه المضائق والمسالك !!! هذا هو حالنا اليوم عن مستقبل حياتنا فإلى أين نحن سائرون؟!

حالتنا الاقتصادية:

لم نكن فيما نتمتع به الآن من زخرف الدنيا إلا عالة على تلك العقول العتيقة والجهود الغابرة والعظام النخرة. رحم الله أصحابها وهي التي حملنا الغرور اليوم على وصمها بالبلادة والجمود والجهل !! ونحن نأكل من فضلاتها ونتمتع بتراثها. ولم نستطع أن نتقلد سيوفنا كما تقلدوها. ونعارك الحياة كما عاركوها. ونزاحم فوارس الاقتصاد كما زاحموها. وننشي- لأنفسنا مجداً اقتصادياً كما انشؤا. ونقيم لخلفنا أوقافا للخيرات كما قاموا. وها نحن أصبحنا نبعثر مخلفاتهم. ونبدد متروكاتهم والبطالة شعارنا. وضعف الإرادة دثارنا. فإلى أين نحن سائرون؟! لقد

أفل نجمنا الساطع بجاوا. وبعد أن كنا نحن ملوك تجارة الباتيق وأمراءه. وبعد أن كان الصينيون هم زبائننا. يأخذون منا جملة ويبعون بالتفصيل. وبعد أن كانت أبواب الكسب مفتوحة على مصراعيها للحضرمي الذي يطأ (تنجوغ فريوك) وليس لديه إلا فراشه وثيابه وصندوق الهمة العالية التي تجيش بصدره فلا تمر عليه سنة أو سنتان إلا وتراه متبوئاً كرسياً من كراسي الكسب الشريف لا يقتعد غيره إلا بعد بضع سنوات يقطعها من عمره إن ساعده الحظ !!! بعد هذا كله أصبحنا اليوم ولم يبق لنا في الدوائر التجارية ذكر ولا في محال الكسب النزيه اسم !!! والجيد الجيد من بقي يتلمظ بشيء من فضلات الماضي، وأجود منه من استطاع أن يكسر جوعته من يمونه بلقمة تسد من رمقهم وتستر من عوارهم. أما غير هؤلاء منا معشر الحضارم بجاوا فالقلم يتألم ويتأثم من بسط حالهم التي يقطع الأفئدة حسرة وأسفاً. وهانحن الآن في وطننا وفي دارنا فقل لي بالله عليك. أية دائرة تديرناها من دوائر الهيئة الاقتصادية. إننا لا نرى أمامنا إلا تلاعباً طفيفاً في التجارة والزراعة والأشغال الدنية لا يبل غلة. ولا يوصل شأوا ما. ولا يعود على الوطن وأهله بفائدة تذكر. ومن القضايا البديهية لدى رجال الاقتصاد أن البلاد الغنية هي التي تعطي الحاجيات بقدر ما تأخذ. أما البلاد الفقيرة والتي تمشي نحو الدمار فهي التي تأخذ أكثر مما تعطي. ونحن يؤلمنا كثيراً أن نرى قطرنا المحبوب لم يكن إلا من حظ هذا القسم فهو يتناول من الخارج كل ما يستهلكه ذووه من مرافق حياتهم. ثم أنه لا يعطي الخارج من منتجاته شيئاً له بال. ومعنى هذا أن نقود رجاله تذهب إلى الخارج من دون أن ينال القطر منها إلا القليل كما أنه أيضاً لا يستطيع أن يقتنص من رجال الخارج شيئاً غير النزر الحقير الذي لا يكاد يذكر !!!.

والوطني العاقل الذي ينعم النظر في ما ذكر يتملكه الأسف الوجيع من مصير بلاد هذا هو حالها لأن زحفها محسوس وسريع نحو الهوة العميقة التي أعدتها لها الأقدار القاسية إذا لم يتح لها ما يصرفها عن هذا الزحف المخيف وليست النقود التي يجلبها ذوو الثروة من المهجر بالتي تجر للبلاد مغنماً ما لم تصرف فيها. أما وهي لا تذهب إلا في منتجات من الخارج فهي إنما تعود أدراجها من حيث أتت !! ولا أخالك تحسب أيها القارئ اللبيب أن ما ينفقه المثرون في تشيد المباني ونحوها مما يوهمك تسرب النقود فيه إلى يد وطنية لا أخالك تحسب أن ذلك يفيد البلاد ويزيد في ثروتها. معاذ الله لأن تلك الأيدي الوطنية لا تثبت أن تقتني بتلك النقود ضروريات المعيشة وكمالياتها وكل ذلك أجنبي يهوي بالنقد إلى الخارج فلا تمتص البلاد منها شيئاً.

حالتنا الاجتماعية والأخلاقية:

ولا نعلم في الاجتماعيات إلى أين ينتهي بنا الموقف؟ وأين هو الحضيض الذي ستصل إليه الأخلاق في تدهورها المستمر؟!! وإنه ليصعب على الكاتب مهما حدد يراعته أن يقيم الشواهد العامة إجمالاً في مقال كهذا على تحول الاجتماعيات في عصرنا هذا بحضر-موت عن مجراها الطبيعي. وعلى فساد الأخلاقيات وشذوذها عن المألوف من المناهج. لأن الهيئة الاجتماعية بهذه الأطراف متباينة المسالك مختلفة الألوان بعيدة التشابه. فالتقاليد العلوية ليست هي التقليد العشائرية. وهاتان ليستا هما التقاليد التي يتوارثها عامة السكان. ولكل وجهة هو موليها. وأنت إذا نظرت إلى القوم وقد نفض كثير منهم كفيه عن مكارم آبائه. وسمات قومياته. وأخذ الطائشون منهم يمرحون منطلقين حيث

شاءت لهم أهواؤهم ورغباتهم من دون أن يتقيدوا بوازع عرفي. أو مانع إصلاحي. أو أدب قومي. فأصبحت الفوضى ضاربة أطنابها على الآداب والأخلاق. وأصبح الغرور فوق ذلك آخذاً بالنواصي متغلباً على الأدمغة والأعصاب فتجد كل واحد منهم متشبعاً بالأنانية إلى حد بعيد ضرير القلب من كل ما في ذاته من النقايص والمعايب. ثاقب البصيرة تجاه مثالب الأشخاص الآخرين. قوي العارضة في الاختلاق والبهتان.

إن يسمعوا الخير يخفوه وإن سمعوا
شراً أذاعوا وإن لم يسمعوا كذبوا

لو أن المدنية الغريبة هي التي بددت الأخلاق وأفسدت الآداب لقلنا سيل جارف وطوفان عام لم تسلم منه أمم الشرق جمعاً. وإن لهذه المدنية لمحاسن وبين أشواكها الأثمار فهم يقتبسون من محاسنها ما يذهب بسيئاتها ويقطفون من ثمارها ما يتغلب على أشواكها ولكن العجب كل العجب أن منهم من يفضل العودة إلى عهود الهمجية وتقاليد لطبقات الوحشية ويخلق بذلك دعاية غريبة تنتحي القهقرى وتدب إلى الورى. وتذهب مذهب الجعلان الذي يهدهده أل..... (أجلك الله) عن ذكره ولله في خلقه شؤون.

الحالة السياسية:

تدخلت حكومة عدن في داخلية حضرموت أواخر سنة ١٣٥٥هـ من جراء قضية القبطان... ثم عقدت صلحاً عاماً بين العشائر وأعلنت تأمين السبل وأخذت تهدد وتتوعد. وتقتص وتؤدب بحجة أنها إنما تفعل ذلك صيانة الأمن بطلب من حكومتي القطر.

وتعلن أنها ليس لها في البلاد أقل مطمع وإنما هي تتصرف هذه التصرفات لمجرد مساعدة السلاطين على استتباب الأمن فحسب ثم قاولت شركة بيس لحمل البوستة الجوية من عدن إلى حضرموت وارتضت إقامة مستشار لها مقيم بالمكلا وسيؤن وشملت العسكر النظامي بسيؤن والمكلا برعايتها ومهدت لها مطارات شتى في داخل القطر. وفعلت وفعلت وستفعل وتفعل والناس شاخصون بأبصارهم يتساءلون إلى أين؟!!!.

❊ ❊ ❊

سوانح

تحت هذا العنوان نواصل الكتابة إن شاء الله في هذه المجلة بما نراه لا يخلو عن فكاهة وفائدة. وإننا لا نرغب في التضييق على قلمنا بتصويبه نحو متجه واحد وإنما هي سوانح تسنح له إن شاء يستمطرها تفكيراً أو يلتقطها تعريباً بمناسبة وبغير مناسبة.

مصادر علم التاريخ:

والتاريخ هو: قصة حياة الشعوب. وهو الذي يحوم بغواته حول وقائع الحرب والسلم ويدلهم على مجاري الأحوال إبان الهدوء والسكون، ويلقح الأفهام بما أنتجته عقول ذوي القانون من الشرائع الوضعية، وينبه أربابه على تطورات الأمم في الفقر والغنى والانحطاط والرقي.

أما وقد أجمعت مدارس العالم المتمدن على ضرورية تعليم التاريخ بها، فإن النقطة المقصودة بهذا المقال هي نتيجة المحاورة الآتية مع التلميذ حين يسأل:

- كيف تعلمت التاريخ؟ فالجواب المنتظر هو:
- إن الأستاذ علمنيه!

ولكننا نواصل السؤال:

- وأين تعلم أستاذك ذلك التاريخ الذي علمك؟

ولعله يظهر لتلميذنا النجيب سخافة هذه الأسئلة فيجيب:

- إن أستاذي تلقى هذا من المعلمين ومن كتب التاريخ!

ولكن هذا الجواب أيضاً غير مقنع فنضطر إلى الزيادة من هذه الأسئلة

السخيفة.

- ومن أين تلقى مصنفوا تلك الكتب حقائق التاريخ؟
- لقد تلقوه من أفواه العلماء وبطون كتب أخرى!

جواب مفيد ولكنه يحتاج إلى سؤال رابع.

- ومن أين تعلم كتّاب التاريخ الأولون فنهم لأول مرة؟
- ..... سكوت!

إن أسفار التاريخ تحتوي على كميات من الحقائق! إذاً فنعلم أن المصدر الأول للتاريخ لم يكن أسفاراً وإنما هو رقاع ومكاتيب شتى يكتبها الناس في شؤونهم الخاصة ويذكرون فيها عرضاً حوادث جزئية تخصهم أنفسهم في الوسط المحيط بهم فقد يكتب بعضهم مثلاً لصديقه أنه قد حضر بالأمس حفلة تتويج فخمة للملك الجديد ثم يذكر لصديقه بعض ما صار في تلك الحفلة ومن حضرها وإن أمثال هذه الرقاع والمكاتيب قد يعثر عليها رجال التاريخ بعد مئات السنين فيستقون منها ما يعززون به فنهم فهذا مصدر من مصادر التاريخ.

وهناك سجلات المحاكم وما يتقدمها من تقارير ومحاضر إلى أن ينتهي بصدور حكم المحاكم وما يتبعه من سجن المتهم مثلاً أو إطلاقه فهذه السجلات تحفظ لدى المحاكم القانونية وتصان بكل دقة فيأتي رجال التاريخ فيكرعون بعد مئات السنين منها ما يبرد غلتهم وهذا مصدر ثان ذو بال.

ولم يكن في الأزمنة القديمة قرطاس فكان أرباب تلك العصور يسجلون حقائقهم على الصخور الضخمة أو على جدران البيوت وأسسها لتذكر بعد قرون عظمتهم وروعتهم. ذلك هو تاريخ ملوكهم وما يتصل بهم أما تاريخ مثلي

ومثلك أيها القارئ العزيز من عموم الناس في ذلك العصر- البعيد الذي أخنت عليه ألوف السنين وطوال الآباد فإنه ليس مما يسطر على الصخور إذ لم يكن فيه لديهم من الخطورة ما يستحق التخليد كحياة ملوكهم الذين يرفعونهم إلى مقام الإلوهية ولكن التاريخ لا يفرق بين هؤلاء وغيرهم. بل إن التاريخ عموم الناس يعتبر لدى رجال الفن أهم من تاريخ الملوك لأنه هو تاريخ العصر نفسه ولأنه هو الذي يعطيك صورة واقعية له.

أجل إن تاريخ الشعوب وبلدانها يوجد مطموراً تحت الأتربة والبقاع التي نمشي عليها أوليس أن كل شخص كان يعيش في مكان يندر أن لا يترك له أثراً هناك. فهو قد نبذ أشياء بقصد وبلا قصد فتبقى تلك الأشياء منبوذة في مكان حتى تطمرها الأتربة وتتراكم عليها الأطيان.

قد يسكن المرء داراً ثم تؤول تلك الدار إلى الخراب بعد حين إما بهدم أو خراب أو زلزال فيبني على أنقاضها داراً أخرى ثم تخرب أيضاً وتشاد على بقاياها دار ثالثة وبعد خرابها تقام رابعة وكل من هذه الأطلال يترك ساكنوها بها آثاراً.

ويأتي رجال التاريخ فينقبون في الأرض ليستخرجوا تاريخ البلاد وساكنيها ويبحثون تحت الأنقاض فلا يلبثون أن يتحصلوا على أشياء يستفيدون منها فيشتد نهمهم في البحث والحفر فيصلوا إلى الأنقاض الثالثة ثم إلى الثانية ثم إلى الأولى وفي كل منها يكتشفون معلومات قيمة تزيد في حرصهم وجهادهم وربما عثروا على نقوداً وكتابات في أحجار تدلهم على شيء مما يرمون إليه فهم كلما هبطوا في أعماق الأرض كلما صعد بهم التاريخ إلى معارج القدم كما أن المواعين التي يعثر عليها في الأسفل تكون -غالباً- أقرب إلى البساطة والسذاجة مما هو

فوقها.

ولما لأن كان غالب الشعوب يعتقد بحياة الروح بعد الموت وقد يحسب البعض أنها تواصل حياتها في الدار الآخرة بما هو أشبه بحياتها هنا. وأن الميت يحتاج في البرزخ إلى ما يحتاج إليه في هذه الحياة جعل هؤلاء يضعون في ضرائح أمرائهم كثيراً من المرافق الحيوية كالحلي والمجوهرات والملابس والأثاث وغير ذلك لينتفع بها ميتهم عند الحاجة وقد يوضع هؤلاء حواليه منازل صغيرة وعلى أبوابها صوراً صغيرة من الحجر لخدم وكألعاب الأطفال.

وبعد مرور القرون الطويلة يأتي رجال التاريخ فيكتشفون هذه الآثار التي توضح لهم كيف كانت الحياة قبل آلاف السنين بتلك البقاع، توضح لهم كيف كانت بناياتهم وفن العمارة عندهم، وكيف كانت ملابس الخدم وأدواتهم المنزلية التي تدل على عاداتهم ومبلغهم من الرقي فهذه هي أجل المصادر الأولية للتاريخ.

* * *

حالة المسلمين في جاوا والإصلاح

لا جرم أن من إخواننا الفضلاء قراء (المنار) من يحب أن يطلع على حالتنا الحاضرة بجاوا؛ لأن وشيجة الرحم الدينية بل والطينية لما تنفصل بعد بيننا وبينهم، وطالما وددت أن أزيح الغشاء عن حالتنا الحاضرة، حتى أصورها للقراء كما هي؛ لولا أن العي والحصر قد ختما على فمي، وكدما رأس قلمي، فلا أستطيع أن أبدي من الأمر إلا قليلاً.

نعم.. وقد يعتورني بعض الخواطر فأقول: ما لي ولعصر يافوخي في تدوين حالة تتعثر الأقلام خجلاً من تسطيرها، ويتلعثم اللسان تنزهًا عن شرحها، على أن شأننا لا يخفى على من له أدنى اطلاع على شؤون الأمم، وجمودنا العريق لا ينكره من له أقل نظرة في سطح معترك الطوائف الحيوي.

ما كان في المخدع من أمرنا فإنه في المسجد الجامع

ومع هذا أجدني مرغمًا على القول بأن حالتنا سيئة، وأراني مضطرًّا إلى شرحها والشكوى منها؛ بحكم العوامل التي تدفع المريض إلى الأنين والتأوه وشرح مرضه إلى كل من يراه.

ولكن منا فئام هداهم الله، يُحفظهم التنديد بحالتهم المحزنة، ويغيظهم نصح الناصحين، وإصلاح المصلحين، وعليه فقد أصبحنا جامدين مغرورين (حشفًا وسوء كيلة).

بماذا أبتدي وعلام أنتهي؟ يقف بعض الجامدين هنا باهتاً مندهشًا أمام تلك الكلمات؛ التي ملستها أقلام الكتّاب من كل أمة على صفحات الجرائد

والمجلات، وصقلتها ألسن الخطباء على ذرى المنابر والمنصات، حتى أصبحت والحمد لله فيهم سلوة كل كئيب، وعكازة كل خطيب.

هي تلك الكلمات التي يتبجح بها المتبجحون من الأمم الراقية بقولهم:

(عصر العلم، عصر التقدم)... إلخ، فترى الجامدين منا يحسبونها من قبيل الأماني والأحلام، حتى يدفعهم حسبانهم واندهاشهم الناشئين عن جمودهم وجهلهم إلى تفنيد أولئك المتبجحين وتزييف أقوالهم، ويا ليتهم قاسوا ما جهلوه وما استمحلته عقولهم من وجود معان لتلك الألفاظ، بما يشاهدونه ولا يشكون فيه مما اكتشفه العلم الحديث من العجائب التي لم يحلموا بها؛ لا هم ولا قومهم المحرومون من أسرار الطبيعة والمنبوذون من علوم الكون.

إن تقدم رجال الغرب وعلومهم ومدنيتهم أعظم مما تتوهم، وأضعاف ما قد نعلم، وإننا لم نر إلا النزر اليسير من بخار تلك المدنية العظيمة التي لا تحتمل تصديق مثلها عقولنا الضعيفة، ولو أمعن المنصف منا بصره وأعمل فكره في هذا التقدم المادي والأدبي الذي أحرزته الأمم الغربية ومن ضارعها، ثم كر بصره في حالتنا الحاضرة؛ لجزم جزمًا صارمًا بأنه مع صرف النظر عن كلمة الشهادتين التي فضلناهم بها، لم تكن نسبة حالنا إلى تقدمهم إلا كنسبة حال متوحشي نيام إلى تمدننا، وعلى هذا فلا نجد مسوغًا للوهم إذا هم عاملون بمثل ما نعامل به من هم أحط أخلاقاً من الإهانة والاحتقار.

مهلاً مهلاً أيها القارئ، ولا تعجل بالوثوب حفظك الله إلى تفنيدي وتكذيبي؛ فإن الشواهد حاضرة، والأدلة قائمة، ولئن آلمك قولي ففي ما نحن عليه معاشر الحضارمة من التأخر والانحطاط ما هو أجدر بالتألم وأحرى

بالتأسف، وإن منا والله أقوام لا يضيرهم الهون، ولا تستفزهم الحمية ولا يؤلمهم القول.

مـن يهـن يسـهل الهـوان عليـه ... مـا لجـرح لميـت إيـلامُ

إن لبني الغرب في هذا العصر علمًا جمًّا، وفكرًا دقيقًا، وإدراكًا عاليًا، وهمة جزلة، وأموالاً طائلة، وممالك فسيحة، ومستعمرات ذهبية، وإن لهم من نفع الإنسانية بل والبهيمية ما لا يستطيع هذا القلم الضئيل وصفه، ولا تدرك معلوماتنا كنهه.

ليس هذا هو موضوع القلم اليوم، ولكني وددت لو أمثل للمغرورين من قومنا بعض حال رجال أوربا؛ فيقابلوا بينها وبين حالنا التي نظل شامخين بأنوفنا تيهًا بها وغرورًا على أنفسنا وزورًا ! ! !.

من أية وجهة أشرفت علينا معشر الحضارم لا تشاهد إلا منظرًا يصهر الفؤاد ويذرف العيون، ويفتت الأكباد، ويرقق قلب الشامت.

أمـور يضـحك السـفهاء منهـا ... ويبكـي مـن مغبتهـا الحليـمُ

أجل والله، من أية وجهة ألقيت بصرك على مجموع العرب هنا، تجدهم قد أجادوا في تمثيل أدوار الهمجية الغابرة، والجهالة الفاضحة، وأحسنوا الارتطام في حمأة التوحش، وأطربوا الشامتين بغطيطهم الناشئ عن سباتهم العميق بل موتهم الفظيع، وإنه وأيم الحق لينبغي لإخواننا المصريين والسوريين والحجازيين والمراكشيين وكل من الطوائف العربية؛ أن يبعث بعضهم لبعض مسنون التعزية في إخوانهم الحضارم الذين ذهبوا ضحية الجهل، وفريسة الغرور، وماتوا مجاهدين في سبيل الدينار والدرهم.

أخذ الجمود من كبرائنا مأخذه، وتمكن في نفوسهم اعتقاد أن كل جديد ضار، وأن العكوف على العادات القديمة أنفع ما كان وما يكون، وأن ما سبقتنا إليه رجال أوربا من الخير لا يجوز لنا فعله شرعًا. رسخ هذا الاعتقاد في قلوبهم، وامتزج بعقولهم وأرواحهم، حتى صدهم عن استماع الدين، وسدوا فجاج الإصلاح، ودفعوا في صدر الأمة، حتى قهقروها عن التقدم، زاعمين أن التحسين والتنظيم وتسهيل وسائل التعليم مخل بالنسب الكريم أو الدين القويم، ومعاذ الله أن يكونوا في هذا من الصادقين، فإن الفتن في الإصلاح شيء، والدين والأنساب شيئان آخران.

بلغ من تعصب كبرائنا أن حظروا جعل المدارس على الطريقة الحديثة من إقامة طاولات ومكتبات قدام التلاميذ، توضع عليها أدواتهم، وسرر يجلسون عليها ولوح خشبي توضح فيه مشكلات المسائل، وعدوا ذلك من المنكرات، والواجب تغييرها باليد لمن قدر عليهم؛ لأن في هذا كما لا يخفى تشبهًا بالكفار ومجاراة لأصحاب النار، بل الواجب علينا أن نقشف مداركنا ونهين تلاميذنا؛ فنجلسهم على قاعة المدرسة مباشرة أو بواسطة حصير في هذه البلاد الندية، حتى يصابوا بمرض البيري بيري المخوف فيموتوا قريبًا، وننفض أيدينا منهم نفض الأنامل من تراب الميت، وحينئذ نستريح من انتظار نفعهم في المستقبل.

كنا لما أن رأينا العجمة الجاوية تمكنت جيدًا في أولاد العرب هنا، حتى إن بعضهم لا يفهم لفظ الأعداد البسيطة بالعربية، ورأينا الأوربيين يدأبون في نشر لغتهم وعقائدهم الدينية بين أولاد الجاويين، ويحاولون ردهم عن دينهم الإسلامي الذي ما بقوا متمسكين إلا باسمه، ورأينا إخواننا العرب جامدين

سامدين لا يتألمون ولا يتكلمون، لما رأينا كل ذلك نهضنا على ما بنا بمساعدة بعض الإخوان، وفتحنا مدرسة لتعليم اللغة إجمالاً: فأولاً يدرس فيها إتقان الألفاظ وتركيبها ثم النحو والصرف وغيرها من الفنون العربية، ويدرس أيضًا فيها الجغرافية والتاريخ الإسلامي والعقائد الإسلامية وطرفًا من اللغة الإنجليزية.

وقد باشرت التعليم العربي بنفسي، فجعلت تعليمهم اللغة على أحسن الطرائق الناجعة الرائجة في هذا العصر؛ وهي طريقة برليتز الأمريكاني التي هي عبارة عن نظر في المحسوسات والمشاهدات، وعلم في العمليات، (انظر المنار م٨ ج٢٢ص٨٧) وهي أشبه شيء بطريقة تعلم الطفل لغة أبيه وأمه؛ إذ يدرس التلميذ الأفعال بالأعمال كأن يحمل الكتاب ويفتحه، ثم يطبقه ويقوم ويذهب إلى اللوح الأسود ويمسك الطباشير بيده ثم يكتب، وتعرض على سمعه مشاهد الحياة اليومية، فيسهل عليه تأليف جمل صغيرة، يتزايد كل يوم عددها بسرعة عجيبة. وهذه الطريقة هي بدون شك أحسن طريقة لتعليم اللغات، فقد جربناها فوجدناها نافقة نافعة، كما شاهدنا تأثيرها فينا حينما تعلمنا اللغة الإنكليزية عليها، وكما يشهد المنصفون تأثيرها أيضًا في تلاميذنا الذين يطلبون العربية عندنا على خطتها، بل قد جربت هذه الطريقة في أجمل عواصم أوربا، وما برحت مدارسها تتكاثر بتلك الأصقاع حتى صارت اليوم تعد بالمئات، وكلها أسفرت عن نجاح أكيد، وارتقاء عظيم، واقتصاد في الوقت والمال (انظر المنار) وأما الذي تولى تعليم القسم الإنجليزي فهو شاب من خيرة الناشئة العربية هنا؛ وهو حضرة الأستاذ عبد الرحمن القدسي المتخرج من مدرسة المعلمين بسنغافورة والحامل للشهادة.

ولكن مع كل هذا نرى الجامدين والمتعصين من قومنا العرب؛ لم يرضهم فعلنا، بل قاموا يشتموننا ويقدحون في أعراضنا، ويصادرون نهضتنا، وينفرون الناس عن مدرستنا، في وقت نحن أحوج الناس فيه إلى مساعدتهم.

حقًّا أقول: إن للمنار هنا اليد الطولى في الإصلاح وترقية العقول، وإحداث هذه الحركة الفكرية في أدمغة الشبان، فقد أثر معها أيما تأثير ما غذاها به من لبان الغيرة، وأنشقها إياه من نسيم النهضة، وقذفه إليها من المعارف، فالمنار اليوم هو أنشودة النابتة هنا ومورد أنظارهم؛ اعتمادًا على ما يرونه غير مرة على صفحاته من ضروب الذكر للحضارم بجاوا، فتارة نصحيًا، ومرة موبخًا، وأخرى مثنيًا، وطورًا باحثاً عن أحوالهم، متفقدًا لأمورهم، وكل هذا مالا تفعله معهم أية جريدة أخرى، فالنابتة بهذا لا تعد المنار إلا أكبر أستاذ وأشفق والد.

نعم.. ظهرت أيضًا شبه حركة عربية بسنغافورة محصورة في بعض الأفراد، فأنشأت منذ زمن غير بعيد جريدتين أو ثلاث، ولكنها والحق يقال: إنما هي حركة عدائية، قام بها عباد الأهواء والأغراض بعضهم ضد بعض، فيا ليت تلك الجرائد التي نحن أحوج الناس إلى إرشاداتها العمومية، واستنهاض الهمم إلى المعالي، والقيام بالمشروعات المفيدة، عدلت خطتها ورجعت عن غيها إلى ما يعود بالخير الجزيل على الحضارم وغيرهم.

ولكن من يسمع ما نقول وأنت ترى أولئك سادتنا وقادتنا: إما ساكتين أو عاملين مثل تلك الأعمال، ولا شك أن سمعة العنصر العربي هنا ستكون سيئة جدًا حينما يطلع الملايو وغيرهم على جرائدنا وما ينشر فيها، وعوائدنا وما ينجم عنها فرحماك اللهم رحماك، اللهم لا تشمت بنا عدوًّا ولا تسئ بنا صديقًا، وأنزل

صاعقة من صواعق نقمتك على من قام عثرة في سبيل تقدم هذه الفئة المنكودة الحظ. آمين آمين.

* * *

رأي العقلاء الحضارمة في
الرابطة العلوية

اليوم أيها الكرام –وقد جعلت مقالي حول الرابطة – أنبذ ظهرياً تكلم اليراعة الخلابة التي طالما امتلكت الباب القراء بوشيها الذهبي، وأسلوبها الأدبي، وطالما ركبت بهم متن سابحة من بنات الخيال تحلق في عوالمه، وتحلي أجياد أفكارهم بعقود زاهية تلتقطها لهم من كثبان السهى وقيعان الشعرى.

اليوم فقط أيها السادة – ألقي إليكم الريشة مكبرة في درج الأقلام، وأتناول من بينها قلماً ساذجاً يواجه الفكر ببديهياته، ويتسرب إلى القلب من كل جهاته، ويعمد إلى الحقائق فيقدمها كما هي ناصعة البنية، عديمة الحلية، لا يكسوها من زخارف الخيال، ولا يمدها بكحل الألحاظ، ولا يزفها إلى طلابها إلا بدوية المذهب صافية المشرب، فـ:

ما أوجه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

لا جرم أن من تكتنفه شعاب حضر موت الجرداء، ويغمره هواها الناشف، وتغلي أشعة قيضها اللافحة دماغه من دون أن تترس بسحاب، أو تستجن بحجاب –لخليق بأن يقدم بنيات فكره وسوانح ذهنه بمجرد ما تمليه عليه طبيعة البلاد من البساطة والصراحة، والخشونة والحرارة، خلال لا تروق لباغ، ولا تهضمها معدة من بطر الحق وصدف عن الصدق، فهو يتألم لسماعه، ويتأوه من أوجاعه، إن سكت سكت ناقماً، وإن ردَّ ردَّ شاتماً.

وقد وافتنا بشائر الرابطة العلوية فخفقت لها القلوب وقرَّت بها العيون

ورحبت لها الصدور، وما من عقلائنا إلا من يرى بأن أوانها قد آن منذ زمن، وثمارها قد أينعت قبل سنوات، وأنه لم يبق في التريث عن تأسيسها موقف، ولا في القوس عن إهمالها منزع، فقد طالما استشرى الداء، وعظمت الفوضى، ونمت البغضاء، وثلب العرض، وديس الحمى وغمزت القناة، والعلوي وإن فطر على التمادي في الحلم، والتغاضي عن السفاه، والعزيمة في الأناة، والوقوف موقف الاطواد الشم، والدراري الزهر، تجاه محاسن آباء شوهت، ومكارم أسلاف جحدت، وأعراض شيوخ قطعوا الليالي قياماً، والأيام صياماً، والبلاد إصلاحاً، والعمر فلاحاً، مضغتها أشداق طالما أمدتها أجواف سوء لا يتصاعد عنها إلا النتن، وأدمغة ضر لا يتنازل منها غير الفتن – فهو لا يزال مع هذا كله بناء فضائل، وسباق مكرمات، وعود لا يزداد بالإحراق إلا طيباً، ولا بالبلاء إلا نبلاً.

والرابطة الفتية قد قوبلت لدينا بالاغتباط لا لأنها ستجمع قلوباً للعلويين مشتتة، أو تصل عرى لهم منفصمة، أو تستعيد فضائل لهم مسلوبة، أو تشد قوى لهم واهية، كلا فإن قلوبهم وعراهم، وفضائلهم وقواهم، أمنع من أن تأكلها الآباد، أو يحزمها الحساد، أو يسلبها الأضداد، أو يوهنها الكياد، ولكن الرابطة هي الإصلاح المجسم، والكوكب المتألق، والعلم الخفاق، والمسدة العامة التي يستوثق لنفسه من أمها، ويتزلف إلى نبيه من ولجها، ويحتاط لدينه من لاذ بلوائها، واستجار بفنائها.

استبطأ قيام الرابطة هنا رجال من بعيدي الغور في الرأي، وراسخي القدم في التجربة، فقالوا: إن المعنويات كثيراً ما تقاس بالمحسوسات، والحرارة تمدد الأجسام، والحياة منشأة الحركة، والجواد إذا همز وثب، وإذا أعدي عدا، والمسك

مهما أجيد ختمه، وأريد كتمه، انبعث عطره، وانتشر نشره، والسادة العلوية شعب جم المكارم، غزير الخيرات، عريق في الشرف، غرة في التاريخ، لا ينتهك له حرم، ولا يرغم له أنف، ولا يقعقع له بشن، تحكك به أفراد حاولوا نطح شعابه، ونزح عبابه، وإخفاء شمسه، وغمط مآثره في يومه وأمسه.

فهلا تتمخض إذاً هذه المماحكة الباردة والمحاولة الكاسدة، بنتيجة ليست هي سوى استبسال السادة في الدفاع، وأخذهم بالحيطة، وتشبهم بالحزم وانتدابهم لتأسيس رابطة تربط بين متنائيهم، وتفرز محبيهم من شانئيهم، وتبرز ما لأسلافهم من أياد طوقوا بها الإنسانية، وخدم جلائل أتحفوا بها البلاد، وهمم قعساء وطئت ذرى الأفلاك، وشرف أثيل ينتهي بهم إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى.

هكذا يقول جماعة من عقلاء حضرموت ومفكريها قبل ورود الأخبار بنهضة الرابطة وتأسيسها، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر تلك النتيجة اللازمة لطبيعة الحال، ويؤكدون إطلال زمن هذه القومة المباركة لجلاء الحقائق للأبصار، ودفاع الأحرار عن الذمار، وانتصار الأحفاد للأجداد، وكشف الأغطية عن قلوب أعشتها الشبه. وأمنتها الجهالة، وذهبت بها شياطين الضلال إلى أقصى شأو في الغي، وأبعد مدى في الغفلة.

شافهني السلطان المؤيد صالح بن غالب قبيل ظهور الرابطة بشهور متسائلاً عما لو تصدى العلويون لإقامة وحدة لهم تعلي من شؤونهم، وتذود عن حياضهم، وتنظر فيما لعله يحتاج إلى نظر ويفتقر إلى تكميل. ولم يقل السلطان أيده الله ذلك إلا لخارق ذكائه، وبعد نظره، وغزير خبرته، ودرايته بسنن الطبيعة، ومجاري الأحوال، فهو يقول عن علم، ويبرز عن فهم، ويفقه ارتباط المسببات

بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، فكأنه يبصر مكامن الحدثان، ويشيم مواقع الأقدار.

ثم ما بال أقوام آخرين، ينظرون إلى الرابطة العلوية نظراً لا يصحبه اطمئنان ولا يشوبه روق، وليسوا لعمري بمصيبين في هذا الحذر ولا صادقين في هذا النظر، فإن الرابطة لم تكن وحياة الحق إلا داعية السلام، وبشيرة الوئام، وموئل يئل إليه بنوا الاحقاف عندما تقدح الشدائد زنادها، وتوقد الفتن نيرانها، ووسيلة كبرى يمت بها إلى توطيد كيان الشعب الحضرمي من ابتغاها، فهي المورد الصافي لعموم الواردين من الحضارمة، والمهيع الأسمى لمنتهجيهم، فليفرغ روع من ارتعدت فريصته فرقاً، وطارت نفسه شعاعاً. من أم حنونة لا تقصد إلا خير الشعب، ولا تطمح إلا إلى إسعاده، ولا تسعى إلا في إسعافه، ولا تخب إلا في علاج تلك الأدواء التي فرقت الأمة شيعاً، ومزقتها الأيدي سباً، وتزحلفت بالحضرمي إلى درك يسترجع منه رجال الحلم، ويحار فيه أرباب الرشد، ويصفق له أنصار الشقاق.

من ذا الذي ينكر تضعضع المركز العربي بجاوا في السنوات الأواخر، ومن ذا الذي يجحد تلاشي تلك السيادة الأدبية التي كان العرب يتمتعون بها قبل ربع قرن؟ ومن ذا الذي يكابر في أن الانشقاق الواقع بينهم قد حط من اعتبارهم، وزاد في صغارهم، وقضى على فخارهم، وأبان عن عوارهم، وتركهم بين الأمم سخرة للساخرين، وهزأة للمستهزئين.

عجباً لمدارك أناس لا تتعدى موقع القدم، ولا تتبين مواضع الخطر، ولا تميز بين ما ينفع ويضر، ويسئ ويسر. فهي خليقة بأن تغلط الحقائق، وتتهم التجارب، وتناوىء سنة الله المقتضية من التنازع فشلاً؛ ومن التفرق انحلالاً؛

يذهبان ريح القوة، ويدكدكان صروح العزة.

ثم عجباً ألف مرة من تلكم المدارك العشواء، تناقض المحسوس وتستطرد المعكوس، وترى أن الضعف قوة، والذلة منعة، والانحطاط رفعة وأن ما مني به الحضارم المساكين بجاوا من تداع بالمركز، وهبوط في القدر، ومصاب في الوحدة، ونظر من الأجانب إليهم يضحك السفيه ويبكي الحليم – ذلك هو الشرف المنشود، واليُمن والسعود، والمقام المحمود، والغاية التي ليس بعدها لمرتق غاية، والنهاية التي ما وراءها لمتقدم نهاية، وترى ضحك الأجانب على ذقون الحضارمة إعجاباً !، وازدراءهم إياهم إكباراً، وتنديدهم بهم في الأندية والجرائد إنما مذمة يراد بها المدح، وأحدوثة حسنة تتناقلها عنهم ألسنتهم وأقلامهم، فاسترسلت الطباع اللئيمة في غلوائها، وتوغلت في غرورها، واستلذ محبوا الشقاق هذا المرعى الوخيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إليك أيتها الرابطة يساق الحديث، فأنت محط الآمال الصائبة، وموضع ثقة العقلاء، وأنت التي ندبت نفسك لإصلاح ما أفسده الزمان من بني شعبك، وعلاج ما اعتورهم من الأدواء الاجتماعية، والأمراض الأدبية.

فهبي أبقاك الله إلى ما تصديت له، وارفعي عقيرتك إلى ما رميت إليه، وأعرضي صفحاً عن نوابح القمر فإن هريرها أحقر من أن يهدم باطلاً أو يضير عاملاً وفقك الله لما فيه هناء الشعب وسعادته.

* * *

ماذا يكون الحال لو صح سفر السيد أبي بكر إلى أوربا (انظروا التاريخ)

انتشر منذ بضعة شهور بحضرموت وما جاورها خبر عزم المصلح السيد أبي بكر بن شيخ الكاف (سي. بي. إي) إلى أوربا لتمضية برهة من الزمن هناك. ولم يسكت المهتمون بمصلحة حضرموت حينذاك عن الأخذ والرد والتصويب والتفنيد والمجاهرة بآرائهم حيال هذا العزم الذي إذا صح سيكون له أثره القوي – ولا ريب – في تحويل مجاري اتجاهات حضرموت نحو الإصلاح.

يعتقد جماعة من أقطاب الأعمال الإصلاحية بحضرموت وفي مقدمتهم المستر انجرامس المستشار المقيم، أن القطر الحضرمي سيتحصل على فوائد عمرانية ومطالب إصلاحية لم يكن لينالها إذا لم يصل المصلح المشار إليه إلى انجلترا ويتصل بالدوائر السياسية والشخصيات الكبيرة البارزة بها. وعلى هذا الاعتقاد ترى هذه الجماعة وتحرص جد الحرص على سفر السيد أبي بكر وتحاول أن تقنع الجمهور بما يبرز لها في هذا الموقف الشاذ بينهم.

ولكن الجماهير ولاسيما ذوي الرأي الحصيف والخبرة التامة منهم، وفي مقدمتهم السلطان علي بن منصور لم يكونوا إلا على جانب متين من المعارضة القوية لهذا العزم الذي يعتبرونه أكبر معول مجهز لهدم صروح الإصلاحات الابتدائية التي لم تزل قوائمها مهددة بالتداعي والتدهور.

وعندما بلغ هذا العزم إلى مسامع الشعب أرغى وأزبد وقام وقعد وقوم العرائض ونصب الحواجز وقدم الاحتجاجات إلى السيد أبي بكر نفسه والى ذوي الحل والعقد ولم يترك وسيلة يستطيع التوصل بها إلى عرقلة هذا السفر إلا

واتخذها. حتى حقق النجاح وأدرك النصر. وعاد من جهاده آمناً قرير العين باستقرار المصلح المحبوب في موطنه العزيز.

والآن وقد مرت بضعة شهور من تلك العاصفة العصيبة ومضت على القطر منها مدة تقدمت فيها خطوات صالحة إلى الأمام فقد انكشف اليوم لنظر الباحث ما كان محجوباً بأفق هذه المدة القليلة وبان له أن ما اعتقده الجمهور إذ ذاك وصمم عليه هو حقيقة خالصة لو دحضت وديست لكانت حضرموت اليوم تعاني من رد الفعل وانتكاس الأمور ما لا يستطيع الخيال تصوره.

إننا إن كتبنا عن السيد أبي بكر شيئاً فإنما نكتب عن شخصية واضحة تمام الوضوح لدى الشعب الحضرمي، لا يتسنى للكاتب أن ينسب إليها ما ليس فيها، ولا أن يسهل عليه يجد للمبالغة في وصفها موضعاً يخفى على قرائه، ولهذا فإن من الغلو والجزاف فيما يكتبه عنه مأمون المنهج ما دام الحكم للرأي العام في التصديق والتكذيب (لقد انتشر).

لا نعلم في التاريخ الحضرمي لا القديم ولا الحديث رجلاً أحرز من ثقة الشعب كله فيه، ومحبته إياه، وتعلقه به، ما أحرزه مصلحنا في هذا العصر. من تعلق الشعب الحضرمي ومحبته له وثقته فيه. فإن أعوص المشكلات المعضلة التي تتنازعها الأهواء، وتتصادم فيها الأغراض، ويشعل أوارها أبطال النفوس الجبارة، ورجال الإرادات الحديدية، وتحيط بها قضبان شائكة من الدسائس الخفية، والمكائد المحرضة، يسهل على مصلح حضرموت أن يتوجه إليها بهمته السامية ونيته الصالحة وأخلاقه الواسعة وثقة مواطنيه فيه فيحلها حلاً مرضياً يتناوله أرباب المشكلة بكل فرح وسرور.

وبهذا وضح للعيان أنه لا يمكن قط لحضرموت أن يبقى لها إصلاحها - هذا لو أتيح للسيد أبي بكر السفر إلى أوربا في تلك الآونة التي عزم فيه عليه-، والصيعر لا يزالون حديث عهد بالتأديب، والحموم يرممون جراحهم وقلوبهم يعلم الله ما تنطوي عليه، والعشائر المسلحة لا تزال جرأتها فيما بينها تنجم من حين إلى آخر، وقضية آل تميم والشايم موضوعة على بساط النظر، ومشكلة عمد كامنة تترقب الخروج في وقتها، والوادي كله وإن يك جزلاً بالإصلاح إلا أنه لا يعدم رجالاً من المفسدين يسعون في إيقاد نيران الفتن وتنبيه الضغائن القديمة وحمل الأغرار على معاكسة الإصلاحات الحديثة.

لا يستطيع الكاتب مهما كد ذهنه، وحدد قلمه، أن يحصر في هذا المقال ما قام به مصلح حضرموت في هذه البضعة الشهور من المهمات، وحله من المشكلات، ودرأه من المفاسد، وجلبه من المصالح. فإن ذلك شيء كثير يتجاوز عشرات الألوف، ولا يزال حتى الآن مكثه بحضرموت ضرورياً لمصلحة حضرموت والوادي وذويه. مد الله في عمره آمين.

* * *

الإسكندر المكدوني(٢)

ثم بدأت المعركة وقاتل الفرس بحماسة وبسالة، وكادوا يربحوا المعركة لولا أن كسرى داريوس لم يكن ثابتاً، فقد رأى ثلة من جنده في بعض بقاع الميدان منهزمين فظن أن الجيش كله قد خسر المعركة، فوثب على صهوة حصانه وانثنى عائداً، فلما شاهد الجنود ملكهم منسحباً أدبروا كلهم، وركب الثامهم الإسكندر وجيشه فربحوا معركة أسيوس، واستجمع كسرى قواه وحشد جيوشاً أخرى، وقادها نحو بقعة تسمى (اربلة)، وهو سهل منبسط واسع خال عن التلال والآكام. فقد تذكر غلطته السابقة في أسيوس واستفاد منها درساً، وأقبل الإسكندر بجيشه قريباً من اربلة، وما إن ساد الليل حتى تقابل الفريقان وجهاً لوجه، وخاف داريوس أن يباغته الإسكندر أثناء الليل فأصدر أمره للجيش أن يبقى ساهراً طوال الليل استعداداً للطارئ، ولكن الإسكندر لم يكن يريد المباغتة ليلاً لأنه يعلم أن جيوشه متعبة تحتاج إلى الراحة الضرورية لما بعدها حيث تتجدد الهمة والنشاط للقتال، فنام الإسكندر وجيشه طوال الليل فأصبحوا نشطين متجددي القوى بينما أصبح الجيش الفارسي متعباً من السهر منهوك القوى.

وبدأت المعركة صباحاً وسرعان ما انهزم الفرس ولحق داريوس ما لحقه باسيوس فامتطى حصانه مولياً، وكسرى داريوس هو من فريق، لا أقدر ولم يكن من فريق، سأجتهد وأجرب، معنى هذا أن الناس أحد رجلين. رجل إذا واجهته الصعاب واستقبلته عقبة من الأمور وعرة خار عزمه وفتر همه وصاح قائلاً لا أقدر متعود بالفشل ورجل يجاهد في اقتحام العقبة قائلاً سأجرب حتى أنجح فيتغلب عليها ويكون نصبه الفوز.

وغنم الإسكندر معركة اربلة أيضاً ثم اتجه داريوس شمالاً مع شرذمة من عسكره وصحبه جماعة من قواده، وفيهم القائد باص الدني الأخلاق واقتفى الإسكندر أثرهم بسرعة أكثر من سرعتهم حتى قارب الوصول إليهم ولما رآه قواد الفرس أشاروا على كسرى أن يغادر هو والجند وينجون بأنفسهم ويتركوا من معهم من صغار العسكر مع شأنهم مع الإسكندر واختاروا لهم من سوابق الجياد ما يوازي عددهم، ولكن داريوس لم يرد أن يترك عسكره في ذالك الوقت، فلم يكن من القائد باص إلا أن فاجأه بطعنة قضت عليه وفر القائد الجاني باص مع بقية القواد تاركين جثة ملكهم داريوس على الأرض ووصل الإسكندر إليها فأغضبه ذلك أقصى الغضب وجد وراء القواد حتى أدركهم وأمر رجاله بقتل باص فقتل.

وتابع الإسكندر غزوه بعد نواح متعددة من العالم وفي كل غزواته لا يعود إلا مظفراً منصوراً وأخيراً غزا شمال الهند ومنه إلى الهند وكان ذلك غزواً شاقاً، تذمرت منه جيوش الإسكندر ونبرى له ملكها المدعو (افار) يقود جيشه العرمرم، ومعه الفيلة التي جفلت منها خيول المكدونيين لعدم عهدها بها، فعزل الإسكندر الخيول جانباً وجهز جيشاً كل رجاله يمتد إلى مسافة طويلة ولما أن رأت الفيلة هذا الخط الطويل المستقيم يزحف نحوها بقوة أجفلت إجفالاً عظيماً، وولت جامحة ومطوحة بركابها من فوق ظهورها دائسة بأخفافها جيش الهند نفسه الذي ارتبك وولى من الرعب لا يلوي على شيء.

وهكذا كسب الإسكندر المعركة وعاد الإسكندر من هذه الغزوة وقد تعب رجاله أقصى التعب وفي أثناء عودته إلى مقره انحرفت صحته وأدركته المنية

قبل أن يصل بلاده فكان مدة ملكه ثلاث عشرة سنة وعمره ٣٣ سنة.

والاسكندر يلقب بالأكبر، فهل هو عظيم حقاً يا ترى؟ إن عظماء الرجال هم الذين يتركون في هذا العالم خيراً للبلاد يذكر بعدهم، إن الإسكندر قد دوخ بلاد جمة ولكن شيئاً منها لم يسعد بخير تحت حكمه ولم يستفد أهلها منه خيراً ما،،،،،.

* * *

أجدٌ أم هزل

استطاع بعضهم أن يلقي إليَّ خطاباً مجهولاً لصاحب. وهذا الخطاب لم يكن رمزاً من الرموز ولا طلسماً من الطلسمات ولا معمياً من المعميات ولم يكن إلا بسيطاً يُفهم منه لأول وهلة، فإنا نحتسب عند الله ما نكرسه من الوقت هذه المرة فقط في إجابة أسئلته الفكاهية كما يزعم. إننا نعزم على أمثاله من المجهولين أن لا يحاول أحدهم مرة أخرى استدراجنا إلى إجابة أمثال هذه الأسئلة التي ليست هي إلا من فصيلة الفكاهات المتمنطقة بجليد القطب الشمالي.

قال الكاتب: في دار آل فلان بن فلتان

السؤال الأول:

في خلال هذه الأيام الأخيرة حدث أن امتدت إليهم معرة الجن واتصل بهم أذى ظلمهم، فلم يجدوا أمامهم إلا أن مثلوا إلى من يقيهم شر هؤلاء الجن الأشرار، ولكن كل هذا ذهب مع الرياح. وأخيراً وقع نظرهم على السيد هبان بن بهيان سامحه الله فطلبوا منه أن يُقوّم بكل استطاعته سداً منيعاً دون أذى هؤلاء الجن العابثين فأجابهم إلى ما سألوه، وأرسل إلى دار آل فلان بن فلتان فرقة من جنه الخاضعين لإرادته ليطردوهم عن الدار ويضربوا عليهم بيد من حديد، ولكن ماذا حدث أيها الأستاذ؟ حدث أنه قامت معركة دامية اشتعلت نارها ولفح أوارها وخر فيها ضابط من فرقة هبان صريعاً باليدين وراح أيضاً ضحية تلك المعركة ثلاثة من أؤلئك الجن الساكنين في دار آل فلان بن فلتان خلاف المصابين والجرحى والأسرى وبعد خمود نار المعركة وبعد أن علم هبان بمصاب موت الضابط جزع جزعاً عظيماً وراح يطالب آل فلان بتسليم دية هذا الضابط

وهي ثلاثمائة ريال ٣٠٠ فرانصة وهو مع ذلك يراها قليلة في مصاب ضابطه انتهت هذه الحادثة فماذا يرى الأستاذ الفاضل في هذه القسمة الضيزى فإن حضرة هبان لم يحسب لقتلى آل فلان حساباً ولو أن آل فلان طالبوه بدية هؤلاء القتلى الثلاثة لوجد نفسه محتاجاً إلى الاعتذار والسكوت بتاتاً.

السؤال الثاني:

بين قطتنا وكلبة الجيران ثأر قديم لا ينتهي إلا بقتل أحدهما فماذا ترى أنقتل القطة أم الكلبة وكيف نقتلها؟.

السؤال الثالث:

بتقدير أن السيد الحامد وسقاف ومساوى والأستاذ أنت وعلي باكثير وباعبود وابن عبيد الله وابنه حسن قد ضلوا الطريق في فلاة جرداء لا ماء ولا شجر وقد بلغ بهم العطش أقصاه ولم يجدوا غير دن من الماء لا يروي إلا أحدهم ويهلك الباقون طبعاً فمن يا ترى أحق بالبقاء؟.

السؤال الرابع:

في أي يوم من أيام الدنيا تطلع الشمس نهاراً وتغرب ليلاً؟.

السؤال الخامس:

يقولون إن الأرض وزنها ٥٣٠٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ طناً فكيف وزنوها هل وضعوها في كفة ميزان ولهذا سموه الميزان أظنه هكذا فما ترى؟

السؤال السادس:

يقولون إن الأرض محاطة بسور من جبل (ق) وهو جبل من زبرجد خضراء، ولهذا ترى لون السماء أخضر فمتى يا ترى نكشف هذا الكنز المختفي

وقد اكتشفنا أمريكا العظيمة؟

السؤال السابع:

ليس الجمال هو اللون الذي يغرينا ولا الصوت الذي يشجينا ولا الصور التي تعجبنا ولكن ماذا؟.

السؤال الثامن:

أريد أن أكون شاعراً مجيداً فماذا أفعل؟ هل أطلب الشعر بين دفتي التحفة وجلدي ابن عقيل على الألفية أم في كتب التصوف أم في هذيان العامة والمجانين أم في ماذا؟ أشر عليّ بما ترى فإني رهن إجابتك أيها الأستاذ !

هذه ثمانية أسئلة أقدمها إليك راجياً الإجابة المعجلة وعليك أن تلتزم في جوابك الإلحاض والفكاهة فنحن شباب كلنا مرح في مرح نبغض هدير العضات وثرثرة النصائح الجافة السافة، هذا ولا أريد أن تعلم من أنا ولكن عليك أن تضع الجواب تحت الحصاة السوداء التي بقرب ركن بيتك القبلي ولكم الشكر إن فعلتم.

"فكاهي"

الأجوبة

(١): ليس من سبيل لآل فلان بن فلتان على السيد هبان بن بهيان في شيء يدفعه مما يدعيه هذا وما ذلك إلا لاستنجاد الأولين بالثاني في دفع الصائلين عليه من الجن وإذا كان في حكمة الكاتب اللبق وحكمه ما يقضي بمطالبة المستغيث من المغيث له ديات الصائلين عليه إذا قتلوا وهو الذي أنقذه من مضايقة هؤلاء البغاة

وهو الذي بطش بهم البطشة الكبرى، فإن الإنجاد حينئذ والإغاثة سيرتفعان مع ما ارتفع من أخلاق الكرام، وإذا كان في عقلية سائلنا وعدله مع ما يحمله على استعظام دفع ثلاثمائة ريال ٣٠٠ بمثابة دية العظيم من المجاهدين من الجن في سبيل مغيرة المظلومين من الإنس فإن المتسيطرين منا بحروفهم وتمائمهم على قبيلتي شمهورش وطرهورش لا يريدون عندئذ أن يتعاطوا هذه المهنة الشاقة التي تستهلك الوقت والبخور والحبر الممزوج بالمسك والزعفران، والبحث عن رق الغزال ودم البكارة وقرن الركون وأمثال هذه ما لا يكون عندها عرض الحياة الدنيا شيئا مذكوراً.

(٢): أرى أن يتركا وشأنهما حتى يقتل أحدهما الآخر مادام ضرر الخصام محصوراً فيهما وهل الفضول شيئاً آخر سوى ما يرمي إليه الكاتب المجهول من التدخل فيما لا يعنيه "وأنت" حفظك الله إن سفكت دم كلبة الجيران استثرت بدون ريب حميتهم واشتريت لك من السهر ما كنت في غنى عنه، وإن جنحت إلى إعدام قطتك فاستعد للثورة الداخلية التي سيشنها عليك زوجك وأولادك ردحاً من الدهر واستعد أيضاً لفوضى الفأر وما سيسرقه من المخزونات الغذائية التي تظن بها على نفسك إلا بمقدار لاسيما في هذا الوقت الحرج.

(٣): أنا. لأنني – أولاً – أحرص على الحياة فيما أظن أكثر منهم فإذا برهن لي كل واحد منهم أنه أشد حرصاً مني على حياته فإنني حينئذ أحول رأيي ولأنني – ثانياً – أنا القائل:

تغازلنا الدنيا فنصبو وإننا لنعلم حقاً أنها ستخونُ

فهل أحد أجدر بالشفقة والإيثار بالوصل من حب لا تؤثر خيانة حبيبته

في صبابته شيئاً.

(٤): هذا شيء لا يكون قط، ولن تجري سنة الله به أبداً، وليس هناك يوم من أيام الدنيا تطلع فيه الشمس ولا ليل من ليالي الدنيا تغرب فيه الشمس وإنما يكون النهار نهاراً حينما يكون بعد طلوع الشمس ليلاً، وإنما يكون الليل ليلاً حينما يكون بعد غروب الشمس نهاراً، أعني أن الفجر هو طلوع الشمس وراء الأفق وذلك لا يكون إلا ليلاً وأعني أن المغرب هو غروب الشمس وراء الأفق وذلك لا يكون إلا نهاراً، ولو كانت الشمس تطلع نهاراً لكان ذلك تحصيل حاصل ولو كانت تغرب ليلاً لكان الليل تحصيل حاصل وكلا الفرضين محال.

إذ معنى النهار هو وجود الشمس فكيف تطلع وهي موجودة ومعنى الليل غياب الشمس فكيف تغرب وهي غائبة.

(٥): ليس من البعيد أن يكون ظن السائل صائباً إذا كانت تخايلاته الرقيقة هي التي اكتهلتها لهم ووضعتها في كفة ذلك الميزان، وإذا كانت فكاهاته هذه خفيفة "على القلب" هي الضاج التي تعادل الأرض في الكفة الأخرى.

(٦): طمع أشعبي والله ! إن جبل ق لو لم يكتشف من قبل لما وصل خبره إليك أيها الطامع فإن أمريكا قبل اكتشافها لم يدر بها أحد وهل زبرجد العالم إلا أحجار من ذلك الجبل الكريم انتهبت بعد اكتشافه، وما زرقة السماء إلا انطباع اللون في قميصها ثابتاً لا يبهت أبدا.

(٧): أجل ! إن الجمال: هو اللون الذي يغرينا والجمال هو الصوت الذي يشجينا والجمال هو الصور التي تعجبنا، وإذا لم تكن هذه الفواتن هي الجمال عندك فإننا لا نتأخر عن أن نترك كل ما وراء ذلك من الألوان التي لا تغري

والأصوات التي لا تشجي والصور التي لا تعجب فاهنأ بذلك.

(٨): زعموا أن جماعة السمك جاءوا إلى كبيرهم وقالوا إنا سمعنا أن هناك عنصراً عظيماً محيطاً بنا لا غنى للمرء عنه يسمى ماء، وها نحن جئنا إليك لترشدنا إليه فقال لهم: ها أنتم هؤلاء تسكنون فيه وهو يغمركم دائماً قالوا أرنا إياه فإننا لا نرى غير أنفسنا فسكت ولم يستطع إقناعهم، ونحن يحيط بنا الشعر من كل نواحينا وهو في ملاذنا وآلامنا وفي طعامنا وشرابنا وجدنا وهزلنا وحقائقنا وخيالنا وفي معاطف ملابسنا وفي معابدنا وأسواقنا ومتصوراتنا ومسموعاتنا وكتبنا وخطبنا فنحن شعر وما حولنا شعر والتحفة وابن عقيل شعر وخفيف الشجر وخرير المياه شعر وسواد الليل وبياض النهار كل هذا شعر وجميع مظاهر الطبيعة فإن كنت ترغب في أن تكون شاعراً فأنت إذاً شاعراً من حيث لا تدري أنك شاعر إذ لو لم تكن كذلك لما كنت كذلك والله أعلم.

* * *

تحية مودع

يودعُ اليوم قلمنا قراءه وداعاً مراً، نتمنى أنْ لو لم تخطه أناملُ القضاء، ولم تقرره عزيمةُ الدهر، ولم تضطر إليه ظروفُ الأحوالِ الحاضرة، ولكن أنى للمرء وهو رهين الأقدار، وعرضة الحدثان، أنْ يظل راتعاً في حدائقِ الأماني، متجهاً نحو شققِ الرغايب، نائلاً كلما تطمح إليه همتُه، ويمتد إليه طرفُه، من إصلاحٍ يتقصده، أو بغيةٍ يقتنصها، أو غايةٍ يسمو إليها إلا والأقدار تعمل عملها من دون أن تتوقف على رضاه، أو تراعي بغيته ومناه.

***

يودعُ اليوم قلمنا قراءه وهو حريصٌ على أن لا يكف مناجاتهم، ولا تنفك آثارُه عن غشيانِ أذهانهم، لو لم تكن الموانعُ قوية الشكيمةِ، والثنايا مستعصية التسلقِ، وإدارة الشئون المدرسية حال تحول دون كل حال. وواجب يعنو له كلُ واجب. لاسيما مع عدم المساعد، وتراكم الأشغال.

***

لا نرى أن هناك حاجة تدعونا إلى تفصيل الأسباب، والإسهابِ في تعداد الموانع، إذ أن فيما ذكرناه لكفاية من العذر لدى من يحرص على كتاباتنا، ويرغب في استمرارنا على موالاتها، بيد أننا نقدم خالص تشكراتنا لأولئك الذين يؤتون ما نكتبه قدراً فوق قدرهِ ويعيرونه من الإجلالِ والإعجابِ فوق ما يستحقه، وما ذاك منهم إلا مروءة عظمى تملأ نفوسهم، وإحساسات سامية تخالج ضمائرهم، فليجزهم الربُ ما يغدق عليهم شآبيب البركة والسلام.

***

ثم إنا نستميح الآن قراءنا عفواً يغسل عنا درنَ ما لعلنا فرطّنا فيه أو أفرطنا، من خطلٍ في القول، أو حيدٍ عن الجادة، أو بطلانٍ في القياس، أو كبوةٍ يراع يتألم منها الحق، وينتعشُ بها الباطل، ويسري بخارُها إلى نوايا حسنة، وسرايـر طاهرة، تلقى القول على علاته، وتأخذه على ظاهره، مما يريها الحق باطلاً والباطل حقاً.

***

وبعد، فإنا نستودع الله تعالى أعمال اليراعة والفكر في حدائق هذه الجريدة الغنَّاء، والكتابة بين مواضيعها اليانعة، ونقطع من الآن فصاعداً كلَ علاقةٍ وإشرافٍ خاصين كانا بيننا وبينها، ما عدا ما ربما جادتْ بها القريحة يوماً ما فنكتبه فوق توقيعنا الصراح.

***

هذا ولنرسل النظرة الأخيرة – نظرة الوداع- إلى الصحافة العربية التي بدأنا بخوض غمارها منذ عشرين سنة، راجين لها من المولى التقدم والارتقاء والسلام.

من محاضرات
الأستاذ محمد بن هاشم

محاضرة

عن إقليم حضرموت العربي الشهير في التاريخ القديم وموطن عاد وأقيال التبابعة وملوك حمير وكندة ثم موطن السادة العلوية في الوقت الحاضر وغيرهم[١]

لدار نقابة الموظفين هذه أيادي بيضاء وأعمال جلائل خدمت بها اللغة العربية وأبناءها، ففتحت لهم أبواب المحاضرات الثجاجة بأنواع المعارف، وقوت منهم بدعوتها إياهم للاجتماعات المتتابعة ما أضعفته الأيام من أواصر الرحم العلمية بينهم، وأخذت تستحث الخبراء بشؤون الأقطار العربية وذي الدراية في كل علم على إلقاء المحاضرات بدارها العامر، وتتلقى ذلك منهم بترحيب بهيج وترغيب منشط.

ولا ريب أن كل سادتي الحاضرين يعلم ما لرئيس هذه النقابة حضرة صاحب العزة أسعد بك لطفي من اليد القوية في إدارة هذه الحركة المباركة التي يرتضع منها أبناء العربية أفاريق العلم والفضيلة والأدب. فنحن ولا ريب مدينون بالشكر العظيم له خصوصاً ولأعضاء النقابة عموماً.

وإنه ليسرني أن أتكلم الليلة عن قطر حضرموت العربي، وهو مسقط الرأس، ومرتع الصبا، ومحط الأمل، وزهرة الروح.

بلادٌ بها نيطت عليّ تمائمي ... وأول أرضٍ مس جلدي ترابها

وحضرموت وإن يك مركزها في التاريخ القديم والجغرافية غير منكور إلا أن ما طرأ عليها من تغيير مما لم يسطر بعد في كتاب، وما شاهدته من حالتها الحاضرة والتي زرتها بعد غياب ٢٣ سنة كل ذلك معلومات جديدة تهم أبناء العربية، وجديرة بأن تلقى كمحاضرة في دار نقابة موظفي الحكومة المصرية.

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بدار نقابة الموظفين بمصر سنة ١٣٤٥هـ.

جغرافيتها:

حضر-موت هي مخلاف من مخاليف اليمن، وتسمى بالأحقاف أيضاً، وموقعها على بعد خمس عشرة درجة عرضاً شمال خط الاستواء، وخمسين درجة طولاً شرقي جرينتش، ويحدها من الجهة الشر-قية شعب وادي النبي هود عليه السلام، ومن الجهة الغربية عين بامعبد، ويحدها جنوباً البحر العربي، وشمالاً رمال نجد والربع الخالي. وجل هذه المساحة جبال صخرية جرداء قاحلة خالية من النبات والعيون ما عدا القليل منها.

سكانها:

يبلغ سكان حضر-موت ضمن حدودها المذكورة آنفاً نحو خمسمائة ألف نسمة حضراً وبدواً. وينقسم هؤلاء السكان من الوجهة الاجتماعية إلى ثلاث طوائف كبرى:

أولها: السادة العلويون النازلون بها سنة ٣١٧هـ، ومن يلحق بهم من بعض قبائل الحضارمة العريقين في الصلاح كآل باوزير وآل العمودي وآل بافضل وآل الخطيب الأنصاريين وغيرهم، ومن هذه الطائفة رجالات العلم والفضل والنفوذ، وهم المصلحون بين الناس، والساعون في بناء المدارس والرباطات والمساجد، والقائمون بالتعليم والإرشاد وعقود الأنكحة وقسم المواريث، ويشارك السادة العلويين في هذا من أشرنا إليهم من بيوتات الحضارمة.

ثانيها: الزرَّاع وأرباب الصناعات والعمال وأهل الأسواق ومن ضاهاهم، وهذه الطائفة والتي قبلها تفصلان المنازعات التي تحدث بينها بالمصالحة غالباً أو بحكم الشرع على مذهب الإمام الشافعي الذي هو مذهب الحضارمة قاطبة.

ثالثها: حملة السلاح من العشائر بدواً وحضراً، وهؤلاء وإن يك فيهم رجال ذوو عقل وصلاح ويحبون الخير إلا أنهم لا يهدأ لهم بال مما يكون بينهم من

الفتن، إذ جلهم يحارب بعضهم بعضاً، وربما حاربت القبيلة الواحدة قبيلتين فأكثر على أن مقاتلتهم هذه لا تمنعهم من صد هجمات الغريب بل تراهم يتركون قتلاهم وجرحاهم فيما بينهم في المعركة ويهبون جميعاً يداً واحدة لمقاتلة عدوهم المشترك ثم بعد انتهائهم من أمره يعودون إلى ما كانوا فيه من قبل.

وتفض المشاكل والمخاصمات الحادثة بين هذه الطائفة فيما عدا المواريث والأنكحة بحسب عادات لهم عرفية وبواسطة حكام منهم، ولهم قواعد في الحكم وفي استئناف الدعاوي يطول شرحها وكلها محفوظة غير مكتوبة.

باديتها:

تسكن جبال حضرموت قبائل من صميم العرب من قضاعة ونوح ونهد وكندة وحمير ومذحج وغيرها، وكلها لا يزال بينها ذحول ودماء وثأرات، الأمر الذي سبب عدم استقرار حكومة مدة طويلة بتلك البلاد على نظام ثابت، لما تعانيه من شغب باديتها، وجدب أرضها، فإذا أقيمت بها حامية كبرى عجز خراج البلاد عن تموينها، وإن أقيمت بها حامية قليلة العدد والعُدد لم يحفل الأهالي بها وعادوا إلى سيرتهم الأولى وهكذا دواليك.

بلاد المهرة:

ويضاف إلى حضرموت عرفاً بلاد المهرة وهي موطن الإبل المهرية الشهيرة التي يقول فيها أبو الطيب المتنبي الجعفي الكندي:

ويلمها خطة ويلم قابلها لمثلها خلق المهرية القود

والمهرة بلاد واسعة تتصل بظفار الحبوظي وبعُمان، ورمالها وسكانها نحو المائة والثلاثين ألفاً منتشرون في البر العربي وفي الجزر الشرقية، ولهم لغة مستقلة ليست بعربية ولكن بها من حروف الحلق ما بالعربية، وهي إلى الآن لا كتابة لها.

والمهرة من العرب بلا ريب، وأنسابهم ثابتة كما في الجمهرة وغيرها، ويضارعهم في هذا قبيلة القرى في صقع ظفار الحبوظي أيضاً.

لغة حضرموت:

لغة حضرموت هي العربية إلا أن الدارجة منها قد فسدت كما فسدت لغات غيرها من أقطار جزيرة العرب، ومع ذلك فألفاظ الحضرمي فصيحة ناصعة غالباً، ولكل حاضرة بها نغمة، ولكل قبيلة لغية ولهجة، وللحضارمة في دارجتهم ألفاظ كثيرة ليس لها وجود في معاجم اللغة، وكلها على موازين الكلمات العربية ينالها ما ينالها من الجمع والتثنية والتصريف، وجلها رباعي وخماسي، ومنها ما يشبه بعض ألفاظ الهيرغليفية القديمة، وقد جمع الشاب النجيب السيد محمد بن أحمد بن عمر بن يحيى العلوي من هذه الكلمات ما يقارب عشرة كراريس، وأخاله عرضها على العلامة أحمد باشا تيمور، وقد بحثنا بحسب استطاعتنا عن أصولها في المعاجم فلم نعثر لها على أصل.

مدنها:

أشهر مدائن حضر-موت تريم، ويلقبونها بالغنّاء، ومدينة الصدِّيق، لأنها أسلمت قيادها له وساعدته على قتال المرتدين بحضرموت، وهي مدينة أثرية بها مساجد كثيرة وبنايات قديمة، وهي الآن مظهر حضارة حضر-موت، وعنوان رقيها وسرة واديها.

ثم تليها سيؤن وهي: على حداثتها أكثر سكاناً، وأوفر عمراناً، لأنها عاصمة السلطنة الكثيرية، وبها وبتريم المذكورة قبلها من العلماء والفضلاء ورجال الوجاهة والثروة والمعاهد العلمية والدينية مالا يوجد نظيره في غيرها من مدن القطر.

وهناك بلدان أخرى وقرى عامرة بعضها له عرق في التاريخ الجاهلي كتريس، وهذه كما يقول ياقوت الحموي في معجمه بناها تريس بن خوار بن الصدف بن كندة أحد ملوك كندة، وهي الآن مقام للسادة آل الجفري المعروفين كغيرهم من السادة بتعضيد المدارس والجمعيات العربية بجاوا.

ومن مدنها الأخرى: شبام وحريضة، وهي موطن السادة آل العطاس العلويين، وهم بها موئل القاصد ومنهل الوارد ومأمن الخائف، ثم الهجرين وهي البلاد التي ألقى بها عصا التسيار الإمام أحمد بن عيسى الجد الأعلى للسادة العلوية حينما هاجر من البصرة إلى حضرموت في القرن الرابع من الهجرة، وقيدون وهي موطن المشائخ آل العمودي ولهم فيها نفوذ وشكيمة وسلطان، ودمون الكندية وهي التي يتغنى بها امرئ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي فيقول:

تطاول الليل علينا دمّون دمّون إنا معشر يمانون
وإننا لقومنا محبون

ويقول فيها أيضاً:

كأني لم أسمر بدمّون ليلة ولم اشهد الغارات يوماً بعندلِ

وعندل موضع قريب منها، وقد أخفى الدهر على دمون هذه فأصبحت كما قيل:

وقرية ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

وبأسفل حضرموت عدد حديث من المدائن والقرى ذوات البال مما لم يأتِ له ذكر في التاريخ القديم.

أما موانئ حضرموت فأشهرها المكلا، وهي عاصمة السلطنة القعيطية واقعة على ضفة البحر العربي، يربو سكانها على الثلاثين ألفاً، ثم الشحر وهي مدينة فسيحة

الأرجاء، شهيرة هناك بجودة أسماكها وكثرتها وهم يسمون الصغير عيداً والكبير صيداً، قال أحد أدباء الحضارمة في مهجره هازلاً:

من لي بوطء ثرى تلك البقاع إذا ما جئت مستقبلاً عودي إلى وطني
هناك أنشد مسروراً ومفتخراً العيد والصيد والأسماك تعرفني

وفي الجاهلية كانت العرب تقيم سوقاً سنوياً بالشحر هذه متعمدة عند منصرفها عن سوق عكاظ.

المواصلات بها:

لم تزل وسائل النقل بها جارية على ما كانت عليه قبل ألوف السنين، فالجمال الموقرة هي العامل الوحيد في إيصال البضائع من الساحل إلى الداخلية، والمطايا الأليفة والخيول المطهمة والحمير الفارهة هي المعول عليها في قطع المسافات، وقد طفق حديثاً رجال من ذوي اليسار يتبارون في اقتناء السيارات للركوب، وأخذوا يعبدون الطريق لجولانها براحة.

وقد أدهشني ما رأيته بتريم إحدى مدن حضرموت من التطور الغريب مدة غيابي عنها، واختراق السيارات العديدة شوارعها وجولانها في ميادينها من دون أن يتقدم ظهورها أولاً عربات الخيل أو عجلات البقر كما جرت به عادة التطور التدريجي.

وللسادة آل الكاف ملوك الذهب بتلك البقاع فضل على القطر الحضرمي بارز لا ينساه التاريخ، فقد وجهوا هممهم السامية إلى إصلاح طرق المواصلات، وتذليل ما وعر من العقبات على أخفاف الجمال، وبذلوا من خزائنهم في هذا السبيل المال الكثير احتساباً لله، وحباً في إصلاح البلاد وراحة العباد.

والقادم من الشحر إحدى الموانئ إلى تريم الداخلية يلزمه أن يمضي ثمانية أو تسعة أيام، ممتطياً ظهور الجمال تارة، ومتسلقاً صعاب الهضاب أخرى، وتحت أشعة الشمس المحرقة أو تيارات الزمهرير القارصة.

وفي الأيام الأخيرة أي قبيل وصولي هناك نهضت بالشاب المصلح السيد أبي بكر بن شيخ الكاف همته لتمهيد طريق للسيارات بين الميناء والداخلية يبلغ طوله نحو خمسمائة كيلومتراً. وقد بدأ في العمل فجهز العمال وأعدهم، وحالف عشائر البادية الذين تمر السيارة بأرضهم، وطمئن خواطرهم، وأزال خوفهم من كساد كراء جمالهم حينما تتكاثر السيارات هناك، ونفح بعضهم بشيء، وحفر لآخرين آباراً في ديارهم تلقاء رضاهم بمرور السيارات ومحافظتهم على طريقها، وينوي السيد أبوبكر أيضاً جلب نماذج العجلات لتجرها الإبل مشحونة بالبضائع بدلاً من حملها على ظهورها، ولا ريب أن البدو سيرغبون حينئذ في ذلك لما فيه من الفائدة لهم والراحة لإبلهم، وبه تبتدئ وسائل النقل في الدخول إلى طور التحسن.

المعارف بها:

ليس للمعارف الآن سطوع بتلك الربوع فقد أصابها من الانحطاط ثم الموت بموت أهلها ما أصاب غيرها، وقد دبت الحياة منذ سنوات في قلوب بعض سادات تلك البلاد فهبوا للتعاون على نشر العلم بفتح المدارس، وها قد أينعت مساعيهم بعض الإيناع، فقد افتتحت حديثاً عدة مدارس نظامية بتريم وسيؤن وغيرهما كلها ابتدائية، والضرورة لا تزال تدعو إلى أضعاف أضعاف الموجود لاسيما ولدى الحضارمة من الثراء ما يقوم بعض زكاته بأكثر من المطلوب، ومعاهد العلم بحضرموت مقتصرة على تدريس الفقه والنحو وشيء من التفسير

والحديث، والبلاد وإن تك لا تخلو من العلماء المتفننين وشبان الأدب والشعر إلا أن نطاق التعليم لا يزال بها دون الواجب بمراحل.

النهضة الأدبية:

بحضرموت اليوم فاتحة نهضة أدبية تبشر بحسن المستقبل. فقد نبغ عدد غير قليل من الشبيبة في اللغة والشعر والآداب العربية، والسيد العلامة المرحوم أبوبكر بن شهاب الدين العلوي هو أول من نشّط الشبيبة إلى اقتناء الأدب، وحبب إليها قرض الشعر، وأحيى لها دولته، فهبوا - وقد ساعدهم الجو الهادئ والفطرة السليمة وما يغذون به أرواحهم من إنشاء فطاحل الكتَّاب، وشعر كبار الشعراء بمصر والشام والعراق - يتبارون في انتحاء نواحيه وسلوك مناهجه، وإن كان لا يزال أكثرهم مقتصراً على ما ذلله الأقدمون من سبل المديح والفخر والنسب والرثاء ومخاطبة الأطلال.

ولعل سادتي يميلون إلى أنموذج من الشعر الحضرمي ليأتدموا به هذا النثر الطويل، فمن الوصف ما قاله السيد أبو بكر بن شهاب الدين في إحدى خمرياته:

رَوّق الصهباء صرفاً وأدر ... واسقنيها في الظلام المعتكرْ
رَوّح الأرواح بالراح فما ... ذاق طعم العيش إلا مَنْ سكرْ
رقية الحزن يرى شاربها ... نفسه مثل مليك مقتدرْ
رق مراها ومرأى جامها ... فهي والجام ضمير مستترْ
رقصت في جبهة الكأس لدى ... صبها حور الحباب المعتورْ
ربما أنكرها ذو شرعةٍ ... ما درى قصة موسى والخضرْ
رده الجهل بها عنها وهل ... يعرف الجوهر غير المختبرْ
رب ليل بته معتكفاً ... بين كاسات وساق مسبكرْ
رشا يغبطه غصن الربا ... إن تثنى والغزال المنذعرْ

إلى أخر ما قال. وقال السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف العلوي متشكياً:

أبى الحر إلا أن يذوب فؤاده ... إذا منيت بالانحطاط بلاده
وكيف يلذ العيش والوطن الذي ... به عزنا استشرى عليه فساده
تقلص ظل العلم منه وأقفرت ... رباه وكانت جنة ووهاده
وكل امرئ مهما تعاظم شأنه ... على الذات مقصور لدينا اجتهاده
وأعيى به داء الدهان وعز من ... يبوح بما يملى عليه اعتقاده
أجل ساءني هذا الجمود وغاظني ... سكوت الأولى منهم يرام انتقاده

وللسيد الروائي الأستاذ أحمد بن عبد الله السقاف ناظر (مدارس جمعية خير) في الوقت الحاضر بجاوا شعر رقيق في موضع الرقة، وجزل في موضع الجزالة، لم يعلق بذهني منه سوى بعض ما قاله يخاطب به ساسة الغرب ومجانين الاستعمار:

رويداً فراعين الزمان فإنما ... هو العمر مهما طال لاشك يقصرُ
أمنتم عذاب الله والله غالب ... وأغرقتموا في المكر والله يمكرُ
فما هذه النار التي توقدون في ... مصانعكم إلا لكم تتسعرُ

إلى أن قال:

أقمتم نظاماً للأنام فغرنا ... ببهرجه ذاك النظام المزورُ
ملخصه أن القوي محكم ... وحاصله أن الضعيف مسخرُ
كذلك كاد الغرب للشرق كيده ... ونحن نظن الغرب للشرق يعمرُ
فكم غرنا بالنسك خب لسانه ... يردد ذكر الله والسيف يقطرُ
ففي يده اليمنى كتاب وسبحة ... تغر وفي يسراه كأس ومزهرُ
مضى زمن والشرق يرعى فيرعوي ... على مضض والغرب ينهي ويأمرُ
وأصبح هذا الشرق يؤمن بالقضا ... وأصبح ذاك الغرب للطير يزجرُ

دعـوا الطـير في أوكارهـا وتهيـأوا فقـد خـانكم تـدبيركم والمـدبرُ
وقد قام كل الشرـق يطلـب حقـه ففـي كـل بيـت منـه ليـث يزمجـرُ

ولبعضهم بداهة لا بأس بها، أذكـر مـرة أنني كنـت ماشياً مـع أحـد الأدبـاء المدرسين وقد ذكر قول الشاعر:

بي مثـل مـا بـك يـا حمـام البـانِ أنـا بالقـدود وأنـت بالأغصـانِ

واقترحنا تعجيزه وتصديره فقال بديهة:

بي مثـل مـا بـك يـا حمـام البـانِ فـاشرح هـواك لكـي أبثـك شـأني
وهلم نستدعي النسيم ونشتكي أنـا بالقـدود وأنـت بالأغصـانِ

وسمعت أديباً حضرـمياً وقـد أبرمـه بعضـهم بقولـه: إنكـم تزعمـون أن أبـا الطيـب المتنبـي الكنـدي مـن حضرـموت وتحتجـون بقولـه "أمنسيّـ السـكون وحضرموتا". أفلا تروون له في حضرموت غير هذا الشطر، فقال له الأديب: أمـا سمعت قصيدته العصماء التي مطلعها:

على قدر أهل العـزم تـأتي العـزائمُ وتـأتي عـلى قـدر الكـرام المكـارمُ
وتعظم في عين الصـغير صـغارها وتصغر في عـين العظـيم العظـائمُ

إلى أن قال:

وخيرُ الأراضي حضرموت ومِنْ هنا تسامت على كلِ الأنـامِ الحضـارمُ

ومـن المعلـوم أن البيـت لم يـك للمتنبـي، وإنـما دسـه الأديـب ببديهتـه دسـاً للتخلص من إبرام الرجل.

ومـن زعـماء النهضـة الحضرـمية بـالمهجر السـيد محمـد بـن عبـد الـرحمن بـن شهاب الدين، والسيد محمد بن عبد القادر الجفري، والسـيد محمـد بـن صـالح بـن عقيـل، والشـيخ عـلي بـن محمـد الشـبلي، والسـيدان عبـد الله بـن محمـد بـن حامـد وأبوبكر بن طه آل السقاف، وقد استطاع هؤلاء وغيرهم معهم أن يكونـوا بمركـز حلقـة الاتصـال بـين الشـبيبة ورجـال القـديم، ومظنـة لإزالـة سـوء التفـاهم بـين

الفـريقين، وللكـل مـنهم كتابـات رائقـة، وشـعر نفـيس لا يحضرـني منـه شيء. وللحضـارمة اليـوم في المهجـر جريـدة ممتعـة وهـي "حضرـموت" التـي يصـدرها بعربيـة بليغـة السـيد عيـدروس المشـهور بمدينـة سـورابايا، وكـان حضرـة الشـاب الناهض الشيخ محمد بن سالم بارجاء من أكبر مؤسسيها.

المرأة الحضرمية:

ليست المرأة الحضرمية سوى عفاف مجسم، وطهارة متجلية، وحنـان محـض، ولو أنها استنارت بنور العلم، وكرعت من حياض المعارف على ما بهـا مـن الأدب الموروث والتربية الدينية لتمت لها ولذويها السعادة والهناء.

للمرأة الحضرمية باع طويل في تأديب أطفالها فلا تسمع مـن أحـدهم كلمـة فيهـا شيء من البذاءة إلا وتبادر إلى مسحوق الصبر فتضعه في فيه، ثم تأخـذ في تـوبيخ الطفـل وتهويل الذنب في نظره ،وإعلامـه بـأن لا كفـارة لـه سـوى تنظيـف فمـه والإمسـاك عـن الكلام برهة حتى لا يؤذي الناس ببقايا نتن الكلمة.

وهي على بعد منشأها عن المدنية الغربية والأفكار العصرية لا تزال من أقل النساء في العالم انصياعاً للخرافات وسعياً وراء الروحيات فهي لا تعرف الزار ولا شبهه، ولا تخرج وراء الجنازة ولا ترغب في زيارة القبور إلا نادراً.

والجهـل عـام في النسـاء الحضرـميات، والقليـل مـنهن مـن يعـرف القـراءة والكتابة إلا أن هناك نسوة نوادر من بنات السادة العلوية تـربين في جحـور آبـائهن وتعلمن العلم الديني، وقرأن الكتب الإسلامية فنبغن ووصلن إلى درجة عاليـة في الدعوة والإرشاد بين نساء شعبهن.

وفي الأيام الأخيرة انتشرت فكرة تعليـم البنـات بـين الحضـارمة، وبـدأ كثـير من الأمهات يرسلن بناتهن إلى المكاتب. أما بنات الحضارمة في المهجـر فقـل مـنهن من لا تذهب إلى المدرسة.

تاريخها:

لحضرموت صيت ذائع في التاريخ القديم. وقد ورد ذكرها في الشعر العربي كثيراً، وشد الرحال إليها رجال عديدون من فضلاء العالم الإسلامي للسياحة وطلب العلم، فعادوا وحقائبهم ملأ بالفوائد العلمية والنكات الأدبية، وفيها يقول بعضهم:

مررتُ بوادي حضر-موت مسلماً فألفيته بالبشر مبتسماً رحبا
وألفيت فيه من جهابذة العلا أفاضل لا يلقون شرقاً ولا غربا

ويمكننا أن نقسم تاريخ حضرموت إلى ثلاثة أدوار:

الأول الدور العادي أو الجاهلي: وحضرموت بلا ريب هي موطن قوم عاد وأقيال التبابعة وملوك حمير وكنده، وآثار الجميع باقية إلى الآن، وهذا الدور لا نتعرض له لغموضه واحتياجه إلى بحث طويل.

الثاني الدور الإسلامي: من بدء انتشار الإسلام بها إلى أن نجمت الدولة الكثيرية في أواسط القرن السابع، وهذا أيضاً لا نتكلم فيه لشهرته في الكتب التاريخية العربية.

أما الدور الثالث: فهو منذ نجمت الدولة الكثيرية حتى الآن، وهي أقدم حكومة في تاريخ حضر-موت الحديث وتدعى الآن بحكومة (آل عبدالله). وقد مضى على تأسيسها ردح طويل ونفوذها ينبسط مرة ويتقلص أخرى، حتى هب الإمام المتوكل اليمني فنصرها ودمر أعداءها ورد لها ملك حضر-موت كله، ولم يشترط عليها إلا إعلان طاعتها له، وإقامة الشرع المحمدي والمحافظة عليه.

ولبعض أمرائها وهو السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري المولود سنة ٩٠٢ من الهجرة شهرة حسنة. وقد طالت أيام حكمه لأنه تولى وهو صغير السن، وكان ممدوحاً من الشعراء، وهو الذي منع الترك من

الاستيلاء على حضرموت، ثم اعترف لهم بالطاعة وأرسل إلى القسطنطينية هدايا منها بعض أسرى من الإفرنج في واقعة الشحر من البرتغال، وأرسل جيوشه لفك حصار الترك في زبيد، وألزم أهل اليمن بطاعة الترك في أيام السلطان سليمان وكانت وفاته عام٩٧٧هـ.

وآل كثير ينتهي نسبهم إلى قضاعة، وكذا بنو ظنة، وهم ثلاث قبائل: آل تميم بن ظنة، وآل منهال بن ظنة، وآل شرحبيل بن ظنة، ويعرف هؤلاء الآن ببني تميم والمناهيل والشحابلة.

يافع:

وكان بعض أمراء آل كثير قد جلب لتعزيز قوته رجالاً من يافع من حمير القاطنين بجهة اليمن السفلى، وأدمجهم في معسكره حتى أطلق عليم اسم (العسكر) إلى الآن، فأعجبتهم حضر-موت واستوطنوها وجنحوا إلى بعض السادة العلويين وتمسكوا بهم فطابت لهم الإقامة، وكثروا بتناسلهم وبمن هاجر إليهم من قومهم، حتى اقتطعوا لهم أوطاناً وحدوداً ودخلوا في عادات قبائل حضرموت، واستمروا يشيدون مركزهم ويقومون نفوذهم حتى حكموا قرى متعددة، ثم استولوا على الشحر سنة ١٢١٩هـ وأجلوا منها آل كثير، ومكثوا بها نحو ٤٦ سنة، ثم استطالوا جداً في الظلم، ولم يراعوا الشرع المحمدي ولا عواطف السادة العلويين ومن ينضم إليهم من خيرة الحضر-ميين وعلمائهم، فاضطر هؤلاء لمعاداتهم ونصر-وا آل كثير بل استنصر-وا بهم، وحاربوا يافع فاجلوهم عن سرة حضرموت وسنامها.

السلطان غالب:

هو محيي ملك آل كثير بعد اندثاره بتغلب يافع على جميع وادي بن راشد مابين شبام وقسم. وكان قبل أن يتأمَّر بحضرموت ممن هاجر إلى الهند وتوظف في

العسكرية عند ملك الدكهن، فصار نواباً واكتسب ثروة ساعدته على إخراج يافع من قلب حضرموت، علاوة على ما كان يمده به من المال والجاه من قام معه من وجهاء السادة العلويين كالحبيب حسن بن صالح البحر والحبيب محسن بن علوي السقاف.

كما قام بفتح الشحر عنوة في ٦ جماد الآخرة سنة ١٢٨٣هـ، فهرب عنها آل بريك ممتطين مراكبهم الشراعية الماخرة عرض البحر، وبذلك تقوضت دولتهم حتى الآن، وكان السلطان غالب شجاعاً صالحاً محباً لأهل البيت حسن الأخلاق محبوباً رقيقاً رحمه الله تعالى.

العائلة القعيطية:

مؤسسها هو الحاج عمر بن عوض القعيطي أحد أمراء الجالية الحضرمية بالهند في حيدر أباد دكن. قام منذ نحو ٨٠ سنة فنصر قومه يافع، وبذل أموالاً طائلة في نصرهم، ورد من رحل من حضرموت منهم إلى ما بقي لهم منها كبلاد القطن وحصون يافع بجوارها، وأرضى من قدر على إرضائه من السادات، وأظهر لهم احتراماً وإجلالاً ثابر عليه هو وذريته إلى الآن، فاستجلب لذلك من نفر عنه. ولم يزل يكد ويكدح ويسعى ويبذل حتى ظفر بمدينة شبام غدراً سنة ١٢٧٤ هـ على يد مولاه الحاج الماس الحبشي.. ثم بعد موت الحاج عمر خلفه أولاده عوض وصالح وعبد الله الذين سلكوا سبيل أبيهم، وساعدهم على نيل مآربهم أمور صدرت من آل عبد الله، اضطرت بعض ذوي ا لنفوذ الروحي إلى نصر أعدائهم عليهم فتم لهم بذلك وبسعي من الأمير عوض الذي سمي أخيراً السلطان عوض الاستيلاء على جميع شواطئ حضرموت من مهرة شرقاً إلى قرب وادي حجر المشهور بنهره وكثرة نخيله في الجاهلية والإسلام إلى الآن.

ولد السلطان عوض سنة ١٢١٤هـ. وفي سنة ١٢٨٦هـ جهز على الشحر جيشاً جراراً مؤلفاً من عرب وهنود قدم بهم بحراً من الهند فما عتم أن فتحها عنوة وقوض منها سلطان آل كثير في حين أن استولى أخيراً على غيرها، فكانت الحكومة اليافعية هي الثانية ترتيباً، والأُولى قوة والأوسع نطاقاً. وقد كاتبت الإنجليز على يد الأمير عبد الله بن عمر أخي السلطان عوض ووكيله. ثم وسع السلطان ملكه واستولى على حجر سنة ١٣١٠هـ، وتملك بعدها دوعن، واستفحل أمره وهابته قبائل حضرموت.

توفي رحمه الله عام ١٣٢٧هـ. وقد كان رجل حزم وعزم وجد وجلد وشجاعة ودماثة أخلاق محافظ على الصلوات والصيام بعيداً عن قاذورات أمراء الهند.

ثم خلفه بعد موته ابنه السلطان غالب رحمه الله، فسار على منهاجه. وكان وزيره المدير له الأمور هو وزير والده والنافذ الكلمة عنده السيد حسين بن حامد بن أحمد المحضار العلوي، وهو أيضاً وزير السلطان الحالي عمر بن عوض بن عمر. وفي أواخر الشهر الماضي نشرت الجرائد المصرية نعي هذا الوزير رحمه الله وقامت الجالية الحضرمية هنا بتأبين مهيب، ثم أن ابنه السيد أبا بكر هو الذي تولى زمام الأمور بعده.

الحكومة الآن:

أما الآن فقد استقر الحال على ما يأتي:

يحكم السواحل كلها مع ما انضم إليها غربي عين بامعبد السلطان عمر بن عوض بن عمر بن عوض القعيطي اليافعي، المتملك حسب وصايا أبيه عوض بعد أخيه المرحوم غالب، كما أنه أيضاً يحكم جميع دوعن والقطن وشبام وحجر ويلحق به عدد من القبائل.

وتنحصر سلطة آل عبد الله بحسب معاهدة عدن في تريم وسيؤن، وهما خيرة مدن القطر الحضرمي، وإن لم تكونا أكثر سكاناً ذلك لأن بهما عدداً من أهل العلم والثروة، ويلحق بها ثلاث قرى أخرى هي: غرف آل زيدان وتريس وغيل الشناظير، وينتمي إلى السلطنة من العشائر الشنافرة وهم آل كثير وآل عوامر وآل باجري وآل جابر.

الآثار والكنوز:

بناء على عادية حضرموت وتعاقب المدنيات، فالمضمون أن ما هو مدفون تحت الرمال وتحت أنقاض الخرائب وفي أجواف المغائر والمقابر أكبر قيمة مما كتب في التواريخ عنها وأكثر فائدة وأصدق نبأ، ومنذ سنوات قليلة كشف السيل عن آثار مهمة ذهبية وفضية وحجرية وجواهر كريمة في مقابر حميرية بوادي مرخة بيع جلها بثمن بخس في عدن والهند. وسبك العربان كثيراً مما وجدوه من الحلي والنقود والأصنام الذهبية والفضية وسبائك لظنهم أن ربحهم إنما يكون في ذلك، وكثيراً ما يوجد هناك أحجار وآثار عليها كتابات جمة لا يوجد من يحل معانيها.

مزارعها وعيونها:

يتخلل القطر الحضرمي رمال متنقلة غير واسعة، كما أنه يوجد في فجاج الأودية مزارع حسنة إلا أنها أيضاً ليست بذات اتساع يذكر، وكلها الآن عامرة ما عدا جزء صغير منها، ولكن آثار العمران السابق ظاهرة، وكذا مجاري المياه والآبار المعطلة والسدود المهدومة والعدد الجم من خرائب القرى المبعثرة هنا وهناك ما بين معلوم الاسم ومجهوله، وجاهلي العمارة وإسلاميها، كل ذلك يشهد على ما كان لذلك القطر قديماً من الحضارة والعمران، وإنما نضب كثير من العيون والآبار لجرف السيول مجاريها سنة بعد سنة إلى أعماق بعيدة انجر بها إلى البحر ما تمد به تلك

العيون والآبار من الماء. وبذلك زاد الجفاف، وقلَّ العشب وضعف نتاج ما بقي معموراً من الأرض.

والحراثة بحضرموت معتمدة على البقر والحمير، ولا تزال الطريقة في انتزاح الماء من الآبار على ما كانت عليه في سالف الأحقاب من استخدام النواعير والدواليب القائمة على الأعمدة الخشبية غالباً، وفي السنوات الأخيرة تهافت زراع حضرموت على اقتناء الماكينات النازحة للماء من جوف الأرض والثجاجة بقوة أضعاف ما تخرجه الدواليب، على أنه لا يزال اليوم بحضرموت عيون في جوار الساحل وفي بعض الأودية يزرع عليها النخيل والحبوب وغيرها.

صادراتها:

التبغ الحمومي هو أهم الصادرات من تلك الناحية، وتوجد أيضاً فيها أنواع التمر بكثرة، والبر والذرة والدخن وحبوب أخرى، وما لا يذكر من الفاكهة والبقول، ويسير من القطن الهندي، ويخرج من غربها وما فوقه عسل كثير لا يضاهيه غيره حسناً وحلاوة، وفي جبالها اللبان الشحري والصبر والمر.

عبقرية الحضرمي:

الحضرمي كغيره من العرب ذكي الفؤاد نشيط البدن شجاع القلب حاضر الذهن قوي الذاكرة، ثم إنه جسور على خوض الغمرات، بعيد الهمة كبير الطمع محب للعمل جموع للمال مقتصد في النفقة إلى حد التقتير، ثابت في ما يشتغل فيه إلى حد الجمود، دمث الأخلاق موف بالعهد ألوف عطوف خفيف المئونة قلما ينزل بقوم فيستثقلون ظله أو يملون ثواءه بل ينزلونه في القلوب ويقاسمونه الأوطان عن رغبة ومحبة وغبطة، وأسس الحضارمة في جزائر الهند الشرقية عدداً وافراً من المدارس العربية، ونشروا اللغة هناك وجلبوا المعلمين من مصر والحجاز وحضرموت ورتبوا لهم الرواتب الكافية.

ولقد أقلقت مسألة الحضارمة الحكومة المستعمرة بتلك البلاد برهة طويلة، حيث التجأت إلى دوس عدالتها بالضغط عليهم وتنفير الأهالي منهم، ومنعهم بتاتاً من دخول بعض المقاطعات الجاوية إلى عهد غير بعيد، إذ تصدى المستشرق الشهير سنوك هور غرونجه لهذه المسألة فحلها حلاً نهائياً، وبذلك زال سوء التفاهم السائد بين الدولة والحضارمة وحل مكانه الوئام والثقة المتبادلة قال العلامة الأمير شكيب أرسلان في هامش كتاب حاضر العالم الإسلامي ١-٦٧-:

ثم أن هناك بجاوا مسألة مهمة يقال لها مسألة الحضارمة، وهذه تكرث الحكومة الهولندية أكثر من كل مسألة سواها في الجاوا، لأنه معلوم كون أهل حضرموت من أقدم أهل الأرض على الأسفار، وأن فقر بلادهم مع مضاء عزيمتهم يحملانهم على جوب الآفاق، وأكثر ما ينتشرون في الجزائر الجاوا والبحر المحيط، فكانت الحكومة الهولندية تحسب لهم حساباً كبيراً لشدة ما يضيق صدرها بهجرتهم إلى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الإسلامية أو ينبهوا الأهالي السذج إلى الأمور التي لولا الحضارمة ربما لا ينتبهون إليها، فما زالت تضع الحواجز أمام نزولهم في تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم وهي تحتج لذلك بكونهم في الأكثر أفاقين لا يأتون لجاوا بشيء من رؤوس الأموال، وأنهم هم يمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضرموت فلا يحق لهم إذاً أن يطالبوا بدخول بلاد هولندا، وبناء على ذلك فقد ضُويق الحضارمة.....

ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول واستوطنوا تلك الديار وصاروا من أهلها، فترتب على ذلك أن الحكومة الهولندية التي من الأصل غير مرتاحة لوجودهم بين مسلمي جاوا لكيلا تسطو حصافتهم على سذاجة هؤلاء ويوقظوهم من غفلتهم التي هي درة الحلب الاستعماري. فقد

جعلت تضيق عليهم في غدواتهم وروحاتهم وتنغص عليهم عيشهم، وتفعل ما شاءت لتحملهم على ترك تلك الديار.

فالأستاذ هور غرونجهه يتكلم على هذه المسألة بما يلي تعريبه:

إن عدم قبولنا للحضارمة من الأصل لم يكن مخالفاً للعدل، وكانت له أسباب يمكن أن نعذر عليها. وأخيراً سمحت لهؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها، لكنها بعد أن سمحت لهم بالإقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لا تطاق، وربما كانت سياسة المأمورين الذين تختلف أنظار بعضهم عن بعض في الشدة وعدمها مدخل في تشديد هذا الخناق على الحضارمة بحيث أصبح العربي لا يملك هناك شيئاً من الأمان على حاله واستقباله.

هذا ما يقوله الأستاذ سنوك عن حال طوي بساطه منذ نحو ثلاثين سنة، وأصبح الهولنديون لا يرون في الحضرمي ذلك الشبح المرعب الذي كان يصوره لهم الخيال الفاسد. وقد برهن الحضارمة هناك على تعقلهم وحبهم للإصلاح بما يطمئن رجال هولندا ويعرفهم فضلهم.

الحضارمة والهجرة:

لم تزل الهجرة من دأب الحضرميين منذ عرفهم التاريخ، وقد ملأوا سواحل الصومال وغيرها في شمال افريقيا في سابق العصور قبل الإسلام وبعده، وطالما انتشرت جالياتهم في العراق ومصر والسودان والأندلس وغيرها بعد الفتح الإسلامي فكان لهم ذكر وأثر لا ينسى.

وقد عد الأسيوطي في كتابه (حسن المحاضرة) جماعة من الحضارمة نالوا بعصاميتهم منصب القضاء بمصر، ولنشاطاتهم في الإسفار وشغفهم بالتجارة واعتمادهم على الكسب من البلاد البعيدة توغلوا في أفريقيا فأسلم بدعوتهم من أسلم من الحبشة والصومال وشرقي أفريقيا إلى رأس الرجاء الصالح ومن في

الجزائر التي بجوار تلك السواحل مثل مدغشقر وجزائر القمر، ولهم في الشطوط الجنوبية من الهند ومثلها الشرقية منها آثار حميدة ومقام سام في بروما وسيام وسو مطرا وجاوا وفليبين وما جاورها، ويبلغ عدد مسلمي هذه الأصقاع النائية الفسيحة أكثر من مائة مليون نسمة كلهم إلا الغرباء فيهم وقليل ما بينهم هم على مذهب الإمام الشافعي (رضي الله عنه) الذي هو مذهب الحضارمة، وقد صار للحضارمة هناك عز كبير ونفوذ واسع النطاق وثروة طائلة وإمارات متعددة، ولم يزل إلى الآن بيدهم من ذلك شيء له قدر أن حفظوه ونموه.

هذا أيها السادة ما رأيت إلقاءه عن حضرموت والحضارمة ملتزماً فيه سبيل الإيجاز والحمد لله على كل حال والسلام.

* * *

نحو اتحاد حضرموت الكبرى[١]

توطئة في مدلول اسم حضرموت:

مسمى إقليم حضرموت فيما يقع عليه التحديد المعمول به اليوم هو: ما تشمل بلاد القعيطي والكثيري والواحدي ومهرة. أما أوسع تحديد لإقليم حضر-موت – أي ما يضم حضر-موت ومخاليفها قاطبة – هو: ما يشمل جميع المقاطعة فيما بين عدن أبين وعمان في رأي الحركة المطالبة بالاتحاد لحضر-موت، والتي تستند فيه إلى ما تحويه التقارير الرسمية، ويؤيده النقل التاريخي في تحديد حضرموت.

الدعوة إلى اتحاد حضرموت قديماً:

ورغماً عن قدم تعدد السلطات في حضر-موت، فإن الاتحاد العام كان يشملها كلها، والشعور بأن القطر كله شيء واحد، متحدة منافعه ومصالحه وتقليده، متمكن في كل أفراده رجالاً ونساء كباراً وصغاراً، فإن حضر-موت إلى العهد القريب كانت سعيدة بوحدتها تتمتع بلذة الاتحاد الحقيقي المعنوي، فكانت سادتها وسلاطينها ومناصبها وقبائلها وأبناء حاراتها تكون مجموعة وطنية متينة المراس رافعة الرأس، صالحة لجلائل الأعمال، لو وجدت لها قائداً محنكاً.

وقد ورد في تاريخ حضرموت ما يشير إلى أنه قد يعتريها داء الشتات المعنوي الذي نتذمر منه الآن، بيد أن رجالاً من نشطائها وعقلائها سرعان ما يتداركون الأمر باستشارة الرأي العام عن طريق القادة والأعيان، فينهضون بالدعاية العامة حتى يعيدوا المياه إلى مجاريها.

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بقصر المنيصورة بمدينة تريم سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

ففي أوائل القرن العاشر الهجري بدأت العرى الحضرمية تتفكك، وأخذت المقاطعات الوطنية يظهر تغايرها من بعضها تغاير التيوس في زرائبها، فقام رجال من علويي البلاد وقبائلها، فعقدوا مؤتمراً بشعب نبي الله هود قرروا فيه تشجيع السلطان بدر بن عبدالله الكثيري على الاستيلاء على القطر كله، ولم يزل السعي متواصلاً حتى تملك السلطان المشار إليه العوالق إلى ظفار وزال ما يشتكى منه، وفي سنة ١٦٢١هـ قام أمثال الأمام الحسن بن صالح البحر وعقلاء عصره، فزحزحوا عن البلاد ما ألم بها من التحزبات التي تركتها الفوضوية البائدة، وكاتبوا الدولتين الفتيتين، وأرسلوا وفداً إلى الهند وبني العاهلان عوض بن عمر القعيطي وغالب بن محسن الكثيري سلطنتيهما على أساس التفاهم والاتحاد. وإن لم يكن ذلك بالمعنى الاتحادي السائد اليوم إلا أن الشتات الحضرمي والتحزبات الفاتكة بجسم الأمة والبلاد قد انقطع دابرها.

العوامل الطبيعية لتكوين الاتحاد:

إن حضرموت في سبيل اتحادها السياسي لا تعوزها في يوم قط تلك العوامل التي تأخذ الشعوب عادة في التماسها، وتطلب توفرها متى أرادت أن تبني عليها أساس وحدتها السياسية، فعوامل الاتحاد أصيلة وطبيعية فيها طبيعة وحدة أرضها، وبديهية بحيث لا نستقل عنها بناحية تتطلب الوضع أو التقرير أو التدليل، ذلك لأنها في المتناول القريب، وأظهر من أن يشار إلى حقائقها القائمة على التاريخ والجغرافيا واللغة القومية.

أما وحدة الروابط التاريخية فمعروفة. وكانت حضرموت في عصور كثيرة تجتمع في وحدة سياسية قائمة بنفسها أو جزءاً متحداً، أو ولاية واحدة لدولة تشمل اليمن والجزيرة العربية، والعهد بالعصور الإسلامية وما قبلها وما بعدها في تأييد ما ذكرناه ليس بالبعيد ولا بالمجهول.

وهكذا فالوضع الراهن ليس غير نتيجة لذلك الانحلال الذي عم العالم العربي في العصور المتأخرة، وطرأ عليه طرؤاً ألجأت إليه تلك الظروف الملابسة والأحوال المختلفة لتلك العصور، فلا يصح الوقوف عند هذا الوضع مهما يكن في شيء لا سيما في هذا الوقت الذي تشتد فيه حركات نيل الوحدات.

وأما وحدة الجغرافيا فيكفي أن تكون حضر-موت إقليماً وأرضاً واحدة لا يفصلها عن بعضها أي حاجز يمكن أن يناط به تعليل لتجزئتها، وأن بلاداً لا تزيد مساحة أرضها عن بضع مئات من الكيلو مترات لأقل من أن تتجزأ السياسة والإدارة العامة فيها إلى وحدات تعمل غير متحدة وغير متعاونة.

لو لم يكن إلا معاهدة عدن سنة ١٣٣٦هـ بين السلطانين القعيطي والكثيري والمجددة سنة ١٣٥٨هـ قد وضعت حجر الزاوية لاتحاد إقليم حضرموت سياسياً لكان في ذلك غنى عن بحث الموضوع في إطالة.

أما اللغة القومية والدين والمذهب فأيسر- من أن يدلك على وحدتها، بل الغرابة أن يبقى هذا الإقليم من الجنوب العربي منقسماً سياسياً ومتفككاً إلى اليوم مع توافر العوامل والدواعي المحلية بل والعالمية، والاتحاد بعد بأي شكل من أشكاله أمر ضروري إن رام الحضر-ميون أن يكون لهم مستقبل سعيد، ومكانة محترمة، لذلك فإن ما ينبغي التوجه له بالتقرير والإيضاح هو فقط مزايا هذا الاتحاد، ونتائجه الحميدة الكبرى، ويكفي إجمالاً أن يكون بطليعتها وبالجوهر منها توحيد أنحاء حضر-موت وسيرها المشترك نحو العلا والرقي، وتأمين مستقبلها من الطوارئ المهددة لكل إقليم متفكك العرى منحل الأجزاء.

مزايا اتحاد حضرموت:

وحدة المصالح والأهداف وهي التي سينطوي شرحنا هنا لمزايا الاتحاد على الإشارة إلى الجانب منها وذلك كما يلي:

وتفصيلاً لبعض ما يمكن أن نلم به في هذا المقام، فإنه مما لاشك فيه أن توحيد السير في الشؤون والنظم العامة وانسجامها في جماعة من الناس في أي مكان وأي زمان عامل كبير للرفاء والسعادة والقوة لتلك الجماعة، ذلك لأن هذا الاتحاد سيعم جميع الشؤون، ويقرب جميع الاتجاهات الثقافية والسياسية والتشريعية والاقتصادية والمالية وغير ذلك فيما بين مختلف أنحاء الإقليم وحكوماته، ويمكن حضرموت حينئذ التدرج لأن تخطو خطواتها الثابتة المتزنة في المستقبل نحو الإصلاح الاجتماعي الشامل، ومن الالتحاق بقافلة شقيقاتها من الأقطار والأوطان العربية الأخرى في تكوين العالم العربي ووحدة الشعوب العربية.

أما الناحية الثقافية ويعني الاتحاد فيها أنه في يوم تصبح الوحدة وتتحقق بحضرموت، فإن التعليم وهو الركن الأساسي لكل نهوض اجتماعي سيتخذ منهجاً وغاية، ويعم كل ناحية وكل نقطة من حضرموت، فيتخلل بفضل الاتحاد فيه كل مدينة وكل قرية بصورة تجمل حضرموت ذات النسبة الكبيرة في الأمية اليوم، لا يأتي عليها ردح من الزمن إلا وقد قطعت شوطاً بعيداً في مدارج الرقي الثقافي.

وأما تطبيق الاتحاد سياسياً لإقليم حضرموت وهو ما ندعو إليه بهذه الحركة اليوم فرغم أننا لا نتعرض لشكله ووضعيته- مادام الرأي العام لم يتكون بعد، فإنه لو لم يكن من نتائجه أيضاً إلا ترويح أفكار الشعب هنا وهناك من الاشتغال بمسائل هي محض ضياع جهود ووقت- لكان ذلك ربحاً عظيماً، هذا إلى أن الاتحاد عندما يتم تشكيله سيكون له بالطبع مجلس مركزي تتمثل فيه رغائب مجموع الأمة وإرادتها في تقرير سيرها وتنظيم شؤونها.

أما الناحية الثالثة: هو التشريع الذي هو أهم السلطات الحكومية فإنه سيجري وضع الأنظمة والقوانين بمقتضى إرادة الأمة ورعاية مصالحها الحيوية، وستدرس المشاريع والميزانيات وتنسيق الضرائب وكل ما يعود بحثه ووعضه من الخطط العمرانية لخير الأمة ونفع العموم حيث يتم ذلك بمساعدة الحكومة الحامية وتحت إشرافها.

وأما في الناحية العسكرية والمالية وشؤون الجمرك والمواصلات والصحة ونحوها فإنه سيعود الاتحاد في تنظيمها وانسجامها على نسق واحد بكثير من موفور المزايا والفوائد.

وفي الناحية الاقتصادية مما لا شك فيه أن جعل الإقليم الحضرمي في وحدة اقتصادية لهو أمر جوهري للحياة بهذا القطر الحديث في عمرانه، ولقد يتضح من نواح أن فقر حضرموت ناتج عن تجزئها، وعن تكوين وحدات سياسية بها لا تستطيع العيش الاقتصادي منفردة أو مجزأة، فالمصلحة الاقتصادية المشتركة بين المناطق الحضرمية ترينا أن زوال التجزئة وإيجاد الاتحاد وتكوينه أمر يؤدي إلى خلق حياة اقتصادية وانتعاش اقتصادي يتلوه الرخاء والرفاهية.

تأييد السياسة الدولية للاتحاد:

وترى السياسة الدولية الحاضرة أن السلام المقبل يقضي بإيجاد تحالف أو اتحاد بين الشعوب المتجاورة الصغيرة فضلاً عن شعب واحد تتوافر العوامل على تكوين وحدته، وإن مركز حضرموت الجغرافي بصفته مفتاح أبواب بلاد العرب في الجنوب، والذي يتكون منه جزء عظيم من القنطرة الموصلة فيما بين جنوب شرقي افريقية والهند- يجعل منه موقعاً مهماً من الخير الكبير له بل وللسياسة الدولية العامة أن يتحد ويلم شتاته وأن يتعاون والحكومة الحامية على الوقوف تجاه طواري الهزات السياسية، وعلى الثبات أمام المفاجئات والتقلبات.

وإنه لا يلاحظ من التصريح الذي أدلى به المستر أيدن وزير الخارجية البريطانية ١٩٤١م تجاه ما تشعر به الحكومة البريطانية من رغائب العرب في اتحاد أنفسهم، أن هذه الحكومة تنظر إلى مشاريع التكتل والاتحاد في البلاد العربية ذات الموقع الاستراتيجي الخطير بعين العطف والارتياح، فلقد جاء في هذا التصريح قوله: "إن كثيرين من مفكري العرب يرغبون في أن تتمتع الشعوب العربية بنصيب من الوحدة أكبر من النصيب الذي تتمتع به الآن، وهم يأملون منا المعاضدة في بلوغ هذه الوحدة، ولا يجوز لنا أن نغفل أي نداء يوجهه إلينا أصدقاؤنا بهذا الصدد، ويبدو لي أن من الطبيعي ومن الحق أن تتوثق الروابط الثقافية والاقتصادية والروابط السياسية بين الأقطار العربية، وستعاضد حكومة جلالته معاضدة تامة أي مشروع ينال الموافقة العامة".

وفي تصريح آخر له سنة ١٩٤٣م ألقاه بمجلس العموم البريطاني جاء فيه: " ن حكومته تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب لتعزيز وحدتهم الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية، ولكن من الجلي أن الخطوة الأولى لتحقيق هذا المشروع يجب أن تكون من العرب أنفسهم".

وغير خاف على المطلعين على اتجاه السياسة العالمية التي تخدم العلم والأمن العالمي وما تبديه من ارتياح ونشاط لتوحيد البلاد التي يتكلم أهلها بالعربية، وتزيد الصحف الانكليزية خاصة في صراحتها بأن العالم العربي يجب عليه أن يزيل من نفوس زعمائه ورؤسائه كل عوامل المنافسة والمزاحمة وإلا ضيع هذا العام الفرصة النادرة التي سنحت لتقوية اتحاده وتثبيت جامعته.

آمالنا:

وإنه ليؤمل أن تتلاقى أفكارنا في هذه الغاية مع أفكار الكثير من رجال حضرموت ممن هو حضرمي بالمعنى العام يعمل على جمع شتات الأمة الحضرمية،

ويجد في تكوين وحدتها بحيث يكسبه إخلاصه وكده مكانة رفيعة، وكلمة مسموعة في عرض البلاد الحضرمية وطولها، أجل إنه لمن المؤسف عدم ظهور مثل هذا القائد المحنك – ولكن هي الوطنية الصادقة والسمو الفكري وقوة الإرادة كل ذلك عوامل تحرر الرجال من القيود المحلية- وتطهرهم من المآرب الشخصية وتسمو بهم إلى مرتبة لا يصل إليها إلا من كان في درجتهم وطنية وسمو وضمير وقوة وإرادة.

وبهذا يتجلى لنا – أيها المواطنون – ضرورة الإسراع لتلبية نداء الظروف الحاضرة بالدعوة إلى الاتحاد.

وخاتمة القول بهذه المحاضرة أيها المواطنون الأعزاء؛ أن يكون شعارنا مع العاملين للوئام؛ إننا أمة تشكو الشتات والانقسام وعلينا أن نوجد رأياً عاماً حضرمياً يحقق الاتحاد المنشود. فحمى الله الاتحاد ولا أقال عثرة الفرقة والشتات، والله ولي التوفيق للعاملين، والآخذ بأيدي المخلصين.

* * *

العلويون والهجرة

إنَّ الهجرة من الأمور السامية التي تدل على علو الهمة، وشمم النفس، إذا كان الغرض منها السلامة من الهون والبعد عن الدون، والنجاة بالكليات الخمس عن أن ينالها خطر ما، أما إذا أخذ الإنسان فيها منحى آخر، كأن ينفق ما يقع في يديه من مال في رغائب النفس ومشتهياتها، ثم يرحل ليكتسب عوض ما أنفقه، فليس هو بالرجل الأبي التي تحمد هجرته، وتشكر وطنيته، وتحمد عقباه.

ألم تخسر حضرموت من أبنائها أكثر من مائة ألف مبعثرين في جاوا ورنيو وسمطرا وسليبس وجزائر الملوك وأراضي الملايو والهند وافريقيا الشرقية وغيرها، مع أن الناجحين من هؤلاء في جمع الثروة لا يتجاوزون العشرات، ثم إن ثروة الحضارمة بمهاجرهم التي يتنعمون بها بهذه البلدان وبمصر وعدن وبلاد الحبشة وغيرها ولا تقدر بأقل من مائة وخمسين مليونا من الروبيات، فكيف لو أن نصف هذا المبلغ فقط حمل إلى حضرموت واستثمر بها لفتحت في البلاد موارد ثروة طائلة تفيد البقعة والشعب والحكومة معاً.

ولكن أنى للظل أن يستقيم ما دام العود معوجاً، والفوضى باسطة ذراعيها في البلاد، والآن وقد صحت بحوله تعالى نية السلطان على توطيد دعائم الأمن وتنشيط همم العاملين، فإن من المتوقع أن يتراجع تيار الهجرة إلى الخلف.

أما العلوي فقد عرف منذ القديم بحب الهجرة، لإحراز المجد، واقتناص المعالي. ولم تكن أسباب هجرة العلويين وتنقلاتهم دائماً اقتصادية، ولكن التاريخ ينبأ بأن فرارهم من الضيم ورغبتهم في نشر الدعوة الدينية وجفولهم عن الذل وعدم صبرهم على الهون كل ذلك أكثر ما يدفعهم على نبذ الأوطان، ومغادرة الخلان.

والعلويون منذ ١٣ قرناً كانوا لا يزالون رواد الحضارة، ودعاة الدين، وجواب الآفاق، حتى بلغوا شطوط الجزر الشرقية القاصية، وتجاوزوا بلاد الصين إلى جزر الملوك ونواحي استرالية وأفريقيا وجزر القمر، فكانت منهم شمالاً وجنوباً أمراء ووزراء وقواد وسلاطين، تطيعهم الجيوش وتعنو لهم الرقاب.

وقد كانت الهجرة بحضرموت مقصورة بادئي بدء على العلويين الذين يفتأون يشدون رحالهم إلى هنا وهناك، ثم سرت عرواء الهجرة منهم إلى غيرهم من المواطنين من جميع الطوائف الذين أخذوا يقتفون آثارهم، حتى طغى طوفان الهجرة أكثر مما يجب.

قلنا إن للعلويين حظاً أوفر من الهجرة والتنقل في البلاد أسوة بجدهم الأعلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي غادر ربوع مكة المحبوبة وأمَّ طيبة التي وجد بها من الحرية في نشر الدين ما لم يجد بعضه في تلك. ثم تلاه علي بن أبي طالب فنقلته ظروف الأحوال إلى العراق، ثم تتابعت هجرات الأحفاد الذين يرون أن الأرض أرض الله والناس عباد الله فعادوا إلى الحجاز مرة أخرى .

ونقول إننا مذ الآن نقصد في بحثنا هذا بذكر العلويين هذا العنصر العلوي الذي ألقى ترحاله بحضرموت منذ أكثر من ألف سنة، إذ لا يتسع الفصل بسرد هجرات العناصر العلوية بأسرها.

وأول هجرة لهذا الفرع هي هجرة الإمام أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن السبط الحسين. فقد هاجر من العراق الخصبة إلى هذه الديار سنة ٣١٧هـ بطريق الشام أيام كانت المواصلات متعسرة وأهوال الأسفار كثيرة. فقد فر بدينه من الاضطرابات السائدة إذ ذاك في إقليم الخلافة حاملاً معه بقية عائلته وخدمه وحاشيته، الأمر

الذي يستلزم همة سامية، وثروة طائلة، وقوة إرادة جبارة. فأقام أولاً بالهجرين، ثم غادرها إلى الحسيسة، ثم انتقلوا منها إلى قارة جشيب، ثم رحلوا عنها إلى سمل، ثم تحولوا عن سمل إلى بيت جبير، ثم تركوه إلى تريم واستوطنوها. ومنها انتشرت فروع شجرتهم إلى جميع أكناف الوادي الذي أصبح لهم وطناً حقيقياً. وكلما مرت السنون وتعاقبت القرون زادت في استيعاب لوازم الوطنية لهم، وجعلت لهم من الحقوق أكثر مما لكثير غيرهم من المواطنين.

وكانت الظروف القاهرة وكما هي الآن ترغم منهم الأفراد والجماعات على الرحيل، وارتياد البقاع الملائمة للمصلحة المطلوبة. وفي القرن الثامن اتسعت مهاجر العلويين اتساعاً عظيماً فشملت الحبشة وأفريقيا الشرقية التي يسمونها السواحل، والهند ثم جزائر الأرخبيل الملايوي وما يليها.

وفي حوالى سنة ١١١٨هـ تأججت نيران الاضطرابات بحضرموت، فتضاعفت أسباب الهجرة فامتلأت منهم زيلع وخنابسة وهرر واوسة وغير ذلك من بلدان الحبشة، ومقدشوه ومركة وحلاوي وكياوة وكسمايوه ومباسة وزنجبار والجزيرة الخضراء وغيرها من بلدان السواحل وانقيزيجة، ومولاي وهنزوان وذوني ومابوت ومدغشقر وجزائر القمر.

ومن بلاد الهند بيجافور وانك أباد ودولة أباد ودلهي وغفرة ومليبار وسورة وبنقالة وغيرها كثير. ومن سومطرا جانبي وفليمباغ واتشه وفادغ ودلي وغير ذلك من بلدان الهند الشرقية. قالت مجلة الرابطة في عددها (٥) من المجلد الثالث: "ولو اعتنى من قبلنا بتاريخ هجرتهم إلى الحبشة والهند ثم جاوة، وحفظوا لنا ما وقع لهم من الحوادث، وما وقع منهم في نشر الدين والدعوة إلى الله فيها، وكيف لقوا أهل تلك البلدان، وكيف كانت مداخلتهم لهم. لكان لنا من ذلك كنز ثمين وأخبار تجمع بين الفائدة والفكاهة. أخبار تعلي الهمم وتدلنا على الشجاعة

واقتحام الاخطال فكم لاقوا من أهوال البحر وتقلبات الأمواج في مختلف البحور .

فإنما كانوا يعتلون أثباج المحيط الهندي في مراكبهم ذوات الأشرعة من سواحل حضرموت أو من ظفار إلى مليبار وكالبكوت، وقد يمرون بديو قبل ذلك، ثم يذهبون إلى شواطئ بلاد الهند ثم يلجون إلى سومطرا فجاوة. وما كانت مراكب البخار إذ ذاك معروفة فكانت تقع لهم في أسفارهم حوادث ووقائع غريبة مريعة. ولقد كانوا يتبارون في المراكب الشراعية والاستكثار منها فهي عندهم كالنتيجة اللازمة لاتساع الثروة.

إن ما بقي بأيدينا من الوسائل التاريخية ليدلنا على أنه قد مضى لأول علوي وطئت قدمه سواحل آتشي ما يناهز ٤٠٠ سنة، فكم يكون عظم تاريخ يجمع وقائع ٤٠٠ سنة من الدعوة إلى الله ونشر الدين وعمل الفضائل.

ولعل أول هجرة للسادة العلوية من حضرموت هي من بعد توطنهم بها بنحو ٢٠٠ سنة، وذلك إلى مرباط وهي ظفار القديمة التي أمها في ذلك الوقت الإمام محمد بن علي بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيدالله بن أحمد المهاجر، فقد بارح تريم وكان كثير الترحال، واختار مرباط وألقى بها عصا التسيار، وكان بها منهلاً للواردين وملجأ للقاصدين، وتوفي بها سنة ٥٥٦هـ. ثم تتابعت هجرة العلويين إلى مرباط وظفار وما حولها وبذلك دخلت هذه البقاع في الشهرة التاريخية، وأصبحت ظفار بمثابة مهجر للحضارمة عموماً ثم دخلت أخيراً في حوزة الدولة الكثيرية، وظلت زاهية زاهرة بجماعة من أفذاذ السادة العلوية وغيرهم من العلماء الأعلام.

أما جزاير القمر والواق واق من أقاصي الأرض، فإن الهمم العلوية لم تشاء أن تحجم عن التوغل في تلك البقاع المجهولة بقلب افريقية المتوحشة التي لم يصل إليها بعد بصيص من نور التمدن.

فنحن لا ندري ولا التاريخ جعلنا ندري، ماهي الأتعاب التي قاستها تلك الهمم الكبيرة التي تقتحم الأخطار إلى تلك الجزاير القاصية حاملة معها دين التوحيد تنشره بين أمة بعيدة عن المرونة الأخلاقية لم تدرس بعد لغتها ولم تتمرن على طباعها. ثم يجعلها بعد عشرات السنين مصبوغة بصبغتها خاضعة لإرادتها. حقاً إنها لهمم عظمى. ولقد أصبحت السلطة الإدارية والسياسية في جزاير القمر بيد السادة العلوية فكانت السلاطين فيها من السادة آل الشيخ أبي بكر بن سالم. وقد نشرت منذ سنوات مجلة الهلال مقالة وردت إليها من جزاير القمر بإمضاء الأمير علي بن السلطان سالم بن السلطان علوي القدري العلوي الهنزواني.

ونشرت الهلال إمضاء ورسماً للسيد السلطان محمد بن السلطان عمر بن حسن العلوي سلطان جزيرة هنزوان من جزاير القمر. وهو رجل مديد القامة، مستدير الوجه كث اللحية متوقد العينين، يلبس عمامة هرمية الشكل قد استدار حفافها فوق جبهته، متدرع بجبة من الجوخ الأسود ذات أعلام وطراز في أكتافها وأكمامها، وقد وضع أمام منطقته جنبية عربية ماسكاً سيفاً عربياً طويلاً.

وفي الهند بلغ العلويون القدر المعلى في نشر الفضائل، والدلالة على الهدى ونفع العباد، وكان لهم المركز السامي، والكلمة النافذة لدى ملوكها وعظمائها مما يطول تفصيله عن هذا المقام. ومن يقرأ تاريخ السادة آل العيدروس والسادة آل بن سهل مولى خيلة والسيد زين بن عبدالله جمل الليل العلوي وغيرهم يرى العجب من عصامية القوم وحسن درايتهم. وطيب أخلاقهم.

وهذه جزاير الإندونيسيا مهجرنا الحالي لا تزال ناطقة بأفصح بيان عما قام به المهاجرون العلويون من الأدوار العظيمة في تاريخها السياسي والديني، وهذه آثارهم ما فتئت نصب أعيننا تمجد تلك العبقرية التي لم تذهب حتى سطرت لها على صفحات التاريخ حروفاً بارزة بمداد الشرف والفخار.

هذا والله أسأل يعضد هذه العصابة الطاهرة ويلهمها رشدها.

* * *

محاضرة (جاوا وأهلها)[١]

الدور الهندي

الهندوس هم مبدأ تمدين الجاويين وتهذيبهم، وقد قدم هؤلاء من جنوبي بلاد الهند، دكن، وكاليغ، وسيلان وغيرها قبل المسيح بقرون طويلة متجرين ولم يكونوا فاتحين أو مستعمرين، إلا أنهم أخذوا يحكمونهم تدريجياً لتفوقهم عليهم في العلم والقوة والزراعة والصناعة وكل شيء فتلقى الجاويون عنهم السبح والبناء والهندسة والحساب والموسيقى وغير ذلك من الفنون التي لم تعرف عندهم قبل قدوم الهنود، وهم الذين جعلوا أيام الأسبوع خمسة أيام فقط، ولا تزال كذلك عند الجاويين حتى الآن، وأن تكون القوة اليوم للأيام السبعة الشائعة المعروفة بأسمائها العربية.

وكان بدء هجرة الهنود إلى جاوا الغربية، فمكثوا بها مئات السنين قبل أن وطئوا جاوا الشرقية التي كانت بعد مظهر عظمتهم ومقام سلطانهم.

وبعد أن رسخت أقدامهم في البلاد، وتملكوا زمام الأمور أسسوا لهم مدينة موجو فائت العظمى والعاصمة المهيبة التي امتد سلطانها بعد ذلك إلى بلاد شاسعة في الشرق والشمال جزائر بالي وجزائر الملوك وطرفاً من برنيو ووصل في الشمال الغربي إلى رأس ملاك وأقصى سومطرة.

وقد قسم الهنود السكان إلى أربع طبقات كما هي عادتهم في بلادهم: البراهمة، وهم رجال الدين والرؤساء الروحيون، ثم الستريا ويعنون بهم الملوك والوزراء والجنود...إلخ، ويأتي بعدهم الؤسيا وهم رجال الزراعة والتجارة ونحوهما، وتليهم الطبقة السفلى وتسمى السودرا أي الإخوان وهم ضعفاء

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بدار نقابة الرابطة الشرقية بمصر سنة ١٣٤٥هـ. وهذا عبارة عن جزء من المحاضرة والجزء الأول منها لم أعثر عليه بعد.

الناس والعبيد ونحوهم، وقد محا المذهب البوذي منذ أن دخل جاوا هذه العادة، وتهافت الناس عليه حينذاك.

وفي هذا الدور بدأ الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً بواسطة تجار من العرب لم تكن الدعوة إلى الإسلام هي الأمر الوحيد الذي دخلوا جاوا لأجله، بل كانوا يتعاطون التجارة قبل كل شيء، ولكنهم - رحمهم الله - انتهزوا الفرصة وأحسنوا الدعوة وأخذوا بادئ بدء يبثون روح الإسلام بين معاشريهم ومعامليهم فقط، ولما أحسّوا بالنجاح ورأوا الإقبال عظيماً شمّروا عن ساعد الجدّ وصدعوا بنشر الدعوة.

إلا أنهم مع هذا كله لم تزل دعوتهم سلمية حتى شاركهم في نشر الدعوة الأهالي أنفسهم الذين بدؤوا لما استفحل أمرهم يقابلون المتعرضين والمعرقلين بالشدّة، وإعلان الحرب.

وفعلاً بدأت المعارك الدموية بين المسلمين والبوذيين، وكان أول من جرّد السيف من المسلمين هو الرادين رحمت ريب تلميذ الملك إبراهيم المتوفى بقرسي سنة ٨٢٢ هجرية ضد ملك موجرفائت.

الدور الإسلامي:

في أوائل القرن التاسع الهجري بنى المسلمون مسجد دماك المعروف، وهو أول مسجد بني في الإسلام هناك، ولم يزل مشاهداً حتى الآن.

وقد ظل سمو الملك مرجوفائت معرضاً كأنه لم يعبأ باستفحال الإسلام أول الأمر، ولم يقصر من قاوم هذا الدين الجديد، ولكن أمراء الجزيرة الذين تحت سلطته أخذوا يتقاطرون إلى الإسلام واحداً بعد واحد حتى لم يبق منهم على البوذية إلا هو وأمير فجاجران.

وقد كاتبه الرادين رحمت ومن معه ودعوه إلى الإسلام فوعدهم خيراً، واستمر يماطلهم، بينما هو يدسّ حولهم الدسائس أقاموا مؤتمراً قرّروا فيه الإقدام على محاربته ومحاربة صاحب فجاجران.

فزحفت جيوش الإمارات الإسلامية السبع وهي: دماك، وطوبان، وقرسي، وسوربايا، وشيربون، وماترام نحو عاصمة موجوفائت أولاً فحاصرتها نحو شهرين، ثم سقطت تلك المدينة العظيمة في أيدي المسلمين، وذلك سنة ٨٨٢ هجرية، وبسقوطها تقلّص ظل المملكة الهندية من جاوا تماماً إذ دخلت بعدها بأيام إمارة فجاجران في حوزة المسلمين أيضاً.

أما ملك موجوفائت فأشعل على نفسه وبعض حظاياه مستودع البارود وذهب ضحية ذلك، وهرب كثيرون من الأسرة المالكة إلى شرقي فاسودوان فأسسوا بوذية هناك، ولكن سلطان دماك تعقبهم ودمّر ما شادوا، وفرّ القوم إلى سفح جبل برد، وأقاموا فيه حتى الآن منعزلين عن الناس، ومتمسكين بدينهم وعاداتهم القديمة.

ثم أسس المسلمون سلطنة ما نارام العظيمة التي بقيت إلى أواخر القرن الثامن صورة إلى اليوم يتوجون ملوكها ويعزلهم كما يريدون، ولكن الانحلال قد بدأ بها قديماً أي عقب تأسيسها بنحو نصف قرن وذلك حينما أخذت الإمارات الأخرى تنفصل عنها لأسباب ليست هذه النبذة محلاً لذكرها.

أما تلكم الإمارات فأخذ كل منها ينتحل السلطنة لنفسه إلا أن أكبرها إذ ذاك وأشدها شكيمة هي سلطنة بانتن التي كانت سوقاً عظيمة لتجارة الفلفل وكافة أنواع التوابل، ومهبطاً ومحطّاً لجاليات الأجانب من كل ناحية.

وكان البرتغال إبان الدور الإسلامي هم الأمة المتفوقة في تجارة الشرق الأقصى، وهي التي استطاعت بمهاراتها البحرية أن تكتشف طريق جاوا من

رأس الرجاء الصالح، فكان البرتغاليون ببضائعهم التي يجلبونها من بلادهم، وما تصدره جزائر الهند الشرقية من فلفل وقرنفل ونحوهما فيبيعونه جملة بأسواق لشبونة على التجار الهولنديين، وهؤلاء يفرقونه على جميع بلاد أوروبا، وكان البرتغال يربحون بذلك أرباحاً عظيمة يحسدهم عليها غيرهم من شعوب تلك القارة.

واتخذ البرتغال جزائر الملوك قاعدة لتجارتهم، وعقدوا بينهم وبين سلطان ترنافي معاهدة تجارية جنوا منها فوائد تجارية عظيمة وطّدت مركزهم بتلك الجزائر.

وكانت الحرب الطويلة التي استمر لظاها بأوروبا بين البرتغال والأسبان في القرن السادس عشر أكبر سبب لحمل هولندة على الاتجار من الشرق رأساً لا بواسطة البرتغال كما كانت تفعل.

وذلك؛ لأن هولندة كانت حليفة الأسبان، فكان هذا كافياً لانقطاع العلائق الوديّة والتجارية التي كانت بين البرتغال وبين هولندة التي ضاقت ذرعاً بذلك، إلا أن لها من ذكاء رجالها وهمتهم ما يعوضها خيراً مما خسرته، ولم يخطر قط بخلد البرتغال أن أحداً يستطيع أن ينتهج منهجهم، أو يكتشف طريقهم التي احتكروها إلى الجزائر الشرقية، فكانوا في مأمن قوي من هذا الأمر المستحيل في نظرهم.

ولكنهم لم يعلموا أنه بتفريط أحد ملاحيهم في الاحتفاظ بخريطتهم العزيزة ليلة واحدة أصبح ظلهم متقلصاً من تلك الجزائر الذهبية إلى الأبد.

وفي يوم ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٦م بينما أهل بنتن منهمكون في أشغالهم إذا هم بالإشاعة بإقبال سفينة غريبة نحو شاطئهم، وعليها علم مثلث الألوان لا عهد لهم به، فهرع الناس إلى الميناء لمشاهدتها، وحضر هنالك أمير البحر الوكيل العام (منكوبومي) وكثير من البرتغال، وجعل الناس يتساءلون عن من ينسب إليه هذا

العلم، وماذا يريد رجال هذه السفينة، وكان البرتغال يتهامسون فيما بينهم، ومستغربين جد الاستغراب وصول الهولنديين هذه الديار مع بعد المشقة، ووعورة الطريق.

ولما أن ألقت السفينة مراسيها نزل منها القبطان دي هوتمان مع ١٦ شخصاً من رجاله إلى البر في قارب، وقبيل أن يصلوا إلى اليابس ـ والناس متجهون على الشاطئ ـ أوقفهم المنكووبوي قائلاً: مكانكم أيها القادمون، قولوا لنا أولاً من أنتم؟ وماذا تقصدون؟ فأعلى دي هوتمان، وقال له: نحن هولنديون، ولم نقصد إلا تبادل المصالح وإياكم والمتاجرة معكم فقط، فأذن لهم بالدخول، وكان ذلك صاعقة قاتلة على البرتغال.

ولم يصل هوتمان مياه جاوا حتى ذاق ومن معه الأمرين، وفتك الموت بكثير من بحارته، وكان قد غادر شواطئ هولندة في ٢ أبريل من سنة ١٥٩٥م فلم يصل بانتن إلا بعد سنة وشهرين.

وقبل سفر هوتمان من هولندة تأسست شركة الهند الشرقية غرضها احتكار تجارة هذه الجزيرة، وهي التي انتدبت هوتمان ومن معه.

وقد استفحل شأن هذه الشركة، واتسع نفوذها، وأخذت تتوسل بالقوة الحربية مراراً لإدراك مطامعها، وعقدت بينها وبين حكومة نيدرلند معاهدات وبينها وبين سلاطين الجزائر الشرقية أخرى حتى أصبحت وهي كدولة استعمارية مغتصبة.

ولم يمض مدة على تأسيسها حتى اتخذت لها عدة بوارج حربية، وطفقت تحارب البرتغال والأسبان وملوك الجزائر الذين تقول عنهم أنهم نكثوا العهود، وأول أميرال حربي قررته الشركة هو فاندرويك ثم في سنة ١٦٠٩ عينت لها أول

حاكم عام ببلاد الشرق لما اتسعت الشركة ويعينوا بأمورها وهو الجنرال ببشرلوت.

دور الشركة الهولندية:

لم ترتح الشركة بعد ذلك إلى المقام ببانتن لما كان يعترضها من ضغط السلطان ودسائسه فاختارت التحول إلى جاكرتا (بتاوي) وعقد الحاكم العام لها وهو الجنرال بطرس معاهدة بينه وبين ملك جاكرتا على أن تدفع الشركة للمملكة شيئاً معلوماً في السنة في مقابل إقامتها ببلاده.

وبالفعل انتقلت إليها وشادت بها مستودعات عظيمة ومخازن شاهقة وقلاع حصينة لجنودها.

ولما رأى ملك جاكرتا ذلك اشتد خوفه، وحالاً أصدر أمره بمنعها من ذلك، ولكن الشركة لم تلتفت إلى منعه، فعقد الملك اتفاقاً مع جماعة من الإنكليز كان لديهم معدات حربية جديدة على أن يساعدوه على طرد الشركة من بلاده.

وبعد أن اشتعلت نار الحرب بضعة أيام انكسرت الشركة، وسافر حاكمها إلى جزيرة أمبون للاستنجاد بجنوده الذين هناك، وأبقى بجاكرتا القائد فن دن يروك الذي ما لبث أن سقط أسيراً في يد الوطنيين والإنكليز.

وكان ملك بانتن حاقداً على ملك جاكرتا لقبوله الشركة في بلاده أولاً، ثم لاستعانته بالإنكليز ثانياً، فجهز حينئذ إليه جيشاً كثيفاً حاربه والإنكليز معاً ففتح البلاد وأخذ الملك والقائد فن دن بروك إلى بانتن أسيرين.

ولما رأى الإنكليز بغض سلطان بنتن للأجانب فزعوا إلى الشركة في بلاده، وعقدوا بينهم وبينها اتفاقاً على معاداة ذلك السلطان، وأقاموا لهذا الاتفاق حفلة عظيمة في بقعة من جاكرتا بنت الشركة فيها حصناً شاهقاً وسمته بتافيا.

وبعد عودة الجنرال بطرس كون من أمبون زحف بجيوشه إلى بانتن لتخليص القائد فن دن بروك من الأسر، وبعد حصر البلاد أياماً وقع الاتفاق على إطلاق جميع الأسرى، ثم قررت الشركة جعل بتافيا مركزاً قوياً لشؤونها.

السلطان الأعظم يحارب بتافيا:

السلطان الأعظم هو لقب سلطان مانارام الذي لم يرق لديه استعمار الشركة لبلاد بتافيا وجعلها ملكاً لها، فجهز عليها جيشاً يبلغ عشرة آلاف جندي، ولكن المؤن لم تكف، ومات كثير من الجنود جوعاً، وانهزم الجيش من تحت بتافيا.

وفي السنة الثانية استأنف السلطان الزحف وأعاد الكرّة بجيش عدده عشرة أضعاف الذي قبله أي أنه مؤلف من مائة ألف جندي.

وقبل وصول الجيش إلى (بتافيا) أرسل السلطان إليها جاسوساً ليكتشف مقدار قوة الشركة إلا أن ذلك الجاسوس قبض وهدد بالموت إذا لم يخبر بحقيقة الأمر فأخبر بجميع الأسرار ومؤنة الجيش البالغة كميات كبيرة وأنها مجهزة الآن بمدينة (تقل).

فلما سمع الجنرال بطرس زونكون بهذا، أمر بالاستعداد وأرسل أناساً إلى تقل فحرقوا مخازن المؤن وفشلت الحملة الوطنية.

في ذلك الوقت توفي الرجلان العظيمان السلطان الأعظم والجنرال بطرس فخلف الأول نجله مانكونيقرات وخلف الثاني الجنرال جيكوب سفيك.

دور الحكومة:

لما اتسع نطاق استعمار الشركة وكثر خصومها لم تعد قادرة على حماية ما بيدها والدفاع عنه لاسيما البرتغال والانجليز يمانعون الأهالي ضدها حقداً وحسداً ففزعت إلى حكومة ليدرلند وفوضت إليها الجزائر الشرقية محلها في

مقابل شروط اقتصادية قررت في معاهدة بينهما وكان ذلك سنة ١٨٠٠م ومن ذلك الحين أصبحت جاوا وأخواتها في حوزة الحكومة الهولندية. وفي سنة ١٨١٢م حدثت حرب بين هولندة والانجليز في الشرق فاستولى الانجليز على جاوا بقيادة المستر ريفلز ودخلوا (بتافيا) وهرب حاكمها إلى (باندوغ) ومنها إلى جاوا الشرقية فتعقبوه حتى وقع أسيراً بأيديهم بمدينة (سلاتيقا).

واستمرت جاوا تحت حكم الانجليز سبع سنوات. وبينما ريفلز منهمك في سن القوانين وإصلاح البلاد إذ فاجأته الأوامر من لندن بالجلاء عن جاوا وإرجاعها إلى هولندا. فعظم ذلك عليه لكنه لم يجد بداً من الانصياع لهذا الأمر الذي كاد يميته كمداً. وكان الاتفاق بين هولندا والانجليز قد وقع بأوربا حيث لم يدر بذلك ريفلز على شروط منها أن يستبدل الانجليز جاوا بملاكها.

ولما أن عادت جاوا تحت حكم الهولنديين طفقوا يعذبون الأهالي بالضرائب الباهظة على الأراضي والأطيان ويحكمونهم بقانون العبيد الاسبانيولي واستمر ذلك إلى سنة ١٨٧٨م فقام رجال من أحرارهم يفندون هذه الخطة الجائرة وينادون بالاعتراف بالجميل لهؤلاء الأهالي المساكين الذين آثروهم على سائر الأجانب.

ومن دعاة الحرية الهير فان كارفنتر الذي يصرخ بملء فمه بتنبيه الهولنديين من غطرستهم ووجوب تعليم الأهالي وتهذيبهم وإيصالهم إلى إدارة داخليتهم بأنفسهم.

ثم أعقبه في الدعوة إلى الحرية الدكاترة المستشرقون العالم اسنوك وزملاؤه ورينكس وغيرهم.

أما اليوم فقد تقلص عن جاوا ظل ذلك العصر المملوء بالعسف والجور وغطرسة المستعمرين ومع ذلك فالحال لم تزل محتاجة إلى الإصلاح.

محاضرة (نزهة بين النجوم)[١]

قال اللهُ سبحانه:

(فلا اقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم). [الواقعة: ٧٥–٧٦].

سبحانَ مَنْ جعلَ العوالمَ أنجما ... يسبحن عرضاً في الأثيرِ وطولا
كم قد تصادمت العقولُ بشأنها ... وسعتْ لتكشف سرها المجهولا
لا تحتقر صغرَ النجوم فإنما ... أرقى الكواكب ما استبان ضئيلا
دارت قديماً في الفضاءِ رحا القوي ... فغدا الأثير دقيقها المنخولا
فاقرأ كتابَ الكون تلق بمتنه ... آيات ربك فصّلت تفصيلا
ودع الظنون فلا وربك إنها ... لم تغن عن علم اليقين فتيلا

الكواكب – النجوم: هي تلك الأجرام اللامعة المتألقة والمنثورة على ذلك البساط المترامي الأكناف. وهي تلك الكرات العظيمة الحجم والتي تظهر لنا كأنها أحجار كريمة ممكنة في السماء الرافعة.

تظهر لنا النجوم كأنها متقاربة أو متلاصقة ولكنّ الحقيقة أن بينها من البعد الشاسع ما لا يتصوره العقل ولا تدركه المقاييس المعروفة. وأنها أيضاً لبعيدة عنا بعداً لا ندرك منه حركتها ولا سكونها. فإذا أرسلنا البصر الاعتيادي ليرتاد لنا ما نطمئن إليه من كنهها. ينقلب إلينا البصر خاسئاً وهو حسير.

ولقد تتبع الإنسان منذ القديم سير النجوم وحركاتها فاتضح له بعد النظر الثاقب والمباحث الدقيقة أن السيارات وذوات الأذناب والشهب والنيازك هذه جميعاً تعد من النظام الشمسي. متحركة حول الشمس. وأما غيرها من النجوم

(١) محاضرة ألقيت بمقر نادي الشبيبة المتحدة بتريم بتاريخ ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م.

فثابت غير متحرك أي في رأي العين، ولكنه ثبت الآن بالدليل الرياضي المتقن أن هذه الثوابت كلها شموس كشمسنا وأكبر وكل منها يجري إلى مستقر له.

ربما يسأل سائل مندهشاً كيف تقولون غير متحرك ونحن نشاهدها يومياً تغيب غرباً وتبزغ شرقاً. هنا نكلفه أولاً أن يسلم بنظرية دوران الأرض حول نفسها ثم نوضح له أن حركة النجوم هذه التي أشار إليها إنما هي وهمية وليست هي سوى حركة الأرض حول محورها. والحس أيها السادة كثيراً ما يغلط ويتمادى في غلطه لو لم يرشده العقل ويرده إلى الصواب. فمن غلط الحس أننا نرى النجوم كأنها كلها في صعيد واحد وعلى بُعد واحد من الأرض، وليس الأمر كذلك بل أن أبعادها من الأرض متفاوتة جداً لا يدرك العقل تصورها. ومن غلط الحس أننا نحسب اللون الأزرق الذي نراه محيطاً بالأرض هو لون السماء بمعناها المألوف، والحقيقة أننا لا ننظر إلا الفضاء الواسع الذي تجري فيه الكواكب، وليست تلك الزرقة سوى الهواء المحيط بالكرة الأرضية والذي يبلغ سمكه من ٦٥ إلى ٩٠ ميلاً ولو لم يوجد هذا الهواء الغليظ لرأينا ذلك الفضاء اسود قاتماً.

وقد اصطلح العلماء على تسمية هذا الفضاء الشاسع بالكرة الفلكية. والدراري تجري فيها متباعدة جداً عن بعضها. والأرض بينها تدور كذرة صغيرة بين ذرات الهباء.

إننا لا نستطيع ولا تستطيع ريشة أي كاتب أن تصور في ذهن السامع سعة هذه القبة العظيمة التي يقصر الخيال عن تصورها. ولكنّ العلماء من أجل هذا الفن حاولوا أن يقربوا إلى الذهن شيئاً من الحقيقة فقالوا:

افرض أنك أطلقت بكل قارة من قارات الدنيا الخمس ذبابة واحدة فإن التباعد بين هذه الطوائر بالنسبة لأجسامها ليس بأكثر مما بين النجوم بالنسبة لأجرامها. ونسبة حجم كل ذبابة إلى قارتها ليس بأصغر من حجم كل نجمة

بالنسبة إلى فلكها فسبحان الخالق العظيم. فما أصغر أرضنا تجاه هذا الكون الهائل وما أحقر أمورنا وحروبنا ومنازعاتنا إزاء القوى الكبيرة التي تديره وتدبره.

ونظراً إلى بعد المسافات بين الأجرام السماوية فإن العلماء لم يجدوا مقياساً يقيسون بسرعة في قطع المسافة أحسن من النور فإنه أسرع مطية معروفة حتى الآن لأنه يقطع في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل أو ثلاثمائة ألف كيلو متر. فالشمس التي يبلغ بُعدها عنا مئة و٤٩ مليوناً من الكيلو مترات أو ٩٣ ميلاً يصل نورها إلينا في ٨ دقائق. على أنه لو فرضنا صعود طيار إليها يطير في الساعة مئة ميل فطار بهذه السرعة ليلاً ونهاراً لوصل إليها في نحو مأتي سنة فالنور هو مقياسنا ومركبنا لقطع المسافات بين الأفلاك. فالمسافة إذاً بيننا وبين الشمس ثماني دقائق فقط نورية.

وإنكم أيها السادة لأجل قدراً وأرقى فكراً من أن تستبعدوا من رجال العلم معرفتهم أبعاد الكواكب وضبط سيرها ورصد حركتها، فهم قد توصلوا بدون ريب بجهودهم العنيفة وأبحاثهم الدقيقة ومعارفهم الرياضية إلى فهم كل ذلك وأضعافه معه. ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

القمر:

والآن وقد جهزنا مركبتنا النورية للنزهة في النظام الشمسي. فلا مناص لنا أولاً من التفريج إلى جارنا القمر الذي هو أقرب الأجرام السماوية إلينا والتابع لأرضنا المحبوبة حتى زعم بعضهم أنه كان في الأصل قطعة منها انفصل في قديم الزمن.

وقد امتطينا مركبتنا فوصلنا إليه في أقل من ثلاث ثوان فقط، ولو كنا على الطيار المذكور آنفاً أوصلنا في نحو ثمانية شهور. فإذا القمر جرم كثيف مظلم وإنما يستمد نوره من الشمس ويعكسه الأرض فتستضيء منه ليلاً. وهو يدور حولها

على بعد نحو ثلاثمائة و٨٤ ألف كيلو متر. وجرمه مثل جزء من ٤٩ جزء من الأرض أي جرم الأرض مثل القمر ٤٩ مرة.

وكما نحن على الأرض نرى على القمر بقعاً سوداء وأخرى منيرة فكان الفلكيون يظنون البقع السوداء فيها بحاراً، ولكنا وجدنا القمر عند الوصول إليه خالياً من الماء تماماً وأن البقع المظلمة إنما هي سهول فسيحة.

وفي القمر جبال عالية تحتوي على بركانات كانت ثائرة في سالف العهد أكبر وأكثر من براكين الأرض. وفي القمر سلاسل طويلة من الجبال والأودية، وبعض الأودية واسع جداً كالسهول الفسيحة وبعضها ضيق كأنها مجاري الأنهار، وقد قيس ارتفاع بعض هذه الجبال فبلغ نحو ٢٦ ألف قدم فهو كارتفاع جبال هملايا.

وللقمر مباحث عويصة في حركته وهلاليته وابتداره وخسوفه ليس من شأن محاضرتنا هذه الخوض فيها خوفاً من ملل السامعين ولأنها تحتاج إلى حصر فكر أكثر من العادة.

الشمس:

وقبل أن نغادر القمر متجهين إلى نزهتنا بين السيارات ننظر إلى الشمس التي هي سيدة كواكب عالمها، وفياضة النور عليها وكعبة السيارات التي بها تطوف ومنها تستمد. وحيث إن بُعدها عنا ٩٣ مليوناً من الأميال فإن مركبتنا يمكنها أن توصلنا إليها في ثمان دقائق غير أننا لا نستطيع الدنو منها لحرارتها لأنها جرم ناري ملتهب كبير الحجم جداً. بحيث لو أضيف إلى حجمها جميع السيارات التوابع لها لما أحدث ذلك في حجمها فرقاً يذكر إذ هو أكبر من حجم العارض بمليون وأربعمائة ألف مرة.

ولم يكن يخطر ببال أحد أن جرماً هكذا بُعده وعظمته يستطيع الإنسان أن يضبط سعته وحرارته وطبائعه وتوابعه والعناصر التي يتركب منها جرمه بالتدقيق والإتقان ولكن العلم أثبت كل ذلك فأصبح معروفاً.

والعناصر التي ثبت حتى الآن وجودها في الشمس تبلغ ٤٥ عنصراً كلها معروف في العناصر الأرضية وذلك كالأكسوجين والهيدروجين والرصاص والحديد... إلخ.

نور الشمس يعادل ستة آلاف شمعة على قدم واحد من العين. والواصل إلينا من مجموع حرارة الشمس إنما هو جزء من ثلاثمائة ألف جزء، لأنها في كل ثانية تحدث حرارة احتراق ١٢ ألف تريليون طناً من الفحم الحجري على أن جميع كواكب النظام الشمسي لا يستغرق منها أكثر مما يعادل قوة احتراق خمسين مليون طن والباقي قالوا لا يجب أن يذهب عبثاً بل لا بد من انصرافه في صالح مخلوقات لا يعلم حقيقتها إلا الله.

والشمس على ما يظهر لنا من بهائها وسنائها وحرارتها الهائلة ليست سوى كوكب عادي من الكواكب الثابتة التي هي شموس أخرى عظيمة تفوق شمسنا حجماً وبهاء وعظمة وسناء. وإنما ظهرت لنا شمسنا بمظهرها هذا لقربها منا. (فالعيوق) مثلاً وهو كوكب ثابت يبعد عنا بأكثر من ٣٥ سنة نورية. فهذا الكوكب لو هبط إلينا حتى حل موضع الشمس لما استطاعت السيارات احتمال حرارته ولخطف أبصارنا بضوء أبهى من ضوء الشمس بمائة وخمسين ضعفاً. ولو أقصيت شمسنا إلى موضعه لبانت نجماً من القدر الخامس أي لا يرى بالعين المجردة إلا بصعوبة. فالشمس كما يقول بعضهم نجم صغير بين مئات الملايين من الشموس الكبيرة التي مقرها تحت سطح المجرة. وتبعد عنا مسافة خمسين ألف سنة نورية.

السيارات:

والآن نتقدم على جناح النور فتنزه بين السيارات التسع الدائرة حول الشمس، ثم نلقي نظرة على الشهب والنيازك ونطوف هذا النظام الشمسي- حتى نخرج رافعين أبصارنا إلى الثوابت السابحة في الفضاء الشاسع والتي كل منها شمس مستقل له سياراته وتوابعه ونظامه.

والسيارات هي كواكب كثيفة مظلمة تستضيء من الشمس وتدور حولها كما أن كلاً منها يدور حول نفسها. وها نحن متجهون إلى السيار الأول (عطارد) وهو أقربها من الشمس فيبعد عنها بنحو ٥٧ مليوناً من الكيلو مترات. ولقربه من الشمس لا نراه نحن أهل الأرض إلا في الغسق مساء أو الشفق صباحاً بلون أحمر. وقد وصلت إليه مركبتنا النورية من الأرض في ٣ دقائق. ولو امتطينا طياراً يقطع في الساعة مئة ميل يطير ليلاً ونهاراً لوصلنا إلى عطارد بعد ٩٥ سنة. وهو أصغر السيارات كلها. يبلغ قطره نحو ثلث قطر الأرض وحجمه جزء من عشرين من حجم الأرض. ووجدنا يوم عطارد كيومنا ٢٤ ساعة لأنه يدور حول نفسه في هذه المدة. أما سنته فهي ثمانية وثمانون يوماً بأيامنا لأنه يتمم دورته حول الشمس في هذه المدة. والشمس ترى فيه كدائرة قطرها ذراع واحد.

***

وغادرناه إلى السيار الثاني وهو (الزهرة) فإذا هي من أشد الكواكب لمعاناً. وحجمها كحجم الأرض. ويومها ٢٣ ساعة وسنتها ٢٢٥ يوماً بما يقارب يومنا. والشمس ترى فيها كدائرة قطرها شبر ونصف. والزهرة ليس بها ماء وسطحها كثير الغبار تسقيه الرياح وتكوّن منه غيوماً غير متبخرة. وتبعد عن الأرض في أقرب موضع منها ٢٦ مليون ميل فيصل إليها الطيار العادي في نحو ٣٠ سنة ولكنها إذا تحولت إلى أبعد موضع عنا يكون بعدها ١٦٠ مليوناً من الأميال.

* * *

ومررنا في طريقنا بالسيار الثالث وهي (أرضنا هذه). وكانت تلمع لنا من الزهرة كلمعان بقية السيارات لنا منها. ويحيط بها على الخصوص هواء كروي سميك ضروري لحياة الحيوان والنبات وهو الواسطة في نقل النور من أشعة الشمس إلى الأماكن التي لا تنالها الأشعة فهو يأتي بنورها إلينا قبل أن ترسل أشعتها إلينا فلولاه لكانت جميع النقط الأرضية التي لا تنالها أشعة الشمس تبقى في ظلام دامس، وتصير السماء حالكة السواد فترى النجوم نهاراً. ويكون الانتقال من الليل إلى النهار وبالعكس دفعة واحدة.

* * *

ومن الأرض رحلنا إلى السيار الرابع وهو (المريخ) أكثر السيارات شبهاً بالأرض، ولهذا أُكثر الكلام عنه وعن وجود أحياء يسكنونه يشبهوننا وعن السفر إليه ومخاطبة سكان. ويظهر للعين المجردة من الأرض نجماً أحمر لآمعاً ممتازاً بلمعانه واحمراره. ويومه كيومنا وسنته كسنتين من سنينا. وله قمران يدوران حوله كقمر أرضنا. وتظهر الشمس منه كدائرة قطرها نصف قدم. وجرمه أصغر من جرم الأرض. وثقل الأجسام على سطحه أقل من ثقلها على سطح الأرض. فتكون حركات الأحياء عليه أسهل من حركتها على الأرض حتى إذا أرادت الطيران لم تجد فيه من صعوبة ما نجده على سطح الأرض. والماء موجود بكثرة في المريخ، وعند القطبين منه يجمد الماء في فصل الشتاء به حتى يستحيل ثلجاً ثم يعود ماء في الصيف. ويخالف المريخ الأرض في عدم وجود بحار فيه فسطحه بر محضاً. وللمريخ هواء إلا أنه ينقص عن هواء الأرض. فإذا راقب الأرض مراقب من القمر رأى الغيوم الكثيفة تكتنفها وربما لا تنجلي له

جبالها ووهادها وبحارها ويابسها لكثرة ما يراه حولها من الغيوم. أما المريخ ففي جوه شيء من الغيوم لكنها قليلة لا تذكر بالنسبة لغيوم الأرض.

* * *

والسيار الخامس هو (المشتري) يبعد عن الشمس بنحو ٧٧٠ مليون كيلو متر أي نحو خمسة أضعاف البعد بيننا وبينها. فلو خرج طيارنا آنفاً من الشمس إلى المشتري لوصله في ٩٠٠ سنة وحجمه أكبر من حجم الأرض بألف وثلاثمائة مرة. فلو قطع إلى ١٢٠٠ قطعة لكانت كل قطعة أكبر من الأرض. ويومه عشر ساعات فقط ولكن سنته تضاهي ١٢ سنة من سنينا. وله تسعة أقمار تدور حوله تظهر لنا من أرضنا إذا نحن وجهنا نحوها منظاراً عادياً. والشمس تبدو منه كرمانة متوسطة الحجم.

* * *

ثم نأتي (زحل) وهو السيار السادس وهو يبعد عن الشمس كبعد الأرض عنها ١٠ مرات ولهذا تبدو منها كجزء من عشرة أجزائها. نعجب كثيراً حينما نرى هذا السيار يختص بوجود ثلاث حلقات مسطحة حائطة حوله بدون أن تمسه. سمك كل حلقة ٧٠٠ كيلو متر وعرضها ١٠٠.٠٠٠ كيلو متر، ونرى أن الخارجية والداخلية تكتسبان نوراً من الشمس أكثر من الوسطى فهما مضيئان جداً. ولا ترى هذه الحلقات من الأرض بالعين المجردة ولكن بالتلسكوب يتمكن الناظر من رؤيتها. وزحل من أكثر السيارات أقماراً فإن المعروف أن له عشرة أقمار تدور حوله. والتاسع يدور حوله من الشرق إلى الغرب بعكس الأخريات. ويوم زحل عشر ساعات وسنته تعادل ثلاثين سنة من سني أرضنا.

* * *

وإذ غادرنا زحل اتجهنا نحو (أورانوس) وهو السيار السابع، ويبعد عن الشمس ٢٩٣٢ مليون كيلو متر، وحجمه قدر حجم الأرض ٦٩ مرة ويرى بالعين المجردة.

وأورانوس سيار لا يعرفه الأقدمون اكتشفه في ١٥ مارس سنة ١٧٨١م الأستاذ (وليم هرشل) فأنبأ المراصد الفلكية بذلك وبعد الأخذ والرد بينهما سلم الجميع بأنه سيار من كواكب النظام الشمسي. اُكتشف حديثاً ولكنه تكون قبل تكوين هذه الأرض. وإذا وصلناه وجدنا له قمرين تدوران حوله. ووجدنا يومه ١١ ساعة وسنته تعادل ٨٤ سنة من سني أرضنا. وشمس أورانوس تظهر كحجم البيضة.

***

والسيار الثامن هو (نبتون). وهو أيضاً لا يعرف لدى الأقدمين اكتشفه مرصد بفرانسة سنة ١٨٤٦م حجمه قدر حجم الأرض ٨٤ مرة ويومه ١١ ساعة بساعاتنا وسنته ١٦٥ سنة بسنينا. ونبتون لا يرى بالعين المجردة من الأرض ولا بالنظارات المتوسطة لبعد المسافة بيننا وبينه. ولبعده عن الشمس تظهر فيه كالنبقة ولا يناله من نورها وحرها شيء وفي خاتمة سنة ١٩٣٠م عقد اجتماع فلكي في مرصد (جبل ويلسن) بولاية كاليفورنيا تقرر فيه أنه لا يبعد أن يكون للشمس سيار مجهول وراء نبتون. وأخذ العلماء منذ ذلك يبحثون ويرصدون ويكدون حتى فاز علماء مرصد (فلاغستا) باكتشافه بعد أن قضوا أسابيع يرصدون جسماً سماوياً من القدر الخامس عشر تتفق حركته مع حركة السيار الذي يظن وجوده وراء نبتون. وحصل التثبت منه ليلة ١٣ مارس ١٩٣٠م فقطع به وأعلن صحته

وأجمع عليه بعد ذلك وسمي (بلوتو). وقدر أن بعده عن الشمس ٤٥ ضعف بعد الأرض عنها.

***

والآن وقد انتهينا إلى أقصى ما كشفه العلم من حد النظام الشمسي. وألمنا بسياراته المعروفة إلمامة وجيزة. فلنعلم أيضاً أن العالم الشمسي. كله إنما هو ذرة صغيرة جداً بين ذرات الأكوان المنتشرة في الفضاء الذي لا يعلم كنه اتساعه إلا الله. وإننا نتمنى أن يتاح لنا الشرف بالقيام مرة أخرى في قاعة هذه الغرفة بنزهة ثانية بين المذنبات والشهب وبعض الثوابت مما تدل عظمتها وعجائبها على عظمة الخالق سبحانه ووحدانيته.

***

من خطب وكلمات
الأستاذ محمد بن هاشم

الكلمة ألقاها الأستاذ محمد بن هاشم

في الحفلة التي أقامها نادي الشباب بسيؤن بمناسبة المولد النبوي الشريف في ١٥ربيع الأول ١٣٦٣هـ

بسم الله

ونستعين به وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

وبعد:

فقد ندبني نادي الشباب إلى الاشتراك في برنامج حفلته السنوية بكلمة أقولها في الموضوع، ونادي الشباب جدير قبل كل شيء بالثناء على نشاطه في القيام بأعماله الجلائل التي تدر بالمنافع الأدبية والاجتماعية على الوسط الحاضر واستمراره في السير قُدُماً إلى غايته ومرماه لا يصده عنه صاد من الظروف الطارئة التي عرقلت كثيراً من دواليب الأعمال العامة.

بيد أني – وأنا حريص على امتثال لإشارة النادي لي – لست أدري ماذا عسى أن أقول عن ذلك البحر الخضم الذي قد تناولت غرر أوصافه الألسن والأقلام طيلة أربع عشر قرناً إلا أربعين عاماً ولم تصل إلى شيء من الإحاطة بعظمته وعظمة أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم. أجل ماذا عسى ليت شعري أن أقول في وصفه، وقد أحجمت الألسن كليلة، وعادت الأبصار حسرى، بعد جهد الجاهد، وبحث الباحث، وبذل كل ما تستطيعه البشرية من الكفاح في هذا السبيل سبيل الاستقصاء عن نواحي عظمة محمد صلى الله وآله وسلم وفضيلته التي لم تف بحوث الدراسات الإسلامية ولا غير الإسلامية بجل حقوقها.

ها أنا معترف بالعجز عن ابتكار بحث جديد في الموضوع غير أنه لا يسعني إلا ما وسع زملائي الكثيرين الذين لم يزالوا يكررون على المسامع من الثناء عليه

صلى الله عليه وآله وسلم ما قد وعته ألوف المرات وإذا كان المكرر يحلو كما يقولون – فإنه لا ريب أن تكون حلاوته صادقة في ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

نشأ محمد يتيماً – وهذا خبر مفروغ منه – وعليه فإن اليتيم أصبح جامعة بين أعظم مصلحي العالم وبين كل يتيم يتجرع هذه الكأس الذعاف فطوبى للأيتام. إن هذه الجماعة المقدسة لتستحق من كل ذي عاطفة حسنة تتجه صوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقدر هذه الجامعة قدرها ويوجه إليها اهتمامه في أي شخص كان إجلالاً لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورعاية ليتمه فلقد شرب هذا الكأس إلى الثمالة إذ قد مات أبوه بالمدينة قبل ميلاده بشهرين ولما أن ترعرع زارت به أمه آمنة المدينة وأرته قبر أبيه وكانت تقص عليه من أنباء أبيه ما لا بد أن يؤثر ألمه في ذلك القلب الغض الناعم مما لا يتذوقه إلا من لسع بجمرة اليتم وزاد الطين بلة أن مرضت أمه في منتصف الطريق وهي عائدة به فلم تلبث أن قضت ودفنت فماذا ترى حفظك الله أن يكون حاله حينذاك. قال صاحب حياة محمد:

"وعاد الطفل إلى مكة منتحباً وحيداً يشعر بيتمه ضاعفه عليه القهر فيزداد وحدة وألماً لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وها هو ذا قد رأى بعينيه أمه تذهب كما ذهب أبوه وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملاً".

إذاً أيها الكرام وفي هذا الوقت العصيب خصوصاً، يجب أن نزيد في العناية بأرباب هذه الخلة المؤلمة يجب أن نوجه عطفنا نحو اليتيم إكراماً لذلك اليتيم الذي جاءنا بعد بمكارم الأخلاق إننا مهما أدعينا حبه صلى الله عليه وآله وسلم ومهما انتحلنا إجلاله فانتحالنا هراء ودعوانا كاذبة ما لم ندعم ذلك باقتفاء سبيله والتحلي بمكارم أخلاقه.

والدعاوي ما لم يقيموا عليها ... بينات أبناؤها أدعياءُ

والله المسئول أن يوفقنا إلى الصدق في أقوالنا وأعمالنا إنه بالإجابة جدير.

* * *

كلمة ألقاها في حفل تأبين العلامة

الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمن الكاف

هو من أوفر أماثل الأسرة الكافية فضلاً ونبلاً وعلماً وأدباً. ومن أعلاهم همة وأرفعهم قدراً وأسمحهم كفاً وأغزرهم سخاءً، ولوع بالمباحث العلمية حلو الحديث حسن المسامرة لطيف المفاكهة مقدر رجال العلم والفضل والأدب قدرهم. لا تخلو موائده ومسامراته من أحد منهم له أريحية تكتسح حاجات المتعرضين لها وغير المتعرضين.

ولد بتريم عن حدود سنة ١٢٩٥هـ من أبوين كريمين، فنشأ في أحضان تفيض شرفاً ومجداً وسؤدداً وثروة، فاكتسب تربية سامية علاوة على ما وجهه إليه مربوه من حضور المجالس العلمية وسماع ما يدور بين رجالها من المحاورات والفكاهات الرائقة في فنون العلم والأدب، فنشأ تحت هذا الطابع وسار على هذا المنوال، فأصبح نبراساً للمدلجين ومنهلاً للواردين.

وعلاوة على ما ذكرنا وعلاوة على حسن إدارته للخيرات الكافية وتوجيهه إياها إلى نقاط المجد والفضائل، فإن له أعمالاً خاصة يقوم عليها بالإنفاق من جيبه الخاص ويكرس فيها نفسه ونفيسه وكلها لا تخرج عن حدود المصالح العامة كما ترى.

الجمعيات الخيرية:

يقوم الحسن بن عبد الله بتعضيد الجمعيات الخيرية، ويشارك في تأسيسها وخدمتها بحماس وحرارة. فقد كان له في جمعية الحق الكبيرة الشأن ضلع قوي في أوائل تأسيسها، ثم في إدارتها بعهدها الأول قبل وفاته رحمه الله تعالى.

وجمعية الحق لعلها أكبر جمعية تأسست بحضرموت، كان لها شأن كبير في الأوساط الخيرية. فقد اتخذت لها فيما بعد وجهة للسياسة اهتم بها رجال من

الأجانب الذين لهم اتصال بجنوب جزيرة العرب، وقد كتب عنها المستر جاكوب رسالة صورها بأعظم مما هي إذ جعلها حزباً سياسياً يسعى في إسقاط الدولة القعيطية.

آثار الحسن بن عبد الله:

للحسن بن عبد الله آثار صالحة ومكارم خالدة، وله مكتبة جمع فيها من الكتب القيمة ما يلذ للباحث ويطيب. وله ديوان شعر يتغذى به المتأدبون وترتاح إليه جوانح ذوي الميول اللطيفة والأحاسيس الرقيقة.

وقد بنى لله تعالى مسجدين أحدهما بالطرف الغربي من خليف عيديد، والثاني من الطرف الغربي من خليف السحيل كلاهما بمدينة تريم الغناء، وجعل لهما وقفاً يكفيهما ريعه بسعة. رحمة الله عليه.

ذكرياتي عنه:

لم يساعدني الحظ بالاتصال بالحسن بن عبد الله إلا في أواخر عهود الصبا وأوائل حدود الشباب، حيث كنت في ذلك العهد أسكن معه في بيت واحد، وهو القصر- الكبير الذي تسكنه العائلة الكافية، وأيام كان هذا القصر- يضم كافة أعضاء الأسرة وهم: محمد وشيخ ابنى عبد الرحمن، وأبناء عبد الله وشيخ لم يتفرقوا بعد وهي البناية الضخمة التي تقابل مسجد الشيخ علي بن أبي بكر من جهة الجنوب. أذكره وهو نازل في درج الدار ضارباً على جداره بيديه مترنماً بقول الإمام الحداد:

على ريم وادي الرقمتين سلامي وحسبي به في رحلتي ومقامي

وكنت نازلاً وراءه فلما وصلنا إلى الدهليز قابلني وقال لي: هل تحفظ شيئاً من ديوان الحداد. فقلت لا فقال لي: إن للحداد شاعرية قوية يجب أن تحفظ من ديوانه ما تزين به أدبك.

وأذكر مرة في نزهة خارج البلاد وقد جلس مع جماعة من الأدباء، وطلبة العلم مستديرين على تفال يقطعون فيه أوصال اللحم. فقال مخاطباً الشيخ محمد بن أحمد الخطيب: أنتم يا سادتنا الفقهاء إذا أعياكم تعليل حكم فقهي قلتم: هذا شيء تعبدي وبس !. كما أن سادتنا النحاة إذا أعوزهم إسناد كلمة إلى أصلها قالوا: هذا سماعي. فأجاب الشيخ الخطيب :وأنتم لكم عذر أم حمار.

وأذكر مرة وقد جلسنا مجلس علم بزاوية مسجد سرجيس وقد تكرر في كتابِ فقهٍ كلمة (وبحث الأذرعي) فقال بعض من حضر: من هو الأذرعي. فقال صاحبنا: هو شخص لم يزل حاملاً مزحاته وزنبيله. وأذكر أيضاً في مجلس أدب وقد أنشد بعضهم قول الشاعر:

وأذكرُ أيام الحمى ثم أنثني ... إلى كبدي من خشية أن تصدعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

فقال الحسن لو كان فيضان العينين وجمودها بمحض إرادة الشخص لسهل التصنع على المتصنعين.

ولما أن عدت من مصر إلى حضرموت سنة ١٣٤٤هـ جاءني الحسن إلى بيتي بالمسيلة مرحباً فأكبرت ذلك منه، ولكنه كان عجلاً إذ لم يلبث إلا نحو ساعة حتى استأذن للانصراف فقال له بعض الحاضرين: أنت على حد قول الشاعر – ثم ما سلم حتى ودعا – فقلت إن أحسن منه قول الآخر شعراً:

أفدي حبيباً جاءني زائراً ... فكنت كالروض أتاه المطر
فلم يقم إلا بمقدار ما ... قلت له أهلاً وسهلاً ومر

قلت لأن هذا يحتمل وجهين. فقال الحسن بل يحتمل الثلاثة أوجه، وكنت لم أفهم معنى قوله ذلك، ولم أرد أن أسأله لضيق المقام، ولكني بعد ذهابه ظهر لي الوجه الثالث.

إلحاحه عليَّ:

كنت مصمماً على العودة إلى مصر بعد شهر لأنني تركت بها أشغالي، ولكن الحسن بن عبد الله وقف أمامي بقوة طالباً مني الإقامة بحضرموت، والتوظف بمدرسة الحق بتريم، واستعان عليّ بجماعة من الإخوان السراة ولم يترك لي عذراً قط لا مادياً ولا أدبياً يخول لي التملص من هذا الإلحاح، وطلبت العودة إلى مصر لإنهاء أشغالي هناك، فأجابني إلى ذلك مدة ستة أشهر، وأسعفني بما يلزم لي ذهاباً وإياباً، وتم الأمر وكتبت الوثيقة بيني من جهة وبينه والأخوين أبي بكر بن الحسين وأبي بكر بن شيخ. ومع عودتي من مصر وأنا بعدن بلغني خبر وفاته رحمه الله.

* * *

الخطبة ألقاها في يوم عزاء فقيد الأمة الحضرمية

السلطان علي بن المنصور الكثيري

بسم الله الرحمن الرحيم

ومنه استمد القصد في الرأي، والسداد في القول، والتوفيق في العمل. وهذا حفظكم الله أيها السادة موقف لا تغتفر فيه ضلة القلم، ولا تقال فيه زلة القدم، ولا تكال فيه الأقوال جزافاً. وقد أتيح لي أن أقول كلمتي في هذا المقام تأدية لشيء يسير من حق الصداقة الودية التي بيني وبين فقيدنا السلطان علي بن منصور رحمه الله. وإتباعاً لقاعدة (امتثال الأمر خير من سلوك الأدب). والفقيد المغفور إن شاء الله تعالى هو بطل من أبطال تاريخ حضرموت الحديث، وشبل من أشبال الدولة الكثيرية الثانية، ورجل له الجدارة التامة بأن يكتب في عداد رجال الأعمال وأساطين الإصلاح. وأن يتمثل في حقه بقول الشاعر:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

واستميحكم عذراً أيها الأفاضل أن أقدم هنا بهذه المناسبة فذلكة موجزة عن نشوء الدولة الكثيرية التي هي بحقٍ كوكب حضرموت المتألق، وغيثها الهامع، والتي غمرت بوارف ظلها نحو نصف تاريخ حضرموت الإسلامي وبزغت في دولتها شموس نوابغ القرون الأخيرة وأفاضلها من العلويين وغيرهم.

نشؤها:

نشأت الدولة الكثيرية حوالي أواسط القرن السابع. وحضرموت إذ ذاك ميدان للمناورات السياسية. وأتون جحيمي تساقط فيه الأطماع البشرية من

أجانب ووطنيين. والفوضى السياسية تحتل ربى البلاد ووهادها. وتمور على شعابها وحضيضها وباديها وحاضرها.

نسبها:

في أوائل ظهور السلطان بدر بو طويرق تصدى جماعة من محققي السادة العلويين للبحث والتنقيب عن سلسلة النسب الكثيري، ثم أسفرت نتائج بحوثهم عما يأتي:

(بدر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن علي بن عمر بن جعفر بن بدر بن محمد بن علي بن عمر بن كثير بن ظنة بن عبد الله بن حرام بن عمرو ابن سبأ الأكبر. ثم ينتهي النسب إلى يشحب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام).

هكذا جاء في دشة السيد العلامة زين العابدين بن عبد الله بن شيخ العيدروس العلوي.

قالوا:- لما أن تحقق العلويون صحة هذه النسبة ذهب سبعة منهم إلى ضريح النبي هود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام واعتكفوا هناك متضرعين إلى الله سبحانه وتعالى أن يقيض السلطان بدر وذريته لحفظ القطر، قالوا:- وقد ظهرت آثار الإجابة في السنة نفسها إذ استولى السلطان بدر على جميع الجهة الحضرمية من عين بامعبد غرباً إلى ظفار شرقاً. وتسمى الدولة الكثيرية أيضاً دولة آل عبد الله نسبة إلى عبد الله بن عمر بن بدر أبو طويرق.

الدولة الكثيرية الجديدة:

وفي أواسط القرن الماضي نجمت الدولة الكثيرية الجديدة. تحت رئاسة السلطان غالب بن محسن الجد الأدنى للفقيد رحمة الله على الجميع. وقد بذل السادة العلويون إذ ذاك مجهودات عنيفة وعظيمة في إعادة هذه الدولة بعد اضمحلالها، وقام أمثال الحبيب حسن بن صالح البحر والحبيب محسن بن علوي

السقاف والحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر والحبيب حسن بن عبد الله بن إسماعيل العيدروس والحبيب عبد الله بن عمر بن يحيى وابنه الحبيب عقيل قياماً قوياً في تعزيز هذه الدولة وتقوية شوكتها.

الفقيد:

والفقيد هو السلطان الثالث من سلاطين الدولة الكثيرية الجديدة. وهو أيضاً السلطان السابع والأربعون من سلاطين الدولة منذ نشأتها الأولى وهو رحمه الله (علي بن منصور بن غالب بن محسن بن أحمد بن محمد بن علي بن بدر بن عبد الله بن عمر بن بدر أبو طويرق) ولد سنة ١٢٩٩هـ وتولى السلطنة سنة ١٣٤٧هـ وتوفي ليلة الخميس ١٩ من شعبان سنة ١٣٥٧هـ فيكون حينئذ عمره ٥٨ سنة ومدة ولايته عشر سنوات.

نشأته:

نشأ رحمه الله في حجر والده السلطان المنصور نشأة صالحة تتضمن التربية الدينية والسياسية والعلمية. وكان أبوه يستصحبه معه في غدواته وروحاته ولا يألو جهداً في تهذيبه وتخريجه على السنن المرضية والشهامة العربية والتقاليد القومية، وكان الفقيد قد أدرك رجالاً من أبطال القرن الماضي من زعماء آل كثير ممن حضر الحروب في إبان تأسيس الدولة فسمع الفقيد منهم أحاديثهم وأخبارهم وأراجيزهم وأشعارهم. وحفظ عنهم شيئاً كثيراً واستفاد منهم إباءً وشمماً وشهامة وتجارباً. وأوصله أيضاً أبوه بعظماء ذلك الوقت وعلمائه بحضرموت من السادة العلويين كالحبيب عيدروس بن عمر الحبشي. والحبيب عبد الله بن محسن السقاف وأخيه الحبيب عبيد الله والحبيب علي بن محمد الحبشي. والحبيب أحمد بن حسن العطاس والحبيب عبد الله بن حسن البحر وبتريم الحبيب عمر بن حسن الحداد والحبيب عبد الرحمن بن محمد المشهور والحبيب أحمد بن

محمد الكاف وغيرهم من علماء القطر وعبَّاده. فانتفع منهم وحفظ عنهم وأثر ذلك عليه في مجرى حياته التي أصبح فيها مفرداً علماً بين أقرانه في معارفه وتدينه وأخلاقه وسياسته وحنكته.

سياسته الأمور:

وهبته الطبيعة قوة عظيمة لا يجحدها أحد في حل المشاكل، وإخماد الثورات الداخلية، وإطفاء نيرانها باللين مرة، وبالشدة طوراً. وبالسيف أخرى إذا لم يفد غيره:

أناة فإن لم تغن أعقب بعدها وعيداً فان لم تغن أغنت عزائمه

وكان والده المرحوم كثيراً ما يستضيء برأيه في حنادس الحوادث. ويسند إليه مهام الأمور ولا يرى منه إلا ما يثلج فؤاده ويقر عينه.

وقد تربع الفقيد كرسي السلطنة، والتلاعب العشائري آخذ بخناق (سيؤن)، والتمرد العسكري كابوس قوي يضغط على الرعايا ويقلقهم، فتصدى رحمه الله بهمته القعساء، وعزمه الصارم لإبعاد هذه المشاكل، ومحو هذه القلاقل. وطفق يجاهد ويكافح سراً وعلناً وترغيباً وترهيباً حتى دك عقابها وذلل صعابها. وذلك قبل ظهور آثار الانقلاب الأخير في القطر الحضرمي.

والفقيد له الخبرة التامة بنفسية الشعب الحضرمي وما يطابقه من سياسة اللين والشدة. ولهذا أصبح محبوباً من الأمة مقبولاً لديها، مهاباً في نظرها، وقد تمكنت بالرغم في نفوس أفرادها هيبته ومحبته والإعجاب بأخلاقه العالية وشخصيته الفذة.

أدبه وشيمه:

لا يتصل أحد به في حياته إلا ويثني عنه، حاملاً له كل تقدير وإعجاب بآدابه وأخلاقه وشهامته وتواضعه الرفيع، وحديثه الحلو، وفكاهته النزيهة،

وإصغائه لمحدثيه، وتقديره لزائريه. واحترامه لأهل العلم والفضل وإجلاله إياهم وقبوله شفاعاتهم، ونصرته للشريعة المطهرة وغيرته عليها، وقيامه بواجباته الدينية والدنيوية، وتعظيمه شعائر الدين وحضوره مدارس العلم ومحافل الخير. وما ذكرنا هنا كله شيء واضح لا ينكره أحد.

وإن ننس لا ننس مجالسه الأنيسة، ومسامراته الرائقة، ومشاركاته جلساءه في أخبار العرب وأيام الناس، وإنشاد الشعر والانطلاق في المباحث الأدبية والمساجلات الفكاهية، والتنقل من بحث علمي إلى آخر فني إلى آخر سياسي إلى آخر فكاهي، مما يلذ ويطيب ولا يمل الجالس منه.

وكان سامي الهمة. طموحاً إلى المجد. عربي النزعة عظيم الشمم مغموراً بالإباء والأنفة، تجيش في صدره بحور من الآمال والمطامع. وكان يصارحني بشؤون ومرامي يرمي إليها. يستبعد حصولها الغر القصير النظر وساقط الهمة. ولكنها قد تدنو لمن له همة الفقيد الجبارة وقوة إرادته الحديدية.

محافظته على التقاليد السلفية:

للسلطان علي رحمه الله مزية عظيمة يحمد عليها. وهي احترامه لأذواق شعبه وتقاليدهم، ومحافظته على حضور المجامع المقدسة، والمحافل المأثورة ففي تريم مثلاً يظهر بحضرة الإمام الحداد بعد الجمعة، وبحضرة الشيخ السقاف ليلاً ولا يترك صلاة العصر ـ جماعة في مسجد آل باعلوي، ويذهب زائراً إلى ضرائح الأولياء والصالحين ويحضر ـ مجالس الأحياء منهم، ويستمد منهم دعاءهم وبركتهم.

وكنت وإياه مرة في نزهة على سيارته بعيديد وذلك في أوائل العام الماضي فمررنا بالحبيب الفاضل محمد بن حسن عيديد جالساً على مصطبة داره، فسلمنا عليه واجتزناه. فقال لي السلطان: ليس من اللياقة أن نمر هكذا ولا نخرج

لمصافحته. وأمر سائق السيارة بالعودة إليه. ولما صافحناه أخرج من جيبه رقعة فيها تاريخان لتلك السنة الجديدة وهي سنة ١٣٥٦هـ عملها السيد المشار إليه متفائلاً بالصلاح، وذاكراً السلطان علياً بخير، وقال: مروركما عندي الآن لمن أغرب الصدف لأني الآن فرغت من التاريخين ولم **أدر** مع من أرسلهما للسلطان.

معارفه ومعلوماته:

تلقى في صغره أطرافاً من أشتات العلوم المعهودة بحضرموت ذلك العهد، من فقه ونحو وغيرهما على السيد عبد الله بن علي الحبشي- في رباط سيؤن، وعلى غيره من علماء سيؤن إلا أن علمي التاريخ الإسلامي والآداب العربية تغلبا عليه تغلباً جحد معلوماته الأخرى. فهو عند الخوض في هذين العلمين ينطلق في البحث حتى يكاد يتفوق على الحاضرين. والرجل عظيم الإعجاب بشعر أبي الطيب المتنبي. فكان كثير الاستشهاد به حتى يستدل السامع بأن للسلطان دراسات عميقة في هذا الشعر الخالد. وله رحمه الله اطلاع كبير على تاريخ حضرموت الحديث وما قيل ضمنه من أشعار وأراجيز دارجة نقلنا من روايته شيئاً كثيراً عن حضرموت.

شهرته:

وقد سارت الركبان بذكره وانتشر- صيته في الآفاق. وكاتبه ملك مصر- وملك العراق، وشهدت الأجانب بفضله، فكتبوا عنه في رحلاتهم كتابات كلها شائق ورائق ولولا خوف الإطالة لنقلنا بعض ما كتبوا.

وفاته:

وفي ليلة الخميس الماضي لعشرين خلت من شعبان المكرم فوجئ الشعب الحضرمي بوفاة سلطانه المحبوب، فكانت صدمة عنيفة وكارثة عظمى، هلعت لها

القلوب وذهلت منها الألباب وسالت منها المدامع. ولله وحده ما أخذ وما أعطى.

وختاماً لهذه الكلمات نعزم على الحاضرين أن يهدوا إلى روحه الكريم ثواب قراءة الفاتحة.

* * *

كلمتي عن صديقي منذ ٣٥ سنة

المغفور له السلطان صالح بن غالب القعيطي

في أواسط سنة ١٣٤٥هـ كنت عائداً من القاهرة إلى حضرموت ماراً بعدن، فأحببت أن أزور وزير الدولة القعيطية السيد حسين بن حامد وهو حينذاك بها، فذهبت إلى دار آل بازرعة واتصلت بالوزير، وكنت رأيت في زاوية القاعة البعيدة شخصاً لا أعرفه منفرداً وبجانبه عدد من الكتب وعليه سيما العظمة والمهابة، وبعد انتهاء مقابلتي للوزير سألني أتعرف من هو ذلك الشخص في تلك الزاوية؟ فأجبته بالنفي، فقال لي: قم سلم عليه فهو الأمير صالح بن غالب القعيطي، فنهضت شاكراً هذه الفرصة السعيدة، وكنت قد سمعت عن هذا الأمير الشيء الكثير مما ترويه الرواة ومما سارت به الركبان من ذكر أدبه الجم ومكارم أخلاقه العظيمة، فدنوت منه وسلمت عليه وأشار علي بالجلوس فجلست، وبعد أن انتهى من سؤالي عن وجهتي وقدومي دخلنا في الحديث عن جاوا وما جاورها من الجزائر، وأخذ الأمير يفحص فحصاً دقيقاً عن حالة الجالية العربية بها ومجاري أشغالهم فيها وعن مراكزهم بها أدبياً وتجارياً وثقافياً وبحث في ذلك بحثاً وافياً عرفت منه مبلغ اهتمامه بالعرب وشؤونهم.

ملاحظة لطيفة:

جرنا الكلام مع الأمير صالح إلى ذكر والده المغفور له غالب بن عوض، وأخبرته بأنني اتصلت به سنة ١٣٢٣هـ بالمكلا بواسطة الشيخ محمد بن سلم وأنني قدمت له قصيدة حكمية مديحة فيه مطلعها:

على منبر العلياء مجدك يخطب ... وفي هامة الأعداء سيفك يعطب

وهنا تبسم الأمير وقال لي: لو أبدلت (هامة الأعداء) بقولك (وفي هام من عاداك) لكان أحسن لأن المضاف مفرد والأعداء جمع وهذا لا يتناسب فأكبرت ملاحظته، وبعد هنيهة استأذنته في الانصراف فقال نجتمع في المكلا.

السلطان صالح بن غالب:

لم يكن المغفور له عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي رحمه الله بالنكرة التي يجب تعريفها، ولكنه معرفة المعارف لأنه هو السلطان الوحيد في شبه جنوب الجزيرة، وقد تحلى بصفاتٍ قلما تجتمع في سلطان من السلاطين الجنوبيين المعاصرين.

ولد السلطان صالح بحيدر عباد الدكن من بلاد الهند من أب عريق في المجد والكرم والسلطنة، فنشأ صالح نشوءً حسناً، واتصل في صباه بعد أن درس القرآن الكريم وتلقى القراءة والكتابة ومبادئ العربية برجال من علماء الهند ومن أجلهم الإمام العلامة أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، فأخذ عنهم ما أخذ من العلوم والمعارف الفقهية والحديثية والآلية، وصادفت هذه الفنون في السلطان قلباً صافياً وقريحة ذكية وذهناً جيداً، فتمكنت من طبيعة السلطان فأصبح فقيهاً محدثاً متفنناً في العلوم العربية، وسرى فيه من شيخه العلامة حب التآليف فشرع يؤلف الكتب النافعة من فقه ونحو ومنطق وتوحيد وحديث ومباحث أخرى فنية واجتماعية. وقد سارت الركبان بتآليفه فانتشرت بالعالم العربي. ولم يزل وهو في العقد السابع من عمره وهو يفيض على العالم العربي بتآليفه القيمة من حين إلى آخر. كما أن مسامراته مع العلماء لا تخلو من مباحثات وظرائف علمية وأدبية تلذ للسامعين الذين يشتاقون إلى اجتناء أثمار العلم واقتطاف بواكر المعارف.

اجتماعياته:

وسمو السلطان صالح رجل اجتماعي أي أنه يندمج في كل مباحثة لها قيمتها في الفنون الاجتماعية، وله في الأدب العربي والغربي والهندي القدم الراسخ، كما أن له ولعاً قوياً بالموسيقى والتصوير والأعمال اليدوية الفنية فكان على عظمته مباشراً بنفسه أفلام السينما والأسلاك الإذاعية وما إلى ذلك من الفنون.

ومسامراته مع ندمائه وضيوفه لا تكون إلا شيقة لا تمل إذ كل ما يلقيه من الأحاديث والنكات لا تخلو من قط عن متعة وفائدة ولذة تجعل المرء ينصرف وهو مملوء العياب من الانشراح والإحساس بالفائدة واللذة معاً.

تنشيطه للمعارف:

وقبل أن يتولى السلطنة وبعد أن تولاها وهو ولوع بتثقيف الشعب والاهتمام بكل ما يوجهه إلى التقدم نحو المثل العليا. فهو يرغب رجال العلم وأساطين الأدب والشعر لما يناسب من الإكرام والاحتفاء ويمدهم بالصلات السمينة ويحتفل بأفرادهم عندما يمرون في طريقهم إلى الخارج بالمكلا والشحر وقد أسس مكتبة قيمة حوت من كبريات الكتب وصغرياتها ومطبوعها ومخطوطها كمية وافرة تشفي الغليل وتروق نهمة الصادي وهذه المكتبة لم تزل حتى الآن منهلاً للواردين وكعبة للقاصدين يتشوق إليها من يدخل المكلا من رجال العلم والأدب.

ديمقراطيته:

والسلطان صالح على جلالة قدره وعلو كعبه في المجد تراه مع جلسائه يتبسط تبسطاً يجعله من أولئك الإخوان الذين يتحدث عنهم بديمقراطيتهم وتنازلهم المحبوب المقبول فهو يقابل ندماءه وأضيافه بوجه طلق ولسان ذلق

ويروي لهم من النوادر العلمية والأدبية والطرائف المضحكة ما ينافي الانقباض والفظاظة اللذين ينتابان كثيراً من سلاطين العصر.

ميزته السياسية:

لم يكن سمو السلطان صالح بالبعيد عن الدبلوماسية السياسية كما يتوهمه البعض كيف وقد نشأ في وسط مملوء بالعواصف القبلية والمنازعات على السلطنة والإمارة القعيطية فقد شاهد مجريات الأحوال بين جده عوض بن عمر وابن أخيه عبد الله بن عمر وسمع ما يقال من وقائع الأحوال وما أنشد فيها من الزوامل والأشعار وتربى في حجر يحيط به جده وأبوه وعمه عمر وغيرهم من أمراء الدولة القعيطية وكان جده كثيراً ما يعتمد عليه في الشئون الهامة قاصداً بذلك تدريبه وتهذيبه فقد كان معجباً بنجابته ونبله وما أوتي في شبابه من الرزانة وحصافة الرأي. وقد أرسله ذات مرة من الهند إلى المكلا للتفتيش في أعمال السلطان غالب والحسين بن حامد المحضار والقبض عليهما إذا هما لم يمتثلا ما زود به صالح من الأوامر لهما. فقام هذا بواجبه أي قيام وانصرف راجعاً إلى الهند (متجهاً إلى أوروبا ثم عاد منها إلى المكلا ومنها إلى الهند) بعد أن قضى مهمته على وفق ما أراد جده.

وقد تولى السلطنة بعد عمه عمر واستوزر السيد حامد بن أبي بكر بن الحسين المحضار سنة ١٣٥٤هـ وبعد توليه السلطنة بدأت مقدمات الانقلاب الحديث تظهر على جو السياسة الحضرمية. وبناء على معاهدات معهم سنة ١٨٨٨م بين جلالة ملك بريطانيا وبين الدولة القعيطية وهي التي اشتملت على إدخال السلطنة القعيطية تحت الحماية البريطانية.

نظراً لهذه المعاهدة فلعل السلطان صالح أمعن النظر فيما استفاده القطر الحضرمي من هذه المعاهدة التي لم تجئ منها أقل فائدة على حين أن القطر مفعم بالفوضى القبلية واضطراب الأمن من جميع أطرافه وأوساطه.

وفي أثناء إمعان النظر هذا أقبل المستر إنجرامس بمهمته التي جعلت السلطان صالح يرحب بافتتاح المفاوضات السياسية بينه وبين حكومة جلالة الملك وما ذلك إلا لما يراه حوله من الارتباك السائد في القطر الحضرمي عموماً وما يراه يحيط بدولته من الضعف وتهجم البادية عليها وعلى رعاياها من حين إلى حين وما يراه من اضطراب الإدارة والفوضوية في الشؤون الداخلية وما يتوجه من الخوف على تلاشي السلطنة داخلياً وخارجياً كل هذا حمل السلطان على أن يستغل تلك المعاهدة ويتخذ له ركناً شديداً يحفظ له سلطنته ويساعده على تنظيم إدارتها وكبح جماح الصائلين عليها.

فأنتجت له حينئذ مفاوضاته مع عدن ما أنتجت من معاهدة الاستشارة وما يتبعها من النظام الحديث الذي جعل الأمور تسير في البلاد على أحسن ما يرام وحسن الإدارة رحمه الله[١].

(١) توفي السلطان صالح القعيطي سنة ١٣٧٥هـ.

كلمته في حفلة التكريم بقدوم الزعيم عبد الرحمن بن شيخ الكاف

ذات يوم من أيام سنة ١٣٠٣هـ أصبح أحد منازل بعض العرب القاطنين بسنغافورة في حركة غير عادية وذلك لأن المنزل المذكور زاد في عائلته مولود جديد سر به جميع أفراد العائلة فأغدوا يتهانون ويتباشرون ويستقبلون المهنئين بحفاوة وجذل وبعد أسبوع دعي سراة العرب بتلك البلاد لحضور حفلة التسمية التي اختير فيها اسم عبد الرحمن وهو اسم الجد الأدنى للهادف الجديد ذاك المولود الصغير بالأمس هو بطلنا العظيم اليوم الذي يحتفل به الساعة نادي الشبيبة المتحدة.

لم يكن يحلم أحد من المهنئين حينئذ بالمركز السامي الذي سيشغله مولودهم ذلك في الهيئة الاجتماعية ولو حلم أحدهم بهذا لهنأ العلويين قاطبة والعرب والمسلمين عامة.

ولقد نبغ المحتفل به في المعترك الحيوي فأصبح ذا عبقرية غزيرة وشخصية بارزة تحملانه على المشاركة في كل مشروع خطير نافع للملة الإسلامية ولكم ضحى بعشرات الألوف ومئاتها من الأصفر الرنان في سبيل فعل المعروف وإغاثة الملهوف وخدمة الوطن والأمة والملة.

لم تكن الحكومة الإنجليزية بالتي تكيل لرعاياها الدرجات والألقاب جزافاً باستحقاق وبدون استحقاق ولكن لها عيوناً تبصر في الضوء والظلام ورجالاً خبيرين ينشطون العاملين ويقدرونهم قدرهم وقد منحت بلطف إحدى الدرجات العالية التي تمنحها للمصلحين إقراراً بفضلهم وتحبيذاً لأعمالهم.

وبعد فإننا لسنا في مقام سرد حياة الرجل وتاريخ حياته المملوء بالفضائل فإن ذلك يحتاج إلى أسفار تفرد بالتأليف ولكنا فقط نرحب بقدومه ومن بمعيته من

الفضلاء الكرام ونفتح لهم أفئدتنا جذلاً وسروراً ونترنم بما تهيجه العاطفة من القريظ الذي هو أبلغ مظاهر التأثر عند العرب فنقول[١]:

وما سمعتموه من القريظ الذي يدعونا إلى تكريم زعمائنا والى التنويه بفضل قادتنا وعظمائنا وأعني بهم الذين جعلوا إنهاض الأمة وإصلاح الوطن شغلهم الشاغل وهمهم الملازم.

وصاحب السماحة زعيم الإصلاح الرجل العظيم السيد عبد الرحمن ابن شيخ الكاف العلوي الذي نحتفل هذه الساعة رسمياً باستقباله ونغتبط بوجوده وبتكريم قدومه هو من أجدر الناس بالتكريم والإجلال ومن أحق من نبدي له مبلغ إعجابنا وعظيم احترامنا. شكراً له على ما بذره في هذا الوطن العزيز من بذور النهضة والإصلاح وما تولاه من تأسيس جمعية الحق ومدرستها التي ما زالت تجالد الزمان وتكافح الجهالة وما تصدى له بعد ذلك في ديار المهجر من مساعدة الجمعيات والمدارس ومن إسعاف الصحافة ورجالها خصوصاً جمعية الرابطة العلوية وجمعية خير ومدارسها وجريدة حضرموت ومجلة الرابطة وما كان من اشتراكه في تعضيد مؤسسي المكتبة السلفية ومطبعتها بمصر.

وكذا على ما صرفه من مال وعناية في خدمة المهاجرين إلى المهجر من بني أبيه وملته وبني وطنه وجنسيته إلى سائر ما بذله ويبذله من مجهود ومقدور في سبيل رفعة شأن الوطن الحضرمي ونفع أهليه.

وقد عرف الناس عنه ما له من آراء ثاقبة ومواقف سديدة وما له من كرم وحلم وإقدام وحزم نعم عرفوا ذلك عنه وفيه وعرفوا أنه هو الحضرمي الوحيد التي تضاهي إدارته للإعمال الاقتصادية الكبيرة والمشروعات المالية الخطيرة إدارة كبار الإداريين من الغربيين سواء كان ذلك من حيث سريان روح الترتيب

(١) انظر القصيدة في الفصل الخاص بالقصائد.

والنظام أم كان من حيث المهارة ودقة الضبط وسرعة إنجاز الأعمال ويكفي من زاره في مكتب إدارته ومركز أعماله ما يسود ذلك المكتب الحاوي عدداً من الكتبة والموظفين من الهدوء الشامل في وسط تلك الحركة القائمة والنشاط المتجسم والعمل المستمر فلا لغط ولا تثاؤب ولا التفات إلى غير المنوط من الأشغال والدائر من الأعمال أي بعكس ما هو حاصل في مكاتب الإدارات العربية بالمهجر.

ويا رب يوم جال في الخاطر أن هذا المكتب يؤدي وظيفة المعهد الإداري وانه سيستخرج منه تحت رئيسه واقتداره الرجال الأكفاء لمزاولة أرقى الشؤون الإدارية والتدابير المالية في الغد والمستقبل.

هكذا يا صاحب السعادة عرفنا فيك اقتدار الإداري الحاذق ومهارة المالي المدبر كما عرفنا أنك عامل حي من عوامل الرقي وعنصر فعال من عناصر النهوض في كل ما تزاوله من وظائف وما تشغله من مناصب وما تديره من أعمال.

ومهما تكن لنا أمنية في هذا المقام فهي أن تبذل وسعك في إيقاظ العقول وتنبيه الأفكار بالعلويين خاصة والحضرميين عامة إلى ما شاهدته عياناً وأبصرته كفاحاً ومن طوالع المستقبل الخطير ومقدمات التطور المخيف الذي يقرر أن الحياة حياة جهاد وصراع ويجاهر بأن مبادئ تنازع البقاء ونواميس الانتخاب الطبيعي وسنة النشوء والارتقاء قضت كما يعتقدون أن يباد الضعيف ويهلك العاطل ويجرد بلا شفقة ولا رحمة من كل حق له في العيش والحياة على هذه البسيطة التي خلقت للقوي والعامل والنشيط والمجاهد.

فأنت رائد القوم الذي لا يكذب ولا يكذَّب ولنا من شعورك الحي ما يجعلنا في غنى عن توجيه نظرك العالي إلى ما تتحمله بهذا الاعتبار من المسؤولية الكبرى.

صح بنا أيها الزعيم مهيباً واشرح الأمر للغبي البليدِ

ومع تلك الأمنية أمل آخر وهو أن تتضافروا مع صاحب السيادة عميد حركات النهوض والإصلاح صنوكم السيد أبي بكر بن شيخ الكاف وكذا مع مؤسس نهضة الشبيبة الحديثة عزة رئيس النادي السيد عمر بن شيخ الكاف ومع غيرهم من كهول النهضة وشبان الرقي وطلائع الإصلاح والتقدم وأن تتوازروا جميعاً بإنهاض الوطن والأمة وإسعادهما دينياً ودنيوياً وإصلاحهما طبق المراد وعلى الوجه المرضي والمرغوب ما دام الأمر في المكنة وطوع الاختيار وهنا أستميحك لأقوم بدوري في تكريم زملائك الإجلاء وهم صاحب الشهامة السيد عبد القادر بن محمد بلفقيه ذو العواطف السنية والغيرة الهاشمية وصاحب الأريحية السيد عبد الله بن الحسين الكاف أحد أعلام النهضة العربية بسنغافورة ومن الرجال المؤسسين للنادي العربي هناك وصاحب المجد والهمة السيد عبد الإله بن محمد الكاف ناظر مدرسة جمعية الحق سابقاً والرحالة المفكر الذي زار مصر والشام لدرس أحوال النهضة بها واستطلاع أسرار رقيها وتقدمها وصاحب النجابة السيد علوي بن أبي بكر الكاف أحد أفراد الشبيبة الراقية وممن ألم بفنون الهندسة المعمارية.

وأختم كلامي بالابتهال والدعاء وأن يديم المولى جلّ وعلا العز والمجد والإقبال ويحقق رجاءنا في النهضة وزعمائها والإصلاح ودعاته وأن يوفقنا للخير والرشد فيما نقصد ونفعل وهو الكريم المقصود لا رب سواه.

موجز تاريخ الفقيد عميد الأسرة الكافية
السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف

لئن قيل مات عبد الرحمن بن شيخ فما مات حقيقة من ترك وراءه تراثاً ضخماً من الذكر الحسن والمبرآت الجارية والأعمال الصالحة والخيرات الخالدة.

ولئن قيل مات عبد الرحمن بن شيخ فإنه ما مات من خلّف رجالاً أبطالاً من إخوته وبنيه وبني عمومته يسيرون على نهجه ويستثمرون غراسه ويشيدون مقامه ولا يدعون شيئاً يغيب من حياته إلا وجهه، وقد توفي سابقاً المغفور له شيخ الكاف فقال المرجفون لقد ذهب شيخ الكاف وترك دغش موالدة لا يرجى منهم خير. فماذا رأينا أيها السادة من هؤلاء الموالدة رأينا أربعين سنة مرت من وفاة المغفور له شيخ الكاف وحضرموت تسعد وترفل في الخيرات الكافية التي يوزعها هؤلاء الموالدة يميناً وشمالاً، ولنا إن شاء الله من الأمل في أن نرى من خلف عبد الرحمن ما رأيناه من خلف أبيه شيخ رحمهما الله تعالى.

أول معرفتي بالفقيد:

في سنة ١٣١٠هـ وصل المغفور له شيخ الكاف من سنغافورة إلى حضرموت مستصحباً نجليه عبد الرحمن وأبا بكر وكنت في ذلك العهد مقيماً بين الأسرة الكافية بالقصر المقابل (لمنترة هاشم)، لصهارة بين أبي وبين الأسرة وكنت أتردد بين القصرين الشرقي والغربي. ولم يكن اتصالي بالفقيد عبد الرحمن إذ ذاك كاتصالي بأبي بكر بن الحسين وأخيه عبد الله غير أن خادماً لهم كان هو السبب في لفت نظر عبد الرحمن إليّ فقد كان هذا الخادم ينظر إليّ نظر ازدراء لأني دخيل في القوم ويعتبرني كطفيلي وربما جافاني بالكلام فما كان من عبد الرحمن على صغر سنه إلا أن عاتب هذا الخادم وأصلح من نظره إليّ وهناك بدأ التقارب بيني وبين الفقيد.

أما في حدود الشباب وذلك حوالي سنة ١٣٢٠هـ وما يليها فقد تأكدت الصداقة وأصبحنا نتبادل كتب الأدب للمطالعة وظهر ولعه بالأدب فكنا وهو وعيدروس بن هارون بن شهاب الدين نذهب خلسة إلى شيخنا في الأدب علوي المشهور فنجلس الساعة والساعتين وقد يحضر مجالسنا السلطان علي بن منصور إبان إقامته بتريم وقد استفاد الفقيد من تلك المجالس قبساً من الأدب والعربية وكان كثيراً ما ينشدني عندما يضمنا مجلس يشتد فيه الحر قوله:

عرق على عرق ومثلي يعرقُ وهوى يزيد وجبة تتمزقُ

محرفاً قول المتنبي:

أرق على أرق ومثلي يأرقُ وجوىً يزيد وعبرة تتدفقُ

وفي سنة ١٣٢٥هـ سافر السيدان أبو بكر بن الحسين بن عبد الله والفقيد متجهين إلى سنغافورة بأمر أبيه وقد كتب لهما في ذلك العهد وصية نفيسة حوت من ضروب الحكمة والإرشاد ما يعد ثروة أخلاقية عظيمة. وحينذاك شمر عبد الرحمن عن ساقه لخوض غمار الحياة فاتصل في سبيله بكبار ساسة حضرموت وأعيان تجارها تبعاً لتلك الوصية، ثم وصل سنغافورة وأقام بها نحو أربع سنوات تحت إرشادات ابن عمه عبد الرحمن ابن عبد الله وفي سنة ١٣٣٠هـ انفرد بإدارة الأعمال وهناك تأسست شركة "الكاف وشركاه" وسجلت موادها ومكاتبتها بينهم بالمحكمة العلياء بسنغافورة.

وما لبث الفقيد أن عاد إلى حضرموت أواخر سنة ١٣٣١هـ وبمعيته نجله شيخ وجميع عائلته وبحضرموت حضر هياج الجند سنة ١٣٣٣هـ فنهض بمعية أخيه حسين وعمه عبد الرحمن بن عبد الله بكل ما يستطاع به في تلك الظروف العصيبة من علاج القضية حتى تداخلت الدولة القعيطية وقبائل آل كثير وهدأت الأحوال.

وفي سنة ١٣٣٥هـ قام عبد الرحمن عن السادة العلوية مقاماً شريفاً يدل على شرف ذمة وطهارة ضمير وبعد نظر ورعاية أمانة للسلطنة الكثيرية التي يجب عليها أن تذكر هذا الجميل ما بقيت، وذلك أن السلطان المغفور له غالب بن عوض القعيطي ووزيره الحسين بن حامد رحمهما الله حاولوا بكل إلحاح في مكاتباتهم لعبد الرحمن التي تتراوح بين ربيع الأول وجماد الثانية سنة ١٣٣٥هـ بأن يقنع السادة بأن صلاح حضرموت لا يكون إلا إذا حملوا السلطان الكثيري على الخنوع لمواد مجحفة بحقوقه وردت فيما بعد في معاهدة عدن فرفضت ذمتهم تلك الوساطة وكتب عبد الرحمن كتاباً حاسماً للحسين بن حامد بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى فيه الرفض البات ولكن السلطان والوزير لم يعدما الوصول إلى الغاية من طريق آخر.

وفي تلك الظروف ولدت جمعية الحق فقامت بما قامت به من الإصلاحات الاجتماعية والإدارية وموقف عبد الرحمن فيها كاف في الدلالة على عظمة الرجل وقوة عزمه.

وفي سنة ١٣٣٦هـ توجه إلى سنغافورة يصحبه ابن عمه أبو بكر بن الحسين وأقام هناك مديراً نحو ١٣ سنة دخل جاوا في خلالها فاهتز له العرب وكان له الجاه الرفيع بين كل الطبقات العربية والأحزاب.

وله الاتصال التام بفضلاء الحضارمة وعلمائهم وصلحائهم والإحسان إليهم والتقرب منهم بجاوا وحضرموت فكان له من هذا الاتصال أكبر وسيلة للقيام بإصلاحاته العصرية وتجديداً من دون معارض ولا ناقم كما أن له بكثير من علماء مصر والحرمين اتصالاً مكيناً عندما ذهب إلى تلك الأقطار.

وفي تلك الأثناء كانت له المكاتبات في إصلاح حضرموت متوالية بينه وبين السلطان غالب القعيطي وكبار رجال الدولة القعيطية بالهند والثغرين مما يزيد عن

سبعين تحريراً وبعد وفاة غالب خلفه عمر فتوالت منه المكاتبات الودية والسياسية وأخيراً طلب حضوره إلى الهند فحضر- وقوبل منه ومن صالح بكل حفاوة وإجلال وطاف بلاد الهند هو والسلطان صالح نائباً عن عمه عمر، ويقول لي عبد الرحمن إن هؤلاء القعطة يودون إصلاح حضر-موت من صميم قلوبهم غير أن الظروف القاهرة لم تساعدهم، وفي النهاية غادر الهند ومواعيد آل عوض بن عمر ترن في أذنيه.

وفي سنة ١٣٥٠هـ توجه الفقيد رحمه الله إلى حضر-موت مستصحباً معه نجليه علياً والحسين وهب لملاقاته من حضر-موت الثغر أخوته الأربعة ونجله شيخ وجماعة آخرون منهم كاتب رحلة الثغرين وقد أقاموا بها نحو الشهرين تبودلت فيها المفاوضات مع السلطان عمر الذي وصل من الهند للقاء الفقيد وكانت المفاوضات بخصوص الوطن وطرق المواصلات وتوطيد الأمن إلى غير ذلك من وجوه الإصلاح.

نشاطه الإصلاحي الثقافي:

ولعبد الرحمن نشاطه وطموحه إلى إصلاح القطر الحضر-مي من النواحي الثلاث ثقافياً واجتماعياً وسياسياً فقد عالج في هذه السبل علاجاً يطول وصفه وبذل في ذلك ما لا يحصيه إلا الله وحده. فتح المدارس وساعد في مدارس القطر كلها وواصل أربابها بالإعانات المالية وأنشأ الكتيبات وجمع فيها من نفائس المخطوط والمطبوع الكثير الطيب ونشط رجال الصحافة بالمساعدة والاشتراكات فيها ليوزع مجاناً منهن مجلة الفتح التي يحررها محب الدين الخطيب وساهم في شركة مطبعتها ومنهن الرابطين العلوية والعربية وجريدة حضر-موت وغيرها وطبع باسم الكاف كتباً كثيرة علمية توزع مجاناً منها المهذب والوجيز ومعارج الهداية وجامع الكرامات وغيرها ونشط الأدب والشعر بإقامة مباريات علمية

وأدبية في الشعر والإنشاء والفتيا تقام من حين إلى آخر وينال الفائزون من المتبارين جوائز سنية ثمينة ونشط حفظة القرآن الحكيم على اسم والده المغفور له بمنح شهادة وجائزة قدرها ستون ريالاً لمن نجح في الحفظ بشروطه.

وكان يقيم من حين إلى آخر فسحاً ونزهاً لطلبة العلم وتلاميذ المدارس وأساتذتهم تذبح فيه الأغنام وتمد فيها الأسمطة الشهية.

الإصلاح الاجتماعي:

وله في الاجتماعيات مواقفه المحمودة فهو ولوع بإصلاح ذات البين يضحي في ذلك بكثير من وقته وماله وقد نشر في إبطال العوائد الضارة والترهات النسائية عدة منشورات واستعان بولاة الأمور في هذا السبيل فلم يحرم بعض النجاح.

المآدب والضيافات: وقد أصبح دار عبد الرحمن مأوى للضيوف والطارقين فداره ترحب بكل طارق حيث يلاقي من الترحاب والحفاوة ما يجعله ينصرف شاكراً مسروراً.

وفي أواخر سنة ١٣٥٣ هـ على عهد السلطان علي بن منصور تفاقم الخلاف بين رجال العائلة المالكة آل عبد الله حتى أدى بهم الأمر إلى إطلاق الرصاص وتداخل عقلاء آل كثير في إصلاحهم ولكن المشكل لم ينته إلا بعد أن حصل التحكيم من المتخاصمين للفقيد وأخويه أبي بكر وعمر فحكموا بما سدّ القضية وأحل الوئام محل الخصام.

الانقلاب الأخير:

وجاء عهد الانقلاب الأخير أو كما يسميه بعضهم النظام الحديث فكان لعبد الرحمن فيه المشاركة التامة وقام رحمه الله بمساعدة لجنة أمان حضرموت

مساعدة لولاها لما قامت تلك اللجنة التي دوخت حضرموت وكانت هي باكورة النظام الحاضر ومقدمته.

واستمرت مساعدات الفقيد القولية والعملية تجري مجراها حتى استتب الأمر وتم النظام فكم مرة يصعد وإياي إلى الحصن لمواجهة السلطان وإقناعه أو إرشاده إلى ما ينبغي تنفيذه لمصلحة سلطنته ورعيته وكم من مرة نتحمل امتعاض سمو السلطان أو سخط المستر انجرامس في سبيل سعينا في التأليف بين وجهتي نظرهما.

وحدث ذات مرة أن المستر انجرامس أصر على أمر وصمم السلطان علي بن منصور على خلافه فأظهر انجرامس الغيظ والعودة إلى حكومته وأنه سيخبرها ببطلان كل شيء ثم أمر الضابط العسكري غلام حيدر بجمع البنادق والعتاد وأن يأمر الجند بالاستعداد للرحيل من سيؤن وهرعتُ أنا حائراً إلى أبي بكر بن شيخ أسأله كيف الأمر فقال لي لا تخف كله كذب، وبدت لصاحب السمو مهمة إلى العقدة فأرسلني إليها وبالي مشغول بقضية انجرامس فلما عدت قيل إن عبد الرحمن قد حل المشكل فذهبت إليه ووجدته مع جماعة في مصلى دار بنقالة وهمست في أذنه كيف عملتم في القضية فأجابني مبتسماً ومفاكهاً (سدينا بينهم بقميص ونقبة) ثم أنتحى بي ناحية وشرح لي الحال.

وفي المدة الأخيرة ترأس حزب الوحدة وبذل في هذا السبيل ما بذل وقام مع لجنة المطالبة قياماً يثيبه الله عليه بفضله الواسع.

اللهم أغدق وابل رحمتك على تلك الروح الطاهرة وأبلغها في مرقدها الهني أزكى التحية والسلام.

كلمته التي ألقاها بمناسبة حفل افتتاح طريق الكاف سنة ١٣٥٦هـ -١٩٣٧م

أيها الفضلاء الكرام:

يسرنا أن نشاهد منكم سعادة الوالي الأفخم ويا معشر الحاضرين هذه العناية التي بذلتموها بحضوركم إلى الاحتفال بمشروع من أهم المشاريع الوطنية الاجتماعية لأن حضراتكم ولا ريب أجدر من يقدر مثل هذه الإصلاحات التي تعود بالهناء والسعادة على الوادي وذويه فلتتغشاكم التشكرات المؤبدة التي لا نهاية لها منا ومن كل من لدية ذرة من الوطنية الصادقة.

أيها الكرام:

إن حضرموت لمدينة بتطورها الإصلاحي في السنوات الأخيرة لسعادة الوالي الأفخم فقد لفت إليها نظره السامي منذ سنة ١٩٢٦م حيث بدأ يعمل في صالحها بعطف وحنان ثم أخذ يبذر بذراته النافعة التي لا تنساها حضرموت ولن ينساها له أبناؤها الحاضرون والمقبلون.

ليس المقام مقام تفصيل وإلا فيمكننا أن نعد منذ سنة ٢٦ لسعادة الوالي نقطاً إصلاحية بحضرموت غيرت كثيراً من مجرى اتجاهات الفوضوية.

واليوم – أيها الكرام- وقد حضرتم لافتتاح الخط الموصل داخلية حضرموت بثغورها بواسطة السيارات فإنكم بذلك إنما تحتفلون باستقبال انقلاب اجتماعي عظيم ينقل وطننا العزيز من الخراب إلى العمران ومن الشقاء إلى السعادة ومن البؤس إلى الرفاهية.

ولا ينس أحد ولا ينبغي أن ينسى أن الفضل في ذلك كله عائد لحضرة المصلح الكبير السيد أبي بكر بن شيخ الكاف إذ هو الذي طمحت به همته إلى هذا المشروع الذي كان يحسبه الناس من قبيل المحالات والخزعبلات ولكن همة أبي

بكر وإرادته الحديدية جعلته يهجم على هذا الأمر البعيد ويقتحم سبيله وحده بدون مساعد ولا معين.

لم يلبث هذا المشروع في دماغ أبي بكر بل جهز العمال وأطلق يده بالأموال وجد واجتهد وخاطب وفاوض واعترضته الصعاب فذللها وقاومته الكوارث فزحزحها وهاهو اليوم يتمتع بأعماله ويتحقق بآماله ويسره أن يرى وطنه يجني ثمرة هو غارس دوحتها وساقي أصولها.

إن اكتفينا بشكر السيد أبي بكر بألسنتنا فإن الأجيال القابلة ستبذل له المهج وتقيم له تمثالاً على منتصف الخط ينادي الوارد والصادر بأن هذا الصدر ومن هذا الدماغ وبهذه اليد تكوّن إصلاح حضرموت ورفاهية أبنائها.

ومن ذا الذي يجهل فوائد هذا الخط والمواصلات به تضاعف سيرها وسهل اجتيازها وسلم ذووها من اجتياز الجبال والعقاب على ظهور الحمر وأسنمة الجمال ثمانية أيام تلفح وجوههم الشمس المحرقة وتشوي أدمغتهم السموم اللافحة ويشد عليهم الزمهرير في وقته ويخدشهم بمخلبه وربما كرعوا من أبوال الأنعام ما يطفئون به وهج العطش وربما كابدوا من الأتعاب ما يوصلهم إلى عظيم وخطير المرض. فالوطن الحضرمي يلهج من أقصاه إلى أقصاه بترتيل آيات الشكر الخالصة للسيد أبي بكر على قيامه بهذا المشروع خصوصاً وعلى جميع إصلاحاته عموماً تلك الإصلاحات الحضرمية التي لا يجحدها ولا يمتري فيها إلا من لا يخجل أن يجحد ضوء الشمس في رابعة النهار. وفي الختام تقبلوا منا فائق الشكر والإخلاص والسلام.

الخطاب الذي ألقاه في حفل تكريم
السيد والمحسن الكبير أبي بكر بن شيخ الكاف
بوسام (قائد مخول في الإمبراطورية البريطانية في القسم المدني CBE)

سادتي:

لم تكن إقامة هذا الاحتفال البديع والتكريم الزاهر الذي تحتشد الأمة للاشتراك فيه إلا قياماً بحق الوفاء وواجب الاحتفاء لبطل عريق في البطولة وعظيم أصيل في العظمة وسيد تليد في السيادة طالما عرفناه وعرفته بلاد حضرموت من أدناها إلى أقصاها بأنه أعظم المتفانين في إصلاحها والمغامرين في إسعافها وأظهر العاملين والمبرزين في مساعدة أمرائها وأولي الشأن فيها على إنقاذها من شقائها وإراحتها بالوسائل المختلفة والطرق المتنوعة. هذا الشخص أو هذا المصلح المقدام هو حضرة المحتفل به أخونا السيد أبو بكر بن شيخ الكاف.

فمنذ ثلاثين سنة تقريباً ومنذ اتجهت هذه الشخصية الكبيرة وتحفزت إلى البروز إلى ميدان العمل للجهاد في مساعدة أمراء حضرموت وحكامها على إصلاحها سياسياً وترقيتها اجتماعياً واقتصادياً وفي الكفاح العظيم لدرء شرور الفوضى التي لا تنفك تزداد استفحالاً ونيران الفتن والاضطرابات التي لا تفتأ تتعاظم إشتعالاً.

منذ ذلك العهد وأنت لا تكاد ترى أبناء حضرموت في وطنهم وفي مهجرهم أينما التقى منهم اثنان منهم فصاعداً إلا وهم معجبون بهذه الشخصية الفذة والعصامية الفريدة وعاقدون عليها الإجماع ومتجهون إليها بالآمال في إصلاح الحال فكأنهم يرون فيه رجل الساعة وبطل الموقف للإنقاذ والإسعاف أو كأنهم يلمحون فيه العبقري الذي يرجى أن تكون العناية والمقادير الربانية قد هيأته لحضرموت لمواساتها في ظروفها الشديدة وصروفها القاسية وهذا هو ما

يراد بقولهم رشحته ظروف الأحوال والانتخاب الطبيعي.

والحق يقال إن الرجل قد أصبح محطاً صالحاً لآمال الأفراد والجماعات من أبناء القطر الحضرمي بل ومن غيرهم أيضاً واشتمل السيادة والعظمة اشتمالاً أجمع عليه من عرفه من معاصريه، وتقدم إلى النظر في شؤون بلاده بقدم ثابت ونظر ثاقب فزحزح كثيراً من غياهبها وعالج من مشاكلها ومعاضلها ما لا تعالجه النفوس والهمم القعساء.

بطل مقدام يجازف بحاله في الإصلاح ويخاطر بماله في سبيل النفع العام ويفني نفسيته في إحياء مواطنيه ويضحي بذاته في إيصال الخير لغيره ولو لم يكن كذلك لما سما هكذا إلى قمة المجد ولما اقتعد أريكة الفخار.

والناس أجدر من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسانِ

نحن إن احتفلنا الآن بسيادة حضرة السيد أبي بكر بن شيخ الكاف بل إن احتفلنا به دائماً فيما سبق أو فيما أقبل كلما تجددت مناسبة أو ظهرت داعية من الدواعي الجليلة لتكريمه أو التنويه بمزاياه وإكبار ما يتصف به من الصفات المجيدة بين ذويه ومواطنيه فإنما نكرم المجد ونحتفي بالنبوغ ونقيم مظاهر التبجيل والتفخيم لإنكار الذات والتضحية بالمادة والراحة في سبيل الخدمة العامة واحتقارها في جانب القيام بالنفع العام والاهتمام بمصالح العباد والمجتمع.

لم يكن السيد أبو بكر بأغنى قومه ومواطنيه ولا هو بالرجل الذي يخالف غيره من أبناء النعيم في الارتياح باقتعاد مهاد الراحة والميل إلى التزام جانب الرفاهية ولكنه الرجل ذو النفس الكبيرة والتفكير الحصين والهمة العالية الرجل الذي لا يرضى براحة في محيط شائك ولا بسكون في وسط صاخب ولا بلذة بين أمة متألمة ولا برفاهية يحتوشها شعب بائس.

والناس أصعب وأبعد من أن يذعنوا بالعظمة لشخص ما، ما لم تضطرهم

الصروف إلى الإذعان، والعظمة أشد جموحاً من أن يمتطي صهاها فارس لم تجتمع فيه مكارم خلال يندر تجمعها في غيره.

وأخونا أبو بكر المحتفل به تكفيك أيها الناظر نظرة واحدة في خلائقه حتى يسوغ لك الحكم على تفرده بمجموعة من مكارمها قلَّ أن تجتمع في غيره ويكفيك دليل أكبر إجماع المعاشرين له بذلك. أما أنا فقد صحبته أكثر من إحدى عشرة سنة فلم أر منه في كل حالاته إلا الحلم والصفح والاحتمال والرأفة وسلامة البال والسخاء والذكاء والنزاهة والصدق والصراحة والتواضع وتوقير الكبير واحترام أهل الفضل والعطف على الغريب وتفقد الأصحاب والرفاق وإكرام الواردين والصادرين.

وهو على بعد نظره ووفور عقله ومعرفته المصادر قبل الموارد سيد لا يعرف الحقد ولا يسرف في الخصومة ولا يبيت على الضغينة ولا ينام على المكر ولا يستمر في العدا ولا يصر على الخطأ.

والآن ليس المقام بمقام تعداد لفضائله أو إحصاء لأعماله فذلك موضوع لا تحتمله الساعة ولا الساعات فقد كرس قاله وماله وحاله في إصلاح البلاد ونفع العباد وتحمل المشاق في سبيل ذلك ما ينوء بأقوياء الجبابرة وقد صحبته ذات مرة إلى بعض أحياء بني تميم بصدد الإصلاح بين فخذين منهم فكنا نسير على الأقدام بين المتخاصمين وبينهما بضعة كيلو مترات وقت الهجيرة والحر اللافح حتى ضجرت وتأففت من ذلك فكان جوابه لي قوله (الدنيا تسعه كله).

أما الأعمال التي قام بها فيكفينا مشروع طريق السيارات وتعبيده من الساحل إلى الداخلية أنموذجاً لهمته العملاقية وهو مشروع لا يقوى على تنفيذه غير الحكومات والشركات الكبرى نهض به صاحبنا واكتهله بمفرده ولو كانت المسألة مسألة تعبيد للسبل فقط لهان الأمر نوعاً ما ولكن تعبيد البادية المحيطة

بذلك السبيل وتذليل جموحها وإشباع رغائبها وسياسة رجالها أصعب من كل صعب وأوعر من كل وعر فتغلب على ذلك بهمته وحنكته وسخائه كما تغلب على غيره من المشاريع الخطيرة.

وهاهو ذا أمامكم لا يزال في عمله اليومي حركة دائمة وتفكير مستمر ونفع عام لا يكاد يميز في معاملته ومعاشرته بين ذويه وغيرهم.

وبعد هذا الذي ربما يعدني بعض أنني تبسطت فيه نوجه أنظارنا إلى مغزى هذا التقدير لشخصية بطلنا وأعماله ومساعيه ذلك التقدير الصادر من جلالة ملك بريطانيا العظمى بمنحه (رتبة قائد السلطة المخولة في الإمبراطورية البريطانية من القسم المدني)الذي رصدت هذه الحفلة بمناسبته لأنه إن دل على تقدير الحكومة البريطانية لحضرته على شيء فهو يدل على تقديرها لشخصية شخص هو بمكان عظيم من تقدير شعبه وبمنزلة سامية من تبجيل مواطنيه.

ألا وإن عدم اقتصار تلك الحكومة على منح الرتب للرجال الرسميين فقط بهذه البلاد وتجاوزها إلى الرجال الشعبيين الممتازين في أبناء الشعب خصوصاً مع حداثة اتصالها بالبلاد ليدل على النية الصادقة في توطيد الصداقة مع الشعب وهي نية نرجو أن تتوطد بها علاقات الألفة والصفاء بين الشعب الحضرمي والشعب البريطاني.

❊ ❊ ❊

كلمته في حفل تكريم
السيد عبد القادر بن أحمد بلفقيه

على سطح المحيط الهندي بين جاوا وسنغافورة منذ نحو أربعة عشر عاماً كانت إحدى بواخر شركة "فاكيت فاز الهولندية" تمخر ذلك العباب قاصدة بتاوي تقل بين ركابها العديدين شاباً عربياً لم يمتز عن غيره من مهاجري الحضارمة الذين في الباخرة بشيء من المظاهر البارزة عدا النفس العصامية التي تبوأت مركزها بين جنبيه.

ولم يدر بخلد أحد من عرب المهجر أن عدداً وفيراً من أطفال المسلمين الموجودين بتلك الديار وغيرهم أيضاً من لم يزالوا حينذاك في أصلاب الرجال وبطون النساء سيمثلون عند رجولتهم في الحياة دوراً مجيداً بنفخة من روح ذلك الشاب الذي تمخر به باخرة "فاكيت فاز" حتى قذفته بإحدى موانئ جاوا حيث تطأ قدماه تراب تلك الجزيرة الزاهرة بدون ضوضاء ولا أبهة ولا شيء مما يلاقى به ذوو الحيثيات على ما يقولون.

والمدرسة الخيرية العربية بسرابايا إذ ذاك تقاسي ألم الاحتضار ولم يدر مديروها من هو بطلها الذي سيسعدها به الدهر فيعيد إليها حياتها ويتاح لها به أن تنال غايتها السامية.

إن النابغة العبقري مهما تدثر بالخمول وتجلبب بالتواضع فإن نبوغه وعبقريته يأبيان إلا الأخذ بناصيته إلى أوج الشهرة وسماء المجد رغماً عنه وهكذا كان شأن المحتفل به اليوم: الأستاذ السيد عبد القادر بن أحمد بلفقيه العلوي وهو الشاب المشار إليه آنفاً فقد نزل جاوا ولم يعرفه بها غير أفراد قليلين من أبناء بلدته وما غادرها إلا وقد طبق صيته خافقيها وترك وراءه دوياً عظيماً يرتقص له العلم المدرسي طرباً وسروراً.

وبعد فقد ندبني الناديان "نادي الشبيبة المتحدة" و"نادي الإخاء العربي" في أن أقول كلمتهما عن المحتفل به الساعة أما استحقاقه للتكريم أو عدم استحقاقه فإن رجلاً تلك أعماله وهذه آثاره لجدير بأن لا يترك اليقين مجالاً للشك في النفوس بأنه حقيق بأن يكرم بمهج المواطنين وسود أحداقهم وهو الذي بنى لهم في المهجر المجد الخالد والشرف الطريف والتالد.

ربما يكبر بعض السامعين الأمر ويرى أن قصارى عمل الرجل إنما هو مزاولة مهنة التعليم طوال تلك المدة وما ذلك بكبير والتعليم لا يزال في نظر بعض الأغبياء مهنة ليس لها قدرها ولا اعتبارها ولكن كبار الأحلام من رجال الناديين لا يرون هذا الرأي الأفن وإنما يرون ما يراه عقلاء الأمم الحية ومحنكوها يرون أن التعليم الحق هو اشرف مهنة وأدقها وأنبلها في الحياة وأنها لمن أصعب المهن مراساً وأشدها بأساً وأمتنها أساساً ألا وإن الأستاذ الفائز في ميدان التعليم هو الذي يفدى بالنفوس ويرفع على الرؤوس وتنصب له مناصب الإجلال والإكرام بين محافل الجامعة الإنسانية لأنه هو الذي يشيد بناء الأمة وينظم عقودها ويظهر وجودها وينمي في أفرادها ما انطوى عليه الجسم والعقل من المواهب والقوى.

وليست التربية والتعليم هما حشو أذهان التلامذة بالمعلومات الشرعية أو اللغوية أو الرياضية فقط فإنهما لو كانتا كذلك لما كان لبطلنا اليوم ميزة على كثير من المعلمين المنتشرين بكل بقعة ولما أكبرنا أعمال الرجل وجهوده العنيفة التي بذلها في التربية المطلوبة والتعليم المقصود ولكن مدلول هاتين اللفظتين – علاوة على ما ذكرنا – ينال أيضاً إيقاظ النشء من سباته وتخليصه من قيوده وتطهيره عن الأمراض التي تنهك قواه وتطيل بلواه وتوهن من عزيمته وتجعله عرضة للبطالة والشلل في جسم الهيئة الاجتماعية.

التربية والتعليم هما الدواء الوحيد للداء الذي تتألم منه الأمة والأستاذ المربي هو الذي ينبثق نوره بين الأفراد فينير لهم السبيل الموصل إلى السعادة المأمولة والحياة الحقة.

ومعالجة التربية والتعليم ليست من السهولة بالمكان الذي يظنه قصيرو النظر فهي علم خضم عبابه متداخلة شعابه متفرعة مناهجه وأبوابه قد صنف فيه الأخصائيون تصانيف شاسعة الأكناف مترامية الأطراف ولكنهم مع هذا قد أجمعوا على أنها فوق ذلك هي موهبة أوجدها البارئ الحكيم في نفوس بعض مخلوقاته من البشر فمن الناس من لو اتبع جميع ما كتب فيها وقيل عنها حرفاً بحرف لا يكون مربياً ما لم تكن في نفسه تلك الموهبة فبث الروح في النشء وغرس المبادئ هو شيء غير تلك التعليمات الجوفاء والتلقينات المجردة وهو ذلك الإكسير الذي لا يحوزه كل من باشر مهنة التعليم أو أدرك رتبة الأستاذية.

والمحتفل به الأستاذ عبد القادر بن أحمد بلفقيه العلوي هو من أولئك الأفذاذ الذين سطعت مواهبهم وتجلت عبقريتهم في التربية والتهذيب حتى ترك لنا معشر العلويين خصوصاً والحضارمة عموماً من الآثار في تلك البلاد النائية ما يرفع رؤوسنا فخراً وشرفاً.

وكانت المدرسة الخيرية بسرـبايه أول عهدها بالتأسيس تجري على خطط تجريبية مضطربة يديرها صديقنا النابغة السيد أحمد بن عبد الله السقاف العلوي فكان وهو العصامي المجيد يحاول أن يسلك من المناهج ما يناسب مدارك نشء تلك البلاد العجمية ويتلمس جدران الدهاليز المؤدية إلى أساليب التعليم المنتج وكانت المدارس العربية بجاوا في أول عهدها ومع ذلك لا توجد غير مدرستين أو ثلاث وكلها تهيم على نظام غير مقرر ولا نهج محرر والعامة هم آباء التلامذة

وأولياؤهم مع جهلهم العميق تراهم يوجسون خيفة على عقائد أبنائهم من هذه المعاهد الجديدة ويترقبون ما يقرر فيها بكل حيطة وحذر.

وأذكر على سبيل العبرة والتفكهة بهذا الصدد حادثة وقعت بسربايه في ذلك الوقت وهي أن بعض أباء التلامذة دخل المدرسة الخيرية ليرى نجله وقت التعليم وكانت التسهيلات مبذولة للعموم ليرغبوا في المدرسة فوجد الرجل نفسه في الصف أمام السيد أحمد السقاف فسأله عما يعلمونه في حينه فأجابه السيد بقوله إننا الآن في أثناء تعليمهم الحروف الهجائية فامتعض الرجل واكفهر وجهه وخرج فلقي بعض أصدقائه فصارت بينهما المحادثة الآتية:

أب التلميذ – يا له من خبر أسود جئتك به اليوم.

الصديق – وما هو؟

الأب – لقد بدءوا يعلمون الحروف الحجائية في المدرسة !.

الصديق – أعوذ بالله ! أضبط ما تقول.

الأب – هو ما أقوله لك أخبرني بذلك الأستاذ نفسه بدون حياء ولا محاباة.

الصديق – لا حول ولا قوة إلا بالله ! هذا ما كنا نتوقعه ثم انطلق الاثنان صاخبين يرجفان الأراجيف ويثلبان الأستاذ وينفران عن المدرسة.

هذه حادثة ولها أخوات وبنات عم كثيراً ما تقع ويقعن في ذلك الدور: دور التأسيس غير أن الظروف لم تمكن الأستاذ أحمد السقاف من الاستمرار في نظارة المدرسة فاعتراه من بعده الذبول واضطرب سيرها لتعاقب النظار عليها مع تباين خططهم في مدة قصيرة.

وقد كنت زرت المدرسة الخيرية بسربايه قبيل وصول الأستاذ عبد القادر وكان الذي ينظِّر تعاليمها إذ ذاك الشيخ أحمد العاقب السوداني والناس يتذمرون من أسلوب التعليم الغير منتج ورغماً عن تفاني الشيخ واجتهاده في أن يوصل

المدرسة إلى شأو لن تصله أيام سلفه السيد أحمد بن عبد الله السقاف فإن تشبثه الشديد بالتقليد وجموده على الخطط العتيقة التي لم تعد صالحة لأبناء هذا الجيل وحصره التعليم في دائرة ضيقة النطاق من التهجىء ومبادئ الفقه والنحو فقط كل هذا جعل المدرسة لا تتحرك إلى الأمام قيد شبر ولا تنتج غير المعهود من انفلات التلميذ عنها قبل أن يصل إلى آخر سنيها ثم لا يلبث أن ينسى ما تلقنه ويعود إلى الأمية أو القراءة الضعيفة.

وشاءت الأقدار أن يبتسم لها الدهر ابتسامة تدر على مريديها ومديريها الخير الكثير وتجلب إليها ضالتها المنشودة فتولى المحتفل به نظارتها وطفق يجاهد ويكافح طوال ١٣ عاماً ظهرت فيها العبقرية الكامنة بكل مظاهرها، وتخرج منها علماً وأدباً وأخلاقاً عددٌ وافرٌ أخذوا يمدون المجتمع بمعلوماتهم النافعة وآرائهم اليانعة.

والآن وقد وصلنا إلى هذه النقطة فلنلتفت قليلاً إلى الوراء التفاته ننظر بها المورد العلمي لهذا السيد إبان كان بحضرموت قبل سفره إلى جاوا فنجده قد استقى معلوماته الأولية من شرعية أو لغوية من اكف أساطين العلم هنا وقد تلقى كثيراً عن الجهابذة الأعلام كالسيد علوي بن عبد الرحمن المشهور العلوي والسيد علي بن زين الهادي العلوي والسيد الناسك أبي بكر بن محمد بلفقيه والسيد عبد الله بن عمر الشاطري العلوي مدير الرباط في الوقت الحاضر ولم يقصر المحتفل به في الاتصال بفطاحل العلماء بجاوا كالحبيب الإمام محمد بن أحمد المحضار العلوي والعلامة الفذ علوي بن طاهر الحداد العلوي والشيخ حسن بن محمد بارجاء وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم.

وقد قبض على زمام إدارة التعليم بالمدرسة الخيرية وهو يناهز العشرين ربيعاً من عمره فكان مثالاً للهمة والنشاط والحكمة والصبر والمداراة مما أثار إعجاب المحيطين به والواردين عليه.

ومن طبيعة المخلص لعمله والمتفاني فيه أن يعطي أكثر مما يأخذ وأن ينبذ الأنانية والأثرة جانباً بعيداً والمحتفل به أوضح مثال لذلك فقد كرس كل وقته الثمين في الاهتمام بتهذيب تلاميذه وإرشادهم فبينما المدرسة لا تحتم عليه الزيادة على التعليم الرسمي وهو من الساعة الثامنة صباحاً إلى نصف النهار ترى الرجل لا يقف عند ذلك بل يتبرع بإلقاء دروس خاصة لنجباء التلامذة بعد الظهر وبين العشاءين وأول الليل بعد تناول العشاء وذلك في نفس المدرسة وفيما بين هذه الأوقات كثيراً ما يزوره التلامذة وبعض من هو تحت نظارته من أساتذة المدرسة للاسترشاد والاستفادة.

وقد بلغ في تناهيه في التضحية في سبيل التعليم أنه يكاد ينفق نحو ربع (ماهيته) في شراء الكتب المهمة وأسس لنفسه مكتبة نفيسة يرجع إليها تلامذة المدرسة وأساتذتها في المراجعة والمطالعة ولا يبخل على أي واحد منهم باستعارة ما شاء من الكتب وهذا غير ما سعى في تأسيسه من إنشاء مكتبة أخرى للتلامذة بالاشتراك.

فلا غرو إذاً إذا غزر الإنتاج وتوفر عدد المتخرجين التخرج الكامل من المدرسة حتى أصبح عدد المدارس التابعة لها والتي يقوم بالتدريس فيها تلامذة السيد نفسه نحو العشرين مدرسة منتشرة في أنحاء اندونيسيا كبندوسوا وبانيواغي وفوربوليغكو وقرسي وباغيل وفماكاسان وسمنب وكالي اغت وبنجر ماسين وغيرها.

ويسرني هنا أن آتي على بعض أسماء مشاهير المتخرجين على يد المحتفل به والذي قد وصل إلينا شيء من ثمار عقولهم وأنباء جهادهم فمن هؤلاء حضرات السادة العلويين:

علي بن أبي بكر بن يحيى ومحمد بن حسين باعبود وسالم بن أحمد بن جندان بن الشيخ أبي بكر وحامد بن غالب الحامد وعلوي بن محمد العيدروس ومحمد بن أحمد بن عبد الله السقاف وعلوي بن حسين الجفري وأحمد بن محسن السقاف وهارون بن شيخ بافقيه والشيخان الألمعيان عمر ابن أحمد بارجاء ومحمد بن سالم بارجاء، ومن الوطنيين: أحمد مجيدي البنجري النابغة النشيط الذي أقام نحو خمس عشرة مدرسة وأسس ببنجر وسمارينده جمعية تضم نحو ستة آلاف عضو. ومن نوابغ التلامذة: الوطني حسن دحلان الذي أسس مدرسة بسربايه.

وقد قرأت في جريدة حضرموت عدد ٣٨٥ مقالاً مسهباً لأحد هؤلاء النوابغ وهو الشيخ محمد بن سالم بارجاء يذكر فيه مجهودات الأستاذ المحتفل به تفصيلاً فليراجعه من شاء غير أني أنقل هنا هذه العبارة فقط قال:"لقد شجع الأستاذ الكريم تلاميذه على التمرن على الأعمال الخيرية والاجتماعات الأدبية بالفعل فسن لهم إقامة الشركات في شراء الكتب وشرع لهم إنشاء الجمعيات لمواساة التلاميذ المساكين في المدرسة ويجب أن لا ننسى أيضاً أنه هو الذي عرف تلامذته بفضل أهل البيت النبوي الكريم عليهم فانظروا الآن ما تفرغ من بذره الطيب وانظروا إلى ثماره اليانعة"، هذه كلمة من كلام ذلك التلميذ اللوذعي تراها تقطر غيرة وإخلاصاً وإقراراً بالجميل لأهله.

والمحتفل به هو ثالث جهابذة التربية والتعليم في الهند الهولندية وهم السيد علوي بن طاهر الحداد العلوي والسيد أحمد بن عبد الله السقاف العلوي فهؤلاء هم الذين يحملون راية التعليم الإسلامي ومبادئه على أساس المذهب الشافعي

ومحبة أهل البيت والذين يبثون هناك في أفئدة النشء ما يلزم لوقاية عقائدهم من نفثات النواصب ونزعات الإلحاديين.

هذا والناديان المحتفلان وهما نادي الشبيبة المتحدة ونادي الإخاء الأدبي يختمان كلمتهما بأن يلتمسا من حضرة الأستاذ عبد القادر أن يوافيهما في المستقبل القريب بمحاضرتين أو أكثر عن سير التعليم بإندونيسيا وحالة العرب الاجتماعية والاقتصادية في الوقت الحاضر بتلك الديار ويتمنيان له إقامة سعيدة ومواقف في وطنه حميدة والسلام.

* * *

تقرير للأستاذ محمد بن هاشم عن نشاط نادي الشبيبة المتحدة بتريم سنة١٣٥١هـ

بسم الله..

في ١٤ ربيع الآخر من هذه السنة أي منذ ستة شهور عقد نادي الشبيبة المتحدة جلسته العمومية لتبديل هيئة الإدارة ووقع الانتخاب بأغلبية الأصوات على وهؤلاء السادة:

(السيد عبد الله بن حسن بلفقيه رئيساً، محمد بن أحمد بن يحيى نائباً للرئيس، عمر بن عبد الرحمن الكاف كاتباً، شيخ بن عبد الرحمن مساعداً، عطاس بن عبد الرحمن الكاف أميناً للصندوق والسيدين محمد بن هاشم –أنا– ومحضار بن علوي الكاف مستشارين).

ونظراً إلى أن وظيفة المستشارين تقتضي بأن يقدما للجمهور تقريراً عن سير النادي مدة الستة الشهور التي كانا فيها مستشارين، فها نحن أولاً نقرأ هذا التقرير الوجيز على حضراتكم. ومنه يتبين للسامعين تقدم النادي إلى الأمام في الجانب المادي والأدبي، ومبلغ الجهود العنيفة التي بذلها رجال إدارته بأفكارهم وأحوالهم ليس في المحافظة على مركزه ووقايته من التقهقر فقط، بل وفي الأخذ بناصره إلى العلو والتقدم به نحو الغاية التي يرمي إليها.

إن يك هناك مما يجدر بأن يبذل له أعضاء نادي الشبيبة تشكراتهم العميقة من صميم القلوب فهؤلاء هم رجال إدارته الحاضرة الذين أظهروا علاوة على تكريسهم أوقاتهم وجهادهم المتواصل في مصلحة النادي – كرم أخلاق ولين جانب واحتمالاً عظيماً لما يقابلون به من الاعتراضات اللاذعة والعبارات القارصة مما لم تقابل به أية إدارة قبل إدارتهم.

هذا ولقد خطا النادي في بحر الستة شهور خطوات محسوسة إلى الأمام سواً في عضويته أم في ماليته أم في انتاجاته الأدبية التي هي غاياته القصوى.

أما ماليته: فقد تسلمت الإدارة الحاضرة الصندوق من العضوية السابقة وفيه ٢٥٠ ريال، وورد إلى صندوق بعد ذلك في خلال هذه الستة الشهور من العضوية ٣٢٨ريال فإذا أضيفت إلى المتبقي فيه عند تسلمه من الإدارة السابقة فيكون المجموع ٥٧٨ريال ثم تخصم مصاريف النادي من مشاهرة الفرّاش وأثمان الشاي وسكر وغيرهما وأجرة نساخة... الخ كما هو مفصل ومضبوط في دفاتر أمين الصندوق وذلك ٢٤٧ وعليه فيكون المتبقي في الصندوق الآن ٣٣١.

وهنا ينبغي أن لا ننسى أن نظهر ارتياحاً لما أبداه أمين الصندوق السيد عطاس الكاف من الضبط والكفاءة التامة في إدارة المالية.

ثم نقدم إليكم انتاجات النادي الاجتماعية والأدبية إجمالاً وأمهات الأعمال البارزة في تاريخ النادي مدة الإدارة الحاضرة فأول شيء قرره النادي وذلك في ٩ جماد الأولى هو تأليف لجنة لإدارة الحفلة السنوية من الحضرات الأعضاء الكرام: السيدين عبد الله بن حسن وعلوي بن أبي بكر آل الكاف والسيد أحمد بن عمر الشاطري والمشائخ سلمان شامي وعمر الخطيب ومحمد بن ذياب.

وفي ١٤ منه أقيمت الحفلة الشائقة بقصر المضربة بعيديد على أحسن ما يرام أنشدت فيها القصائد وقيلت فيها الخطب وأجريت فيها الألعاب الرياضية. الخ.

وبعد ذلك استمر النادي في مواصلة الدروس الأسبوعية فقهاً وتوحيداً وتاريخاً ولغة وأخلاقاً وقد بلغت الاجتماعات المخصصة للدروس ستة عشر- اجتماعاً والجلسات الإدارية ٢٤ جلسة والاجتماعات العمومية عشرة.

أما الحاضرات العلمية فأولاهن (محاضرة الدكتور محمد عمر حياة وموضوعها الطب الحديث) وثانيتهن (محاضرة هذا العاجز وموضوعها

حضر-موت في القرن ١٣) وثالثتهن (محاضرة السيد محمد بن أحمد بن يحيى وموضوعها العلم) ورابعتهن (محاضرة الرئيس عبد الله بن حسن بلفقيه وموضوعها الأزمة) وخامستهن (محاضرة السيد زين بن شيخ بلفقيه وموضوعها الباقران) وسادستهن (محاضرة السيد الدكتور عبد الهادي الجيلاني وموضوعها تربية الطفل).

وفي أواخر رمضان ألف النادي لجنة من أعضاءه لجمع زكوات الفطر وتوزيعها على المستحقين لاسيما من لا كسب له ولا حاصل وبذلك استحقت الشكر الجزيل على العطف على أرامل ومخدرات وعائلات قد أمضهن الجوع ولا يصل إليهن عادة شيء من هذه الزكوات التي خصصها الله لمثلهن.

وإن ننسى لا ننسى أعمال الكاتب النبيل السيد عمر بن عبد الرحمن الذي لم يترك واردة ولا شاردة تمر بالنادي إلا وقيدها في سجلاته بإتقان وترتيب كما يرى ذلك من أحب الاطلاع عليه، هذا سادتي هو التقرير الوجيز الذي نرجو أن نخرج بتقديمه إلى حضراتكم عن المسئولية التي ملقاة على كواهلنا وبه يظهر تقدم النادي ونجاحه. والسلام.

* * *

كلمته في الفقيد الصحفي
موسى الكاظم بن عبد القادر بن يحيى

بسم الله..

عرفت موسى الكاظم أول ما عرفته وهو غلام يرفل في نحو العاشرة من عمره، وقد سألني إذ ذاك سؤالاً ينبئ عن أصالة في الذكاء الموروث عن السادة آل عبد الله بن عمر وذلك السؤال عن معنى كلمة الصمد التي تدل على اسم الله تعالى، وعرفته بعد ذلك وقد أنشأ صحيفة (الحلبة) وطلب مني أن أكتب ما عن لي فيها فكتبت ما شاء الله أن أكتب.

وعرفته إذ جاءني مستودعاً عند توجهه إلى العراق في بعثة دراسية وطلب مني أن أصحبه باسم من أسماء الله الحسنى يتلوه مكرراً فاخترت له اسم (اللطيف) يكرره كل صباح مائة وتسعاً وعشرين مرة أي على عدد حروفه الأبجدية، وبلغني عن سلوكه في العراق ما يسر ويطيب، ثم عاد إلى وطنه وقد أصبح شاباً نشيطاً متحلياً بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات من أدب وسخاء وعطف على كل من عرفه من مواطنيه وبذله النصح والإحسان إلى كل من اتصل به منهم، وكنت إذا ابتكرت في كل جمعة أجده حوالي الساعة التاسعة معتكفاً مناظراً إلى دفة المصحف الشريف يتلو آياته.

وقد انتهج الفقيد منهجاً صالحاً في فنون الحياة ومسالكها فهو فنان إذا شئت، وأستاذ معارف إذا أردت، وأديب ناثر شاعر مع خفة في الروح، وأخذ قوي بمكارم الأخلاق وعليه فقد خسره الوسط.

تغمده الله برحمته وألهم ذويه السلوان وتغشاه بمنه وكرمه.

كلمة ترحيب ألقاها بمناسبة قدوم المستشرق روبرت سرجنت

حضرة الدكتور الأستاذ روبرت سرجنت علم من أعلام العلم والأدب الذين برزت شخصياتهم بين رجال الاستشراق الحديث. والنادي الأدبي في هذا الحفل يرحب به أولاً ويقدمه للحاضرين ثانياً ويحتفل به تكريماً ثالثاً – يرحب به لأنه قَدِمَ حديثاً إلى حضرموت مؤثراً الإقامة بهذه المدينة مدينة العلم والدين على غيرها من مدائن حضرموت فمرحباً به وبأمثاله من أبطال العلم والأدب الذي لا ينتمي إلى نسب ولا إلى دين ولا إلى إقليم قال أبو تمام:

إن يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

ويقدم النادي لهذا الحفل حضرة الدكتور روبرت سرجنت تقديماً لا يزيد الحفل تعريفاً بهذا القادم الفاضل لأن المعرفة لا تعرف وهو ممن يشار إليه بالبنان علماً وأدباً وبحثاً وتنقيباً عن كل شاردة وواردة في الأدب العربي وهو معروف بدراساته العربية الوافية العميقة.

وقد كتب عن الأدب بجنوب الجزيرة كتابة تنبئ عن سعة اطلاع وتبحر في الفن وذلك مما يبشرنا بأن مباحث جمة صادقة قد يستمتع بها هواة الأدب في المستقبل القريب عن حضرموت وماضيها ورجالها مما ينقب عنه هذا العَالِم فيبرزه من مخابيه تحفة لعالم الأدب والمعارف.

والنادي يحتفل به تكريماً لأنه أول مستشرق معروف قصد الربوع لمجرد البحث، البحث عن فرائد الأدب والتاريخ ومن يك هذا شأنه عظيم فإن من الواجب الوطني والأدبي تكريمه والاحتفاء بشخصه.

والاستشراق شأن عظيم له جلالته وخطورته وأثره القوي المنتشر في عالم العلم والثقافة في الشرق والغرب. والاستشراق هو الذي نبش الكنوز العلمية

من مدافنها وأذاع الكتب المطمورة في خزائنها وبعث لنا من سلافنا ما كادت تأتي عليه القرون الطويلة.

وإذا كان في المستشرقين رجال قليلون لم يخلصوا الخدمة للعلم وحده بل قد تسوقهم هناك أغراض أخرى إما سياسية أو تبشيرية – فإن منتجاتهم العلمية تستوجب الإعجاب والشكر. فذلك العَالِم الكبير المستعرب مارقيليوث أستاذ اللغة العربية في اكسفورد منذ سنين وحتى توفي في أيام الحرب كان يعتبر إماماً لعلماء اللغة العربية من الانجليز كما كان عضواً للمجمع العربي في دمشق وكان يتمتع بشهرة واسعة بين الأوساط الأدبية في الشرق، وفضلاً عن أنه نشر عدة رسائل بالانكليزية عن الدين والتاريخ الإسلامي وترجم القرآن الكريم إلى الانجليزية مع تحفظنا على ذلك من الناحية الشرعية فإنه ترجم عدة كتب عربية قيمة منها معجم الأدباء لياقوت
ورسائل أبي العلاء وأحاديث التنوخي.

والمستعربون بصفة أخص من الإنجليز منذ القديم لهم فضل كبير على لغة الضاد إذ أذاعوا من نفائسها ونقلوا عنها ما زادها فخاراً وشرفاً، ففي أواسط القرن السابع عشر كتب الأستاذ ادوارد يوكوك كتابه الشهير أنموذج في تاريخ العرب يقال إنه مجتزاً من تاريخ ابن رزيق وقد أردفه يوكوك بسلسلة من الدراسات العربية المستفيضة في مختلف نواحي التاريخ والعلوم والأدب والدين قالوا وهذا الكتاب من أهم المؤلفات الاستشراقية جرى طبعه في أكسفورد سنة ١٦٤٩م ثم طبع مرة ثانية سنة ١٨٠٤م.

وضيفنا اليوم الأستاذ روبرت سرجنت يشرف الأدب الحضرمي بدراسته قديمه وحديثه كما أنه يستتبع الآثار الحضرمية بحسب استطاعته، فمن كرم الضيافة أن يساعده كل منا بما لديه من مرغوباته.

والذي يراه هذا العاجز أن الأدب الحضرمي الذي طابعه خاص إنما يتجلى في اللغة الدارجة وأمثالها وأشعارها أكثر مما يظهر في المصنفات الفصحى، والدارجة هي اللغة العامة التي تظهر فيها النفسيات بمظهره الطبيعي وهي لغة التخاطب، والفصحى لغة الكتابة. والأشعار الدارجة هي التي تعبر عن الأحاسيس القومية وتتجه إلى كل ضرب من ضروب الحياة، والأشعار الدارجة هي التي تنبئ عن تقلبات التاريخ الحضرمي الحديث وتصور لنا الحياة الحضرمية بأجلى مظاهرها في جدها وهزلها وحربها وسلمها. ومخاصمتها ومداعبتها.

ولست أنكر أن المؤلفات الحضرمية الفصحى تعطي قارئها ما تعطيه من الصور المجملة للقطر وللعصر وتمنحه شيئاً يستنتجه من أحوالها ولكنها ليست بالميدان الذي تتماوج فيه نفسيات القوم وعقلياتهم. ولا هي بالرحبة التي يمرح فيها الشجي والخلي والبر والفاجر والكاتب والأمي.

وختاماً نتمنى أن تنال حضرموت في زيارة هذا المستعرب النبيل خيراً كبيراً وأن يؤوب من زيارته مالئاً عيابه بما يؤمله ويتمناه.

* * *

من قصائد
الأستاذ محمد بن هاشم

الصلح الوئام

فاح من أرجائه نفح الخزامى ... فاستهلت منه أرواح الندامى
صبح الوسمي نعمان ولا ... برحت تهواه أفواج النعامى
يا نسيماً هَبَ من نحو الحمى ... يستثير الوجد منا والهيامـا
لست لو أهديت مسكاً أذفراً ... مثلما أهديت شيحاً وثمامـا
ذكراني عهد أيام الصبا ... حينما أرخى لنا الدهر الزمامـا
حين كان العمر غضاً والهوى ... مونقاً والعيش برداً وسلاما
ذاك دهر ما شكينا خلة ... يستحق العتب منا والملامـا
ما اشتكينا قط ضعفاً أو عنى ... أو طعاماً أورث البطن السقاما
ما لنا والليل مرخ سُدْله ... لم ننم والناس قد باتوا نياما
مذ أشاب الفود عصر طالما ... نبذ الأحرار واختار اللئاما
فاستحالت فيه حالات الورى ... بعد طيب العيش بؤساً وخصاما
ليت شعري والأماني حلوة ... هل يعيد الدهر للعرب الوئاما
أو ترى عيناي ما أرجوه من ... أمة تحيى وشعب يتسامى
أي شيء يرتجي منا الأولى ... سددوا نحو تصافينا السهاما
يا بني الأحقاف هبوا إنكم ... بالوفاق الحق تلقون المراما
وليسامح بعضكم بعضاً وكو ... نوا على رغم العدى قوماً كراما
طالت الشحناء حتى أصبحت ... وهي تنمو بيننا عاماً فعاما
أو لم نشرب على عهد الصفا ... فعلى ماذا تفرقنا على ما
قاتل الله الهوى حتى إذا ... ما محاه قاتل الله الطغاما
كدروا صفو ربانا وامتطوا ... صهوات تورث الشعب الحِماما
إنّ جهل المرء يرديه وقد ... يبلغ البغي به الموت الزؤاما
يا بني الأوطان شدوا أزركم ... ببني الزهراء حباً واحتراما

لا غنى عنهم بكم كلا كما ... لا غنى أيضاً لهم عنكم دواما
فاشربوا كأس التصافي وانبذوا ... من سعى غياً إلى الشر ـ وهاما
رُبّ ذي نسك أفين زائف ... لم يكن إلا لكم صلى وصاما
هذه أيدي بني الزهراء فهل ... منصف يجلو عن الحق الظلاما
يصدع الريب برأي حازم ... وبقلب مخلص يروي الاواما
إن لي في آل همدان رجا ... أن يزيحوا عن فم الصلح اللثاما
ولنا في غيرهم ممن سموا ... ذروة الإنصاف أن يجلوا القتاما
رحم الرحمن منا ورعى ... ووقى من جد في الصلح وقاما

* * *

إلى سوح وادي النيل

إلى سوح وادي النيل ينبعث العتبُ ... وينقم منها ما رمته به الشعبُ
لك الله من جرنال بغي تناولت ... بإيذائها قوماً لها عندهم حبُّ
حنانيك وادي النيل ما تبتغين من ... رجال لهم في مشمخرّ العلا كعبُ
شداد إذا عودوا لطاف إذا رضوا ... رزان إذا أوذوا كرام إذا سبوا
شحذت عليهم من يراعك صارماً ... ليقتط منهم أنفساً ما لها ذنبُ
وماذا جنوا يوماً عليك فتشأري ... لنفسك ثاراً روحه الشتم والثلبُ
على رسل من يوحي إليك فإنما ... قصاراه أن يغتال مبدأك الشغبُ
ولو كان هذا منك أول مرة ... عذرنا وقلنا جيد الخيل قد يكبو
ولكنه يبدو كحقد مؤصل ... وذحل تجاه الفاطميين لا يخبو
نشرت قديماً عن عداهم مقالة ... تكدر من جرائها وردك العذبُ
وها أنت أيضاً قد أتيت بمنكر ... من القول لا يأتي به من له لبُّ
وللخب من فحوى الخطاب علائم ... تنبّيء حقاً أنه الرجل الخبُ
أغرك منا يا سعاد تساهل ... وغرك من أقوامنا الخلق الرحبُ
فإن قد عزبنا عن كلاب كثيرة ... فعن مثل وادي النيل لا يحسن العزبُ
لها عندنا قدر جليل ومركز ... يباح به في شأنها الطعن والضربُ
أجل إن في النعّاق من لا نجيبه ... ومن ذا الذي يعوي إذا نبح الكلبُ
وإلا فإنا – والبراع بكفنا – ... لنا من مجاري أنفه مرهف عضبُ
يكفكف من غرب العتاة وينتهي ... بقاضية تدوي لها الغور والهضبُ
ويركب من متن الجهالة خطة ... يرد صدى آثارها الشرق والغربُ
يراع يُرى في الأمن سهلاً مسالماً ... ولكنه في الذعر مفترس صعبُ
نزيه عن الفحشاء ما دام قادراً ... ويجعلها طباً إذا عدم الطبُ
حليم جهول ناسك متهتر ... كريم لئيم لين المجتنى صلبُ

تجمعـت الأضـداد في عرصـاته ... ففي بعضها سلم وفي بعضها حربُ
إلى النيل نشكو الساكنين ضفافه ... ونشكو إلى من كان منهم له قلبُ
فقد نالنا من بعضهم ما أصابنا ... بقرح له في جوف إحساسنا نقبُ
وقد رابنا من بعضهم أن سيفه ... لنصرـ عدانا لا يفل ولا ينبو
ولكنه إن رام يوماً كتابة ... لإنصافنا يعرو قريحته النضبُ
يقلد ثلب الخصم فينا بلاهة ... لقد جل فينا من بلاهته الخطبُ
ويقدح لا عن مصدر ذي نزاهة ... سوى ذلك النبع الذي كله كذبُ
يقولون إنا مشركون وإننا ... دجاجلة في سوحنا تنصب النصبُ
وقد ملاؤا الدنيا صراخاً بأننا ... أشر الأولى مرت بأرضهم السحبُ
وأن بني آبائنا وجدودنا ... ملاحدة في الناس ليس لهم ربُ
فصبر جميل والجلالة بيننا ... شهيد وعون المستعان لنا حسبُ

* * *

قصيدة يمتدح فيها النادي العربي

قالها في حفل سنة ١٣٤٤هـ

لذوي المكارم والنهوض عزائمُ ... ولمن غدى يهوى الرقي معالمُ
والمكرمات وإن تعاظم نيلها ... فلدى العزيمة يصغر المتعاظمُ
ومؤسسو دور الرقيّ بأمة ... سرج ينير بها الظلام القاتمُ
ورثوا من الرسل الكرام مواهباً ... تعنو الأنوف لمن وهي رواغمُ
وتكفلوا حدو الشعوب وسوقها ... فيقوم قاعدها ويمشي القائمُ
وتبؤوا مهج الأنام فأصبحوا ... ولهم بأعماق القلوب معالمُ
وبسنغفورا من أولئك عصبة ... شهد الجهول بفضلهم والعالمُ
شدوا المآزر للحاق بمن له ... بنيت على هام السماك دعائمُ
طوبى بني النادي الأغر فإنكم ... في طلعة العلياء ثغر باسمُ
عبقت بأكناف البلاد نوافح ... من عزمكم وجرت بذاك نسائمُ
أقررتم العين القريحة من ربى ... وأديرقَّ له العدو الظالمُ
ونموتم النجح الذي يحيى به ... من كان يعرب جده أو هاشمُ
هذا هو الرأي السديد وخير ما ... ضمت عليه قلانس وعمائمُ
طبتم بني الزهراء أفعالاً كما ... طابت بكم في الخافقين مكارمُ
ونجا بكم وادي ابن راشد وهو قد ... حامت عليه من الهنات حوائمُ
إنا بني وطني لفي عصر به ... موج المعارف في الورى متلاطمُ
عصر لجهال الشعوب محارب ... ولمن تحلى بالعلوم مسالمُ
عصر به رب الجهالة ملجم ... حاف ورب العلم سيف صارمُ
أرجال ذا النادي الذين بفضلهم ... سحت على العافين منه غمائمُ
قمتم بما فوق الوجوب فشكركم ... فرض وشكر البر حق لازمُ
لم تنس بعثتنا العزيزة صنع من ... نالت يداه أعارب وأعاجمُ

هـي بعثـة هبـت لـتروي غلـة ... لم يـثن عزمتهـا القويـة نـاقمُ
نشـأ يـؤم ذرى العلـوم بهمـة ... خنعـت رقـاب تحتهـا وجمـاجمُ
هـم هـؤلاء رجـال نهضـتنا غـداً ... وكـذاك أشـبال الليـوث ضراغـمُ
دم يـا رئـيس الأكـرمين مهنئـاً ... يغشـاك مـن حلـل الجـلال نسـائمُ
لا زلـت والسـعد المخـيم طـائع ... لـك والزمـان بكـل وقـت خـادمُ

* * *

الغرب والشرق

بـرح الخفـاء وزاغـت الأحـلامُ ... ودرى بـما ينـوى لـه الإسـلامُ
وتقشعت عنه الشكوك فلم تعد ... تطغـى كـما كانـت بـه الأوهـامُ
يكفيـه مـن غفلاتـه فلطالمـا ... ألقـت عليـه دروسـها الأيـامُ
ولطالما عاثت ذئاب الغرب في ... عرصـاته والمسـلمون نيـامُ
لم يسل بعد ذهاب مصر- وتونس ... إلا وراح عراقـه والشـامُ
أواه لـو بعـث النبـي ولـو رأى ... لعـراه ممـا قـد جـرى إيـلامُ
مهلاً بني الغرب الجشوع ليكفكم ... جشـع يـذل ونهمـة وأوامُ
مهـلاً فقـد جرتم عـلى جيرانكم ... المـال ينهـب والنفـوس تضـامُ
فزنـوا قلـيلاً فـالعيون يـواقظ ... والحقـد يربـو والقصـاص يـرامُ
وارعـوا ذمـام اللائـذين بعهـدكم ... أم لا فلـيس عـلى القـوي ذمـامُ
أنـى لعهـد الطـرس يوثـق باغيـاً ... مـا العهـد إلا مـدفع وحسـامُ
هبوا بني الشرق المجيد فأنتم الـ ... مستضـعفون وتلكـم الحكـامُ
يتربعـون ذرى السـيادة بيـنكم ... فهـم الـرؤوس بأرضـكم والهـامُ
إنـا لنـأنف أن نقـر بـأنهم ... سـادوا الـبلاد وإننـا خـدامُ
لكننـا بـالرغم عنـا لا نـرى ... إلا نُـذلّ لخسـفهم ونسـامُ
ليعش رجال الترك وليحيو فقد ... هبـوا لتجديـد الفخـار وقـاموا
لم تلـف أطـماع الفرنجـة منفـذاً ... فـيهم ولم يحصـل بهـم إلمـامُ
طارت شعاعاً مذ أتاها مصطفى ... والـذئب يجفـل إذ أتـى الضرـغامُ
بطل سرى في الكـون طيب ثنائه ... وزهـت لفـاخر نصرـه الأعـلامُ
ويعينه بالرأي (عصمت) من له ... في الفكـر سـهم صـائب ومقـامُ
قادوا الجحافل كي يصونوا محتداً ... الـذل دون منالـه والسـامُ
وحمـوا حمـى الإسـلام أن تنتابـه ... سـفل تلطـخ سـوحه وطغـامُ

ولأهـل وادي النيـل ألـف تحيـة ... يقفـى بهـا الإجـلال والإكـرامُ
فقـد اقتفـوا أثـر العـلا وتوغلـوا ... في نيلهـا وعنـوا بـذاك وهـاموا
حتى ارتووا نميرها وغـدوا وهـم ... بـين البريـة ماجـدون كـرامُ
نبـذوا حفـاظ الإنكليـز بهمـة ... قعسـاء تكبـو دونهـا الأفهـامُ
أطوائف الإسلام هبوا وأقدموا ... يكفـيكم الإهمـال والأحجـامُ
والـدين مبـدؤه التقـدم والعـلا ... والجـد والإجهـاد والإقـدامُ
فعـلى المخـالف نقمـة وتعاسـة ... وعـلى المطيـع تحيـة وسـلامُ

* * *

مرثية في الحبيب العلامة
أبي بكر بن عبد الرحمن بن شهاب

المتوفى بحيدر أباد ١٠ جماد الأولى ١٣٤١هـ

أرونا احتمال الصبر كيف يكونُ ... وكيف به الخطب المهول يهونُ
تغازلنا الدنيا فنصبو وإننا ... لنعلم حقاً أنها ستخونُ
فكم من ذوي الآمال من راح وانتحت ... دهور على آماله وقرونُ
تهد المنايا ما ابتنينا من المنى ... وقد شيد منها في الحياة حصونُ
عجيب لذي الأموال يزهو تعاظماً ... حيال المنايا والجنون فنونُ
رمتنا الليالي بالمصاب الذي دهى ... فذابت قلوب حوله وعيونُ
رمتنا بفقد الفخر من شاد للعلا ... بناء تناءت عن مداه ظنونُ
رمتنا فلم نسطع دفاعاً وحولنا ... غضافرة تلوي العدى فتلينُ
فليت المنايا يرتشين فنفتدي ... وهيهات ترضى بالفداء منونُ
مصاب دهى الإسلام والعلم والتقى ... فهاجت به في الخافقين شجونُ
ودك المنى دكاً من الدكن الذي ... سيعروه من عظم المصاب جنونُ
تولى أبو بكر وما مات من له ... مآثر في دور العلا وشؤونُ
تولى أبو بكر فأبقى أسى له ... بأحشاء طلاّب العلوم كمونُ
قضى ـ ناشراً للعلم تبكي لفقده ... شروح أبانت فضله ومتونُ
إمام يحل المعضلات بحكمة ... عليها وقار سائد وسكونُ
وتجني نوادي العلم منه طرائفاً ... فتفصح عن آثاره وتبينُ
إذا ما نطقنا بالقريض فما لنا ... سوى شعره عند القريض معينُ
وإن نحن يمننا (البديع) ففي (إقا ... مة الحجة) العلم العزيز مصونُ
وسائل أساطين (المواريث) هل همُ ... لغير (الفتوحات) النفيس ركونُ
ومن يرج في علم (الأصول) تغلغلاً ... يكب على (الترياق) فهو ضمينُ

وترشـد للتوحيـد منـه (نـوافح) بما قد حوت أهل الرشاد تدينُ
أجل وله في (المنطق) (التحفة) التي تـدلى لنـا منهـا جنـى وغصـونُ
لـه خدمـة في كـل فـن ومـن هنـا سـتبكي علـوم بعـده وفنـونُ
فللـه أنفـاس يضـوع عبيرهـا وجوهرها وسط الـتراب مصونُ
فيـا لـك مـن خطـب كـأن وقوعـه عـذاب عـلى هـام العبـاد مهـينُ
فـلا جفـن إلا وهـو منـه مقـرح ولا قلـب إلا وهـو منـه حـزينُ
ذهبت أبا بكـر وألقيـت في الحشـا أسـى تـذهب الأيـام وهـو مكـينُ
عليك سـلام الله مـا دمـت خالـداً بـدار سـلام لـيس فيـه فتـونُ
تحـف بـك الحـور الحسـان مهنـأ وأنـت بقـرب المرسـلين قمـينُ

* * *

المرء يذهب والثناء مخلد

مرثية قالها الأستاذ ابن هاشم في القاهرة بتاريخ ١٨ ذي الحجة ١٣٤٥هـ عندما بلغه خبر وفاة المحسن عمر بن محمد السقاف في مدينة سوكابومي باندونيسيا.

دعني وعتبي اليوم عزرائيلا ... فالخطب أضحى من لدنه جليلا
أودى بمقدام فأثكل أمة ... وأضر إقليماً وأيتم جيلا
حتام عزرائيل ترزأنا ألا ... يجد الحنان إلى حشاك سبيلا؟
تختار أشرفنا ومن تكن العلا ... رفعت إليه أكفها تبجيلا
أتراك تهوى الأكرمين وتصطفي ... من نال أوسمة الفخار – خليلا؟
لله أنت نبيل قومك إنه ... لا يصطفي إلا النبيل نبيلا
لو لم تكن باب الجنان ولم تكن ... إلا رسولاً داعياً ووكيلا
لرحلت عنا إذ رحلت مذمماً ... ونزلت فينا إذ نزلت ثقيلا
لم تدر طعم الثكل حتى أنّ ما ... تأتيه فينا لا تراه وبيلا
أ أخال عتبي نافعي كلا ولا ... يغني من الموت الزوأم فتيلا
الموت غاية كل حي إنه ... لذوي الكمال يزيدهم تكميلا
والموت غرة دور غيب غامض ... طرف الحكيم يرد عنه كليلا
تتهافت الوراد في عرصاته ... طلباً لورد لم يزل مجهولا

* * *

أبت المنية أن تؤجل لحظة ... (عمراً) فتنعش (حضرموت) قليلا
وأبى الزمان بأن يشاهد مرة ... (لأبي محمد) الكريم مثيلا
ما مات من تك هذه آثاره ... في الخير تجنى بكرة وأصيلا
كلا ولا نضبت صلات فتى بها ... أضحى جميع بلاده مشمولا

المـــرء يـــذهب والثنـــاء مخلـــد فينـــال منـــه عـــلى الجميـــل جمـــيلا

* * *

يـا راحـلاً عـن هـذه الـدار التـي كـــل الثـــواة بهـــا تريـــد رحـــيلا
الشـعب بعـدك أنسـه وعـزاؤه قـد غـادراه وصـبره قـد عـيلا
لـو كـان يغنـي نوحـه وعويلـه مـــلأ الفضـــاء نياحـــة وعـــويلا
لـــك في أنـــاسي العيـــون مكانـــة ملكـت عليهـا عرضـها والطـولا
وتفتحت لك في القلوب ضرائح فغـــدوت في حبـــاتهن نـــزيلا
أنـت الـذي شـاد المـدارس عزمـه وشـفى لطـلاب العلـوم غلـيلا
وأخـاف جيش الجهـل حتى فلّـه وتعقـب التضـليل والتـدجيلا

* * *

مـن يسـع في نفـع الـبلاد يجـد لـه مجـداً عـلى هـام العبـاد أثـيلا
أو يُحـــي ناشـــئة الـــبلاد فإنهـــا تكســـوه مـــن أكبادهـــا إكلـــيلا
المجـد صـعب المرتقـى مـن يبغـه فســينتحي شــأواً إليــه طــويلا
يجتـــاز مرحلـــة الحيـــاة مجاهـــداً فيـــزيح ضراً أو يبـــل علـــيلا

* * *

يـا مـن لـه في (سـوكابومي) نزهـة جملـت فلـم نعلـم لهـا تفصـيلا
أصـبحت في كنـف الكـريم مهنـأ والله خـــير راحمـــاً وكفـــيلا

* * *

فقيد العلم والإصلاح

مرثية قالها الأستاذ عندما بلغه نعي الفقيد العلامة حسن بن عبد الله الكاف وهو ببندر عدن عند عودته من مصر سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م.

غفلنا عن الفلك الدائرِ ... ونمنا فلم نرث للساهرِ
ولم ندر أن شباة المنون ... أحد من الصارم الباترِ
وأن الزمان وصرف الزمان ... أضرّ من الأسد الكاسرِ
وما المرء إلا أسير الخطوب ... تصول على جده العاثرِ
بها يستفيق صريح الجمود ... ويشعر من ليس بالشاعرِ
وتغدو المنايا تجاه الفتى ... بمنزلة الصائد الماهرِ
فيمضي لطيته تابعاً ... سواه إلى العالم الآخرِ
قطعنا الحياة بأشواطها ... كفاحاً إلى النفس الآخرِ
وقد هدأت من ثواة القبور ... وسكانها ثورة الثائرِ
وما الموت إلا انطلاق النفوس ... سراعاً من الجسد الحاصرِ
تجشمن فيه هوان الحصار ... وكابدن سيطرة القاهرِ
فما انفض عنهن حتى خلصن ... وحلّقن في الجوّ كالطائرِ
ورحن يجسن خلال النجوم ... ويسبحن في الفلك الداهرِ

* * *

(أبا عمر) نلت ما تشتهي ... من القرب في حضرة القادرِ
وغادرت داراً، كؤوس الردى ... تدار على البر والفاجرِ
فما كنت فيها قليل الهموم ... وما كنت بالهادئ الخاطرِ
وما كنت إلا السراج المنير ... لنا شيئة الزمن الحاضرِ
خرطت القتاد وجبت البلاد ... لتنفع بالموطن العامرِ
لذلك لما سكنت الثرى ... وغاب سنا بدرك السافرِ

تركـت مـآقي تسـح الـدموع لفقـدك كالصـيّب المـاطرِ
وخلفـت شـعباً عظـيم الأسـى لمـا فـاض مـن فضـلك الزاخـرِ
ومـن يتصـدى لنفـع العبـاد تفديـه بـالخف والحـافرِ
ولـو قبـل الـدهر منهـا النفـوس لأثـرى ولم يـك بالخـاسرِ

* * *

على (حسن الكاف) أزكى السلام يـزف إلى روحـه الطـاهرِ
بكتـه السـطور ومـا في الصـدور مـن العلـم والأدب البـاهرِ
مصـاب رزئيتـه قـد أتـت عـلى بـاطن الصـبر والظـاهرِ
فـأواه مـن حادثـات الزمـان وأواه مـن حكمهـا الجـائرِ
هبونـا سـلونا فمـن للـورى ليسـلو عـن خـيره الـوافرِ
ومـن للـبلاد بـذي حكمـة يـدبر في فلكهـا المـاخرِ
أرى المـوت يختـار في بطشـه رجـالاً مـن الـنمط الفـاخرِ
رجـالاً هـم الغـوث للمستغيث وضـوء الحنـادس للحـائرِ
هنيئـاً لمـن مـات في قومـه وهـم بـين داع لـه شـاكرِ
فيحظـى بأدعيـة المـؤمنين ويلقـى مجـاورة الغـافرِ

* * *

مرثية

أبيات من قصيدة قالها في تأبين العلامة محمد بن عقيل بن عبد الله بن يحيى في مدينة تريم في بيت السيد أحمد بن عمر بن يحيى سنة ١٣٥٠هـ.

هو الحين لا العلم الغزير يرده ... ولا الحلم في صيد الرجال يصده
هو الحين مهما يبلغ المجد بالفتى ... صعوداً فلا يغني عن الحين مجده
فلا حول، إما مكثراً فتبيده ... ظباه وإما فائقاً فتهده
عزيزي – وما إن من عذير من الردى ... يفضل أفذاذ الرجال فرنده
فيالته – والدهر من ليت ساخراً ... يري عمره ما كان يأخذ زيده
فينجاب من بين الأماثل نحسه ... كما انهل ما بين الأسافل سعده

* * *

بني علوي مات عنكم محمد ... أب مشفق جم نداه ورفده
بني علوي مات عنكم محمد ... أب في تلاقي مجدكم ظل جهده
بني علوي إن بقي في نفوسكم ... نفيس من الإشفاق فاليوم عهده
وإن يبق في غرب الجفون رذاذة ... من الدمع مخبوء ففي اليوم ورده
هلم انثروا الدمع الغزير فإنما ... تناثر من مجد الحضارم عقده
ستبكي ونبكي ما بقينا فهل لنا ... سلوٌ به ينسي عـ علاه وجده
بهمته العظمى تسلق شامخاً ... من المجد حتى حل نبتون بنده
وحلق في جو المعارف طائراً ... فلم تلهه ليلى النسيب ودعده
من العظماء الطامحين بعزمهم ... لإدراك شأو لا يصور حده

* * *

إلى أن قال:

أقر يراعي بالقصور لأنه ... رثاء جليل جل في الناس فقده

تغمـده المـولى بفـوج مـن الـرضى يضـوع خزامـاه الضـريح ورنـده

* * *

ترحيب بعميد الأسرة الكافية

قصيدة قالها في الاحتفال الذي أقامه نادي الشبيبة المتحدة بتريم بمناسبة قدوم السيد المحسن عبد الرحمن بن شيخ الكاف من سنغافورة سنة ١٣٥٠هـ.

قدمت أب الأشبال خيرة مقدمِ ... وفزت بما أملّت من كل مغنمِ
وعدت قرير العين للوطن الذي ... يحييك في ثغر به متبسمِ
وكم عاد للغناء قوم وإنما ... قصاراهم الأقصى احتكار التنعمِ
وإن أنت إلا ذو الجوانح تلتظي ... أسىً لخراب بالبلاد مجسمِ
تبيت على شوك القتاد مفكراً ... بقلب من الآمال والخير مفعمِ
ولو كانت الآمال تغني لنفسها ... لفاز رجال في المعالي بأسهمِ
ولكنها الآمال موثوقة العرى ... بإسداء معروف وإنفاق درهمِ
فإن فشل المعروف فالسيف وحده ... كفيل بتقويم الذي لم يقومِ
وخير علاج للأثيمين أن ترى ... سفيفاً من الأشلاء تمخر في الدمِ
وأي امرئ لم يشفه مرهم الندى ... سيشفى بماضي الشفرتين المسممِ
وأي بناء شيد بالنقد وحده ... فما هو إلا بالبناء المهدمِ
أبا شيخ إن الحلم في الناس مختف ... فمن يستشر ذي الحلم لم يتندمِ
وقد ضل قوم يحسبون ذوي الغنى ... جميعاً ذوي حلم جليل معظمِ
وما شعروا أعماهم الله أنه ... كورد مشاع في الرجال مقسّمِ
فما كل مبتور الثراء بأحمق ... وما كل موفور الثراء بقيمِ
فكم من عماد هده جهل موسر ... وكم من فساد صده عقل معدمِ

* * *

تقدم إلى الإصلاح فالشعب سامع ... لما تبتغي يا بن الفقيه المقدّمِ

أجل نظراً فيمن حواليك تلفهم ... سراعاً إلى ما شئته من تقدمِ
فهبوا بني القطر السعيد فهذه ... طلائع رأيات الزعيم المكرّمِ
ربيب المعالي باذخ المجد من له ... أياد لها تأوي العفاة وتحتمي
عليم بأسرار النهوض محنّك ... بما تنبئ الآيات للمتوسمِ
ترنم أرباب القريض بذكره ... وقد صدقوا في كل ذاك الترنّمِ
ولو لم يكن يشكو من المدح غاضباً ... لجئنا بكنز في الثناء مطلسمِ
ولكن جدير أن نهنئ بعضنا ... بأوبته للقطر بالخط والفمِ
فها حضرموت اليوم تزهو بعزمه ... لتخرج عن دور عتيق ومظلمِ
وترنو إلى مستقبل باهر به ... نهوض وئام في نهوض تعلّمِ

* * *

وما قطرنا إلا بنا إنْ نقم به ... يعمّرْ وإن نقعدْ به يتحطّمِ
لنعمل إذا قلنا وإلا فإنها ... ستمضي ـ بنا أعمارنا في التكلمِ
وما القول دون الفعل إلا إساءة ... إلى هيئة الكون البديع المنظمِ
فهيا بنا نخطو فهذا زعيمنا ... يتمم في الإصلاح ما لم يتمّمِ
ستمضي ـ وعين الله ترعى مضيّنا ... ويعضدنا سير القضاء المحتمِ

* * *

حكم الله بالوئام

قصيدة قالها بمناسبة انتهاء مشكلة ثبي وتريم وقدوم منصب آل العيدروس بثبي بعد فترة انقطاع دامت عشر سنين:

هنئـــوا المكرمـــات بالاتحـــادِ ... وتنـادوا فـاليوم يـوم التنـادي
وانشـطوا للجهـاد في سـبل المجـ ... ـــد فهـذا مـنكم أوان الجهـادِ
فلقـــد آن مـــن بنـــي علـــوي ... أن يجيـدوا الكفـاح فـوق الجيـادِ
ويعيـــدوا للعـــالمين فصـــولاً ... مثلـــت في مســـارح الأجـــداد
مـــن إبـــاء وعفـــة وســـخاء ... وعلـــوم وســـؤدد واتحـــادِ

* * *

قـم بنـا نصـطبح سروراً ونـدعو ... مـن أردنـا مـن حـاضر أو بـادي
وننـادي طـاب الرحيـق فيـأتي ... نحونـا كـل راقـص أو شـادي
أيهـا الخافقـان رقصـاً فهـذا ... كوكـب السـعد مومياً بـالمرادِ
فلتمـل فوقنـا النجـوم مـن الرقـ ... ـص وتهتـز تحتنـا أرض عـادِ
فـأليم افتراقنـا في انتقـاص ... ونعـيم اتفاقنـا في ازديـادِ

* * *

حكـم الله بالوئـام وأمضـا ... ه تعـالى مـن فـوق سـبع شـدادِ
وانتضى سيفه الصقيل أبو بكر[1] ... لحسـم الخـلاف بـين العبـادِ
وهو – والمين لا يقارب شعري – ... لـبروج الإصـلاح أقـوى عـمادِ
سـل مـن نفسـه الكبـيرة رأيـاً ... مـس نـار الشـقاق بالإخمـادِ
ودعـا ابـن الحسين للسلم فارتا ... ح لمـا فيـه مـن منـى ورشـادِ
ثـم هـب الاثنـان فاغتبقـا صر ... فـاً بغفـو الرقيـب راح الـودادِ

(١) السيد أبو بكر بن شيخ الكاف.

وتوافوا صبيحة الأحد السا ... مي بما ناله على الآحادِ
ذاك يوم إنْ أنسَ لا أنسَ ما فـ ... ـيه من الابتهاج والاعتضادِ
يوم أمَّت تلك المواكب بشـ ... ـاراً لربط الأجداد بالأحفادِ
وانثنوا والبنود تخفق والبا ... رود يدوي والروح ملء الفؤادِ
تتجلى وراثة المصطفى فيـ ... ـهم وهم قاصدون أم البلادِ
يا له موكب حوى الغرّ من آ ... ل النبي الأكارم الأمجادِ
من بني العيدروس والكاف والمشـ ... ـهور والشاطري والحدادِ
وشهاب وبلفقيه وسهل ... وبني طاهر وآل الهادي
خرد والسقاف ثم بني الشـ ... ـيخ أبي بكر الجليل الأيادي
وجنيد وآل يحيى مع البا ... ر وآل السري زين الفؤادِ
حبشي وآل عيديد والزا ... هر ثم الجفري ذي الإمداد
ومع الهندوان آل سميط ... ثم آل العطاس مروي الصادي
وسواهم من سردهم قد تناهى ... في بحور القريض والإنشادِ
سادة ترتقي ذرى العز بالعـ ... ـلم ونبذ الهوى وخرط القتادِ

* * *

نسل طه هبوا وشدوا على الوحـ ... ـدة كي تسلكوا فجاج السدادِ
واحذروا الفرقة المشومة في الشعـ ... ـب ففيها شماتة الحسادِ
لا برحتم فخر البلاد ولا زلـ ... ـتم فحول الرشاد والإرشادِ
وتريم لا انفك صيّبها الهتّا ... ن يرمي السيول في كل وادي
منبت الصالحين عاصمة السا ... دات والأكرمين والأجوادِ
وجهت شطرها قلوب ودامت ... في سلام ولا عدتها الغوادي

* * *

وله قصيدة

أنشدت هذه القصيدة على لسان البعثة الجاوية التي قدمت إلى مصر لطلب العلم تحت رئاسته وأنشدت بحضور بعض أعيان مصر وأعيان الجالية السورية في حفلة بدار الرابطة الشرقية ونشرتها صحيفة السياسة ١٣٤٤هـ.

للعلم يرحل من بالجد يطلبه ... إن جل في مقلة الثاوي تغربه
والشرق أجدر ما تحت السماء بأن ... يؤم للعلم عرض اليم ينهبه
فطالما ظل في ذل وفي ضعة ... والجهل يرفعه طوراً ويجذبه
هلم به أيها العلم الشريف فقد ... دكت معالمه وانحط منصبه
هلم به فلعل العلم يسعده ... يوماً لما كان عند الجهل يحجبه
وأن يتاح له عَود إلى بِرَةٍ ... قد كان يعجبها يوماً وتعجبه
هلا يرى الشرق أن الهون ممتلك ... خناقه وخيال الغرب يرعبه
بلى وإن كؤوس الذل مترعة ... أمامه وهو مدني الكأس يشربه
العلم أشرف ما ترجى النجاة به ... وأشرف الشيء في تحصيل أصعبه
وهذه بعثة الشرق القصي أتت ... وعندها أبعد المأمول أقربه
يسوقها العزم مذ سارت ومذ برحت ... للعلم يصحبها شوق وتصحبه
حتى أناخت بوادٍ ظل منتجعاً ... للناس وهو كريم الترب مخصبه
فناءكم يا بني مصر الكرام غداً ... مأوى لمن ضاق في ذا الشرق مذهبه
وسوحكم مطلع للعلم مزدهر ... فشمسه بزغت منها وكوكبه

* * *

يا أيها السادة الأمجاد من حضروا ... بمحفل ليس إلا العلم مأربه
ويا جهابذة القطرين من فخرت ... بفضلهم مدن الوادي وسبسبه
فيكم وأنتم بناة المجد خير غنى ... للنشء فيما يرجيّه ويرقبه
والعلم ما بينكم ألقى ركائبه ... أبو عبيدته فيكم وقطربه

وعندكم مورد عذب لمن قصدوا ... رحابكم وهنيء الورد أعذبه
يقدم المشرق الأقصى ـ تحيته ... لكم ويجأر من جهل يعذبه
وهذه البعثة الأولى مغلغة ... تحتث نضو السرى ليلاً فترعبه
وافت إليكم فلا ريب يخالجها ... بأن مَن أمكم ما خاب مطلبه
لن تفشل البعثة الأولى وقد قصدت ... في مصر ـ للنشء أقواماً تهذبه
ولن تعود إلى الأوطان قايلة ... (فيم اقتحامك لج البحر تركبه)
من ظل (فؤاد) لا يلم به ... ضيم ولا سطوات الدهر ترهبه
ولا يشاهد إلا ما يُسَرُّ به ... فاليُمن يسقيه والأقدار تطربه
منا لمصر ـ وأهليها السلام فقد ... صرنا نقرر ما تملي ونكتبه
هذا ولا انفك وادي النيل مندفعاً ... في المجد يخترق الأفلاك منكبه

* * *

وله موشح

ذكريات عن عهود في الصغر ... هاجها نشر الخزامى والبشام
والدراري الزهر إبّان السحر ... خافقات كفؤاد المستهام
عندما همت يد الصبح الأغر ... بعروس الكون في رفع اللثام
واستعد الطل خوفاً للسفر ... من لظى الشمس إلى جوف الغمام

* * *

إنَّ ما أبصرته أرقني ... هل لهذا الداء يوماً من دوا
ليت شعري ما الذي أحرقني ... أبديع الصنع أم لسع الهوى
لم يكن سِنِي وإن أرهقني ... سالباً مني تباريح الجوى
ما بقلبي من وهيج وبطر ... ما بجسمي من خمود وسقام

* * *

عمم الوسمي قيعان الربى ... فارتوى ما ثَم من رند وعود
وإذا مرت به ريح الصبا ... زحزحت عنه التجافي والصدود
فانثنى يختال في برد الصبا ... ذاكراً ما كان من تلك العهود
وسرى رياه عطراً وانتشر ... كانتشار النور في جنح الظلام

* * *

أصبح الجسم ثقيلاً حمله ... عائقاً بالروح عن نيل الأمل
سامها ذلاً وأضحى ظله ... بجوار الروح في أقصى الثقل
غير مُرض في حماها فعله ... فاعتراها منه ضيق وملل
فهي لا تنفك منه في سهر ... وهو لا ينفك عنها في منام

* * *

جـل مـا أبدتـه أفكـار الـورى ... لم يكـــن إلا لأجـــل الجســـد
مـن قطـار خـب أو فلـك جـرى ... أو مناطيـــد علـــت للفرقـــد
أنـــا لـــولاه تســـنمت الـــذرى ... وترشـــفت رحيـــق الســـؤدد
ليـت لي منـه خلاصـاً أو مفـر ... لأرى مـن بعـده طيـب المقـام

* * *

أتـــراني بعـــد مـــا أهجـــره ... أتمنـى العـود في هـذا القفـص
أو كأيـــام الصـــبا أذكـــره ... ناسياً ما ذقت من قطع وقص
إن يكـن هـذا الـذي احـذره ... فمتى نـأمن مـن مـس الغصـص
ومتـى يـا ليـت شـعري سنسرـ ... بوجـود سـائد فيـه السـلام

* * *

وله من مفتتح مرثية

لا ينثني عن مضيه القلمُ ... مهما تسامت في صده الهممُ
ولا ينافي ما خطه قلم ... ولو برته الشعوب والأممُ
يراعة الكأينات ينعدم الـ ... موجود منها ويوجد العدمُ
لها مجاري الأقدار خاضعة ... والكون طراً وأهله خدمُ
قد جهل العالمون حكمتها ... فكم رنوا نحوها وكم وهموا
فلو درى الباحثون ما جهلوا ... عنها لما بحثوا ولا عزموا
ما استأثر الحق بالأرادة في ... تصريفه تنطوى به حكمُ
فلا تنال العقول ذروتها ... ولا تحل الأفهام ما تسمُ
المرء يبغي والدهر يرغمه ... والناس تسعى والموت يخترمُ
تلك الحياة وما الحياة إذاً ... إلا الصبا فالشباب فالهرمُ
أيام لهو تمر بسرعة ... كأنها في مرورها حلمُ
يغشى السرور بسوحها كدر ... كما تغشى أنوارها الظلمُ
فبابها بالهموم متفتح ... وشأوها بالمنون مختتمُ
الدهر حقاً أبو العظات وهل ... شعوب إلا يد له وفمُ

* * *

وله قصيدة ترحيب بالقاضي والأديب أحمد بن محمد الحضراني اليمني

الشعب يهتف والبلاد ترحبُ ... وتريم تشدو بالسرور فتعربُ
صادفت أرواحاً تحن صبابة ... لبليغ قولك إذ تقول فتعربُ
مذ جئت يا بن الأكرمين تطلعت ... همم تتوق إلى العلو وترغبُ
وتحفزت لسما المعالي أنفس ... قعدت بها عنها أماني خلبُ
ها أنت جئت وهذه الغنّاء قد ... نشطت وأهلوها بفضلك أعجبوا
هذي تريم معشعش القوم الأولى ... خصوا بأنهم الكثير الطيّبُ
مثوى بني الزهراء والبلد الذي ... ملأت زواياه الفحول النجّبُ
ما فيه إلا عالم يحدو الورى ... بعلومه أو زاهد متقربُ
ورجال رأي إن تغلب غيهب ... فبرأيهم ينجاب ذاك الغيهبُ
كانت مدائن حضرموت بمجدنا ... تزهو فيزهو شرقها والمغرب
كانت وهل كانت تفيد ونحن في ... طيّات عصر كله متقلبُ
يا أيها القاضي الذي عزماته ... رفعت فأدناها ثراها الكوكبُ
ذكرتنا أن المذلة خلة ... لم يرضها من للمعالي ينسبُ
وأريتنا فيك الحماس مجسماً ... ولك الشهامة والمعالي مذهبُ
وأثرت منا كامناً متأصلاً ... ما بيننا أخفاه عهد مرعبُ
بدمائنا امتزج الإباء تحدراً ... ممن له شرف النبوة تنسبُ
قسماً بصولة ذي الفقار وبطشه ... إنا إذا قمنا ليوث غضّبُ
لو إن أتيح لنا إمام حازم ... نقفو به الخطوات أنى يذهبُ
لرأيتنا يوم الكريهة نجتني ... هام الكماة وبالقوابض نضربُ
ونرى الردى ورداً يلذ شرابه ... فنؤمه ونذوق منه ونشربُ
ونقيم للآجال عزفاً شائقاً ... فالبيض ترقص والقنا بل تطربُ

لكننـــا والحـــزن مـــلء قلوبنـــا ... مـــا جـــاء عـــمٌ نرتضـــيه ولا أبُ
والأســـد في آجامهـــا إن فاتهـــا ... وجـــه الـــزعيم فكلهـــا تتثعلـــبُ
بلّـــغ أمـــير المـــؤمنين[1] ســـلامنا ... واذكـــر لـــه قومـــاً إليـــه تقـــربُ
واشرح ماسي حضرموت وقل له ... مســـتقبل حلـــك ونـــار تلهـــبُ
وإذا خـبرت فقـل لـه إن العـدى ... صـالوا عـلى أهـل الهـدى وتغلبـوا
فارأب بعزمك ذلك الصدع الذي ... قد كان من طول المدى لا يرأبُ
واجمـع شـتات بنـي أبيـك فـإنهم ... في حالـــة والله ليســـت تعجـــبُ
والملـك إن لم ينتشـل أهليـه مـن ... ورطـاتهم فهـو الخيـال الأكـذبُ
أبقـــــاه ربي آمـــــراً وموفقـــــاً ... ومظفـــراً ولـــه المقـــام الأطيـــبُ

* * *

(١) يقصد ابن هاشم به إمام اليمن يحيى حميد الدين، وقال الحضراني في شريط مسجل إن الإمام لما سمع هذه القصيدة بكى.

في الحماس

إذا نحــن زدنــا في عطــاء قبيلــة ... لكـف أذاهــا زاد فينــا انتقامهــا
هــي النــار إن شــبهتها وعطاؤنــا ... لهــا حطــب مــا زاد زاد ضرامهــا
فيا ضيعة المسعى فكم من صنيعة ... غــدت ضــالة لم يبــق إلا ملامهــا
فحاموا على البيض الحسان فأنتم ... كتائب يغشي ناظر الطرف لامها
فكم قد رأيتم من عقيلة معشر ... يــروق عيونــاً فرعهــا وقوامهــا
تبــاع وتشــرى بالكســاد ذليلــة ... وقد كــان لا يبــدو لخلــق كلامهــا
فــإن أنــتم لم تمنعوهــا فاصــبروا ... لآبــدة يبقــى عــلى الــدهر ذامهــا
ومن ذل لم يعدم غشوماً يسومه ... أذى فيريــه النبــع خوفــاً ثمامهــا
وهــل منعــت يومــاً فتــاة كريمــة ... قلائــدها أو وشــمها أو لثامهــا
وهل هو إلا الموت والموت فاعلموا ... يهــون ولا تحكيمهــا واصــطلامها
وإلا فشــدوا للجــلاء فلــم يفــد ... ســواه فعنــد الضــيم تجلى كرامهــا

* * *

عونك اللهم وتيسيرك[١]

قصيدة أرسلها لمدير صحيفة الترجمان السيد محمد بن عقيل بن يحيى بأندونيسيا بعد حادثة الاغتيال التي تعرض لها هناك:

أمنت حياتك كل شرْ ... والخصم منك على خطرْ
ويلاه من ذي سطوة ... يخشى لقاه ويحتذرْ
إن يسط سطوته فلا ... يبقي عليك ولا يذرْ
لا تتقى ضرباته ... وتكون من أقسى العبرْ
لا يضمحل من النفو ... س مدى الدهور لها الأثرْ
أعجب به من أشجع ... يبدو لعينك محتقرْ
لكنَّ في آثاره ... لعظيم شأن ذو خطرْ
أعني يراعك حينما ... أطلقته فسطاً وكرْ
وهو الرقيب على الأولى ... حادوا عن الدين الأغرْ
وأتوا من الفحشاء ما ... ينددي الجبين من الخفرْ
أسديت مشكور الصنـ ... ـيع وقلَّ منا من شكرْ
أهوِن بذيّاك السفيـ ... ـه الأحمق الغر الأشِرْ
غرته قوته فهب ... إلى مصاولة النحرْ
فإذا به أضحى جريـ ... ـحاً يستغيث بمن عبرْ
هذا جزاءك عاجلاً ... وغداً من المولى أمَرْ
واصل جهادك يا مدير ... الترجمان المعتبرْ

---

(١) مخطوطة بخط الأستاذ محمد بن هاشم في ضمن رسالة بعث بها إلى السيد محمد بن عقيل صاحب الترجمان وهي بحوزة حفيد الأستاذ ابن هاشم السيد هاشم بن طاهر. وقد نشرت صحيفة الترجمان بعددها ١٣ سنة ١٣٥٦هـ ص٤ هذه القصيدة تحت اسم (... بن يحيى) ولعل ذلك من الأخطاء الغير متعمدة التي وقعت فيها الصحيفة والله اعلم.

واجهـــر بصـــوتك إنـــه الـــ ـــذكرى فهـــل مـــن مـــدكرْ
الله حســـــــبك نـــــــاصراً والفـــوز حظـــك والظفـــرْ

* * *

وله تشطير وتعجيز على أبيات الشريف الرضي[١]

أبيات الشريف الرضي:

ما عذر من ضربت به أعراقه ... حتى بلغن إلى النبي محمدِ
أن لا يمد إلى المكارم باعه ... وينال غايات العلا والسؤددِ
متحلقاً حتى تكون ذيوله ... أبد الزمان عمائماً للفرقدِ

* * *

فقال الأستاذ في تشطيرها وتعجيزها:

(ما عذر من ضربت به أعراقه) ... سبلاً تؤم به لأسمى محتدِ
سرت به أصلاب مجد باذخ ... (حتى بلغن إلى النبي محمدِ)
(أن لا يمد إلى المكارم باعه) ... مد الصداة أكفها للموردِ
فيظل في فلك الفخار محلقاً ... (وينال غايات العلا والسؤددِ)
(متحلقاً حتى تكون ذيوله) ... صحفاً بتاريخ الزمان السرمدي
وتكون خفا أخمصيه ونعله ... (أبد الزمان عمائماً للفرقدِ)

---

(١) قالها الأستاذ ابن هاشم في مباراة أدبية أقيمت في مدينة تريم بين الشعراء الحضارمة في حضرموت والمهجر واشترك فيها الأديب السيد زين العابدين بن أحمد الجنيد ومحمد بن حسن بن شهاب والشيخ محمد بن عوض بافضل والأستاذ محمد بن أحمد الشاطري والسيد محمد عبد المولى بن طاهر والأديب الشيخ علي أحمد باكثير والعلامة محمد بن شيخ المساوى والسيد سقاف بن حسن السقاف والسيد محمد بن عبد الله السقاف والشيخ عمر بن محمد باكثير والسيد محمد بن عبد الرحمن السقاف.

وعن شعراء المهجر في المهجر: السيد عمر بن أبي بكر المشهور ومحسن بن محمد خمور علوي ومحمد ابن شيخ الجفري وعبد الرحمن بن علي الحبشي عبد الله بلفقيه وأحمد بن عبد الله المحضار وأحمد بن محمد بن حامد السقاف وعبد الرحمن بن سقاف السقاف وحسن بن عمر الشاطري وسالم بن عمر المشهور والحبيب علوي بن علي بن محمد الحبشي وزين بن عبد الله الكاف وعلوي بن محمد المحضار.

وكان الفائز الأول في المسابقة الأديب الشيخ علي أحمد باكثير.

لك عذر أو حمار[١]

قصيدة قالها على سبيل الفكاهة بعث بها إلى العلامة محمد بن شيخ المساوى وهي:

لـــك بالنـــاس اختبـــارُ ودراســـــات كبـــــارُ
وارتفـــاع وانخفـــاض وانعطـــــاف وازورارُ
تعـــرف المـــرء إذا جـــاء ومرمـــــاه القـــــمارُ
والـــذي يـــأتي وفحـــواه صـــــفاء وازدهـــــارُ
تقـرأ الورقـة مـن خلـف فينجـــــاب الغبـــــارُ
تعـــرف الحبـــق طعامـــاً وهـــو في الأصـــل بخـــارُ
وإذا شـــــيخ أديـــــب جـــاء يكســـوه الوقـــارُ
يطلـب التعـويض عـن عـ ـــــود بـــه دبَّ الغيـــارُ
راجيـــاً منـــك جوابـــاً ويطـــــول الانتظـــــارُ
ثـــم يأتيـــه كتـــاب فيـــه وعـــد واعتـــذارُ
لســـت ادري أصـــحيح لـــك عـــذرٌ أو حمـــارُ

* * *

(١) كان سبب إنشاء هذه القصيدة كما ذكر ذلك المساوى أن الأستاذ ابن هاشم طلب شراء عود البخور من النوع الجيد من دكان المساوى ولما عاد إلى مقره تريم كتب يحتج ويعاتب بان البخور لم يكن جيداً وطلب أن يعوض بغيره من النوع الجيد ويسدد قيمته الشهر المقبل فأجابه المساوى بكتاب أن البخور كله من هذا النوع ووعده بإرسال البخور الجيد حال وصوله من سنغافورة فلم يقتنع بالجواب قائلاً عذر بارد وأنشأ هذه القصيدة على سبيل المباسطة والفكاهة ورد عليه العلامة المساوى بقصيدة أخرى أوردهما معاً في ديوانه المذكور.

وله هذه الأبيات قالها على سبيل الفكاهة
وأرسلها إلى السيد حسين بن أحمد الحامد[١]

دعـوتَ جماعـة بـالأمس فضـلاً ... ولم ترقـب جـوار الـدار فينـا
وتعطـي سـالم المشـهور جحشـاً ... وتقبـل مصـطفى الرجـل الرزينـا
ولكـن هكـذا الإنسـان ينسـى ... رجـالاً في المحبـة صـادقينا
ويـذكر مـن لهـم جـاه وفـو ... ق المقاعـد في الحفـيص مصـففينا
تأكـد أنهـم أصـحاب بطـن ... وأمـا النفـع لـيس لهـم يقينـا
فهـم لا ينظرونـك غـير قـزم ... وأنـك ضـحكة للضـاحكينا
سيصـبح كـل معـروف لـديهم ... إذا سـلموه معروفـاً دفينـا
ولكنـي أراك بعـين فضـل ... وإني أحفـظ الـود المصـونا
أراك مهـذباً وأراك تلقـي ... بـآداب تـروق السـامعينا
وأنـك طفـت في الآفـاق حتـى ... غـدوت مقـدماً للسـائحينا
ولكـن أمـس خـاب الظـن لمـا ... ظللـت مـنعماً وأنـا حزينـا
ألا لا يجهلـنَّ أحـد علينـا ... فنجهـل فـوق جهـل الجاهلينـا

---

(١) مخطوطة، زودني بها الأديب علي بن أحمد بارجاء. وهذه الأبيات أنشأ ابن هاشم هذه القصيدة عندما أقام السيد الحامد في بيته مأدبة ولم يدعو إليها الأستاذ فأرسل له الأستاذ ابن هاشم تلك الأبيات ورد عليه السيد الحامد بقصيدة منها هذه الأبيات:

لقـد وافى كتابـك يـا صـديقي ... ومـا أحـلى كـلام الشـاعرينا
صـديق مخلـص وأنـا بحقـي ... وحـق الـرز خـير المخلصـينا
وقـد كنـا نظنـك شـيخ علـم ... وآداب غـذيت بهـا سـنينا
ظنناهـا غـذاك ومـا علمنـا ... بأنـك صرت شـيخ الآكلينـا
ولم نعلـم بـأن الجـوع يومـاً ... كـذا يلقـي بـبعض الجائعينـا
فعفـواً بعـد هـذا ألـف عفـو ... فلسـنا بعـد هـذا عائـدينا

وله هذه الأبيات:

عـراه مـن الوجـد مـا قـد عـرى ... فآلـــت نضـــارته للـــذبول
فـــؤاد تلاشـــى ودمـــع جـــرى ... وجســـم تحكـــم فيـــه النحـــول
ســـقته اللـــواحظ مـــراً سرى ... تباشـــيره في زوايـــا العقـــول
فخـــال الثغـــور حـــوت كـــوثراً ... إليـــه الشـــهادة بـــاب الوصـــول

* * *

تـــذكر منهـــا اهتـــزاز القنـــا ... إذا مـــا مشـــت وارتجـــاج الكفـــل
ودهـــراً تقضى ـــ وفيـــه الهنـــا ... وعيشـــاً تبســـم ثـــم اضـــمحل
فألبســـه البعـــد ثـــوب الضـــنى ... وأنهلـــه الوجـــد كـــأس العلـــل
فهـــا هـــو يزحـــف نحـــو الثـــرى ... ويـــدنو ســـنى بـــدره للأفـــول

* * *

وله هذه الأبيات:

وهنـاك بعـض جرائـد لا تحتـوي ... مثقـــال ذرةِ فطنـــة وذكـــاءِ
كـــم جاءنـــا أصـــحابها بمقالـــة ... لم يكتبـوا منهـا سـوى الإمضـاءِ
قد اعرض العقلاء عنها كيف لا ... وجرائـــد الجهـــلاء للجهـــلاءِ
وإذا هـــم اشـــتركوا بهـــا فتكرمـــاً ... مـنهم عـلى أصـحابها الضـعفاءِ
تلـــك الجرائـــد أنـــما أصـــحابها ... خلقوا لحرث الأرض لا الإنشاءِ

* * *

وله أيضاً:

سألت إلهي أن يسـخر لي قصـدي ... ويمـلأ جيبـي مـن الـورق والنقـدِ
ويغفـر لي مـا جئتـه مـن عظـائم ... ويؤنس لي قبري إذا جئته وحـدي
بعافيـــة يـــا رب صـــلني بنعمـــة ... فتطفئ لي من وصلها معظم الوجدِ
بقربـــك في دار الخلـــود أنالهـــا ... فنحظى وإياها بفضلك في الخلدِ

رضاك هو المأمول لي ولروحها فيا رب ارحمها بفضل بلا عدِ

* * *

وله كذلك:

الله ربي عليك معتمدي وفي المهمات أنت مستندي
أرجوك من فضلك العظيم رضـ ـى يمحى به كل ما جنته يدي
وامنن عليّ يا ربي بعافية بالروح توصلها وبالجسدِ
ها قد مددت الكفين يا صمد حاشا يخيب الراجون في الصمدِ
رضاك نسأله ومغفرة تجمعنا في حظيرة الأحدِ
مولاي بلغ مني السلام لها واغفر ذنوباً لها بلا عددِ

* * *

وله أيضا:

يا من عطايا فضله ضافية هب لي به يا مرتجى عافية
يا مفزع اللاجئ يا من له في خلقه ألطافه السامية
يا مانحاً عبَّاده جنة تمنحنا في جوفها زاوية
وجوهنا يا رب تجعلها ناعمة لسعيها راضية
بمحض أفضالك يا سيدي تجمعنا في جنة عالية
تسكننا بالفضل فيها فلا نسمع في ساحاتها لاغية
رضوانك المأمول فيها وفيـ ـها نرتوي من عينه الجارية

* * *

وله هذه الأبيات:

بربي لم يزل ظني جميلا يزحزح عني الوزر الثقيلا
له الحمد الذي لا الكتب تحوي مداه ولا اللهى تحصيه قيلا
إلهي فضله بحر خضم فليس سواه يغنينا فتيلا

سألتك بالنبيّ وكل عبد ... يحبك أن تنير لي السبيلا
وتطفئ بالوصال لهيب وجد ... ونشفي في حظيرتك الغليلا
يظن الغر غفران المعاصي ... إذا عظمت بعيداً مستحيلا
ويحسب أن فضل الله يحكي ... تصور عقله شيئاً ضئيلا
وما يدري بأن العبد مهما ... جنى يلقى من الفضل الجزيلا

* * *

وله في مدح مدينة تريم:

وملك تريم منتهى الفخر والعلا ... فلا تغبطوا ملك النجاشي ولا كسرى
مهابط أهل البيت والعترة الأولى ... هموا وارثوا المختار والبضعة الزهرا
فهم نعمة المولى على أهل أرضه ... وهم سادة الدنيا وهم سادة الأخرى

* * *

قصيدة في شريف مكة الملك حسين بن علي مطلعها:

دعها تغرد فوق دوح رباها ... فلعلها ذكرت زمان صباها
ذكرت فغادرها السلو فكررت ... نغماً بها الذوق السليم حباها
الورق تصبو وهي ألطف رقة ... وهوى الجمال كما سباك سباها

* * *

وهذان بيتان بعث بهما إلى الأديب عبد الله بن محمد بن حامد السقاف بسيؤن:

أتاني شباب في القوارير جاهز ... يزحزح آثار المشيب إذا بدا
أيُهدى شباب يترك الشيخ يافعاً ... ويترك مبيض الثمامة أسودا

* * *

ومما تميز به ابن هاشم حبه للفكاهة وسرعة بديهته حيث كان له في فكالونغن صديق ومحب هو المور عبد القادر خوجة وكان لصديقه هذا بستان كبير وجميل مع خدم وفي يوم أهاب الأستاذ ابن هاشم بكبار الطلبة أن يذهبوا معه للبستان لنزهة فلما علم صاحب البستان فرح وأرسل إليهم بائع (آيس كريم) وأرسل أيضاً بيد خادمه المدعو زاهر عدداً كثيراً من البطيخ الحلو.

وأشار الأستاذ إلى الطلبة أن يكتبوا بعض أبيات لشكر المور عبد القادر فما استطاعوا فقال الأستاذ مرتجلاً:

بلغ سلامي نحو عبد القادرِ ... واحطط رحالك بالمقام الفاخرِ
واشكر له هذا الصنيع وقل له ... لا يستطيع الوصف شكر الشاكرِ
الثلج والبطيخ وافانا به ... خدامكم يسعى بوجه زاهرِ

* * *

وله أيضا هذه الأبيات:

العيد أقبل والدراهم أدبرتْ ... وخطوب دهري في عظامي قد برتْ
قم فالرحيل هو الخلاص من العنا ... فلكم به دوح الأماني أثمرتْ
فهلم نستدعي الثراء برحلة ... غراء إما أسكرت أو أعذرتْ
لو ساعد القرطاس كنت برزتها ... تبدي سوانح في الجوانح قد سرتْ

* * *

وهذه الأبيات بعث بها إلى الأمير عبد المجيد الكثيري يطلب منه ما عتاد الأمير أن يرسله له من الخريف والرطب فقال:

تحية الله الرؤف اللطيف ... تغشاك يا رب المقام المنيف
من مخلص في الود يرع الوفا ... تالده من أهلينا والطريف
أهوى للقياك ولكن لي ... أعذار من شيبي وجسمي الضعيف

فـما عـذر أخـاً حـادت بـه نفسـه عن نهـج أربـاب السـلوك الشـريف
وامنحـه في جـوف الـدجى دعـوة ينجـو بهـا مـن كـل أمـر مخيـف
في كـــل عـــام منـــك لي تحفـــة ترســلها مــن قصرـكم بالمصـيف
وهـــا هـــي الأيـــام مـــرت فـــلا تغفـــل وإني في انتظـــار الخريـــف

ولما جاءه الخريف من الأمير عبد المجيد قال هذين البيتين:

لقـد جـاءني منـك الخريـف كأنـه عقـود مـزيج بـين مسـك ومرجـانِ
إذا مـا فمـي للأكـل قابـل تمـرة تهيـاء للترحيـب حلقـي ومصرـاني

* * *

المصادر

الوثائق :-

١. أرشيف الأستاذ محمد بن هاشم المحفوظ لدي السيد هاشم بن طاهر بن محمد ابن هاشم بتريم.

٢. مكتبة السيد علي بن أنيس الكاف بسيؤن.

٣. مكتبة الأديب علي باعبود التي بحوزة السيد عبد القادر بن أحمد ابن سميط بالتعاون مع مركز النور للدراسات والنشر تريم .

٤. مكتب التوثيق للأستاذ جعفر بن محمد السقاف بسيؤن

الكتب:

١. رحلة الأسفار، تأليف العلامة أبوبكر بن علي بن شهابمخطوط.

٢. تاريخ الشعراء الحضرميين، تأليف العلامة عبد الله بن محمد بن حامد السقاف، ج٥، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ، مكتبة المعارف، الطائف .

٣. شمس الظهيرة . تأليف العلامة عبدالرحمن بن محمد المشهور، تحقيق: محمد ضياء شهاب، ط١، عالم المعرفة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٤. تاريخ الدولة الكثيرية تأليف العلامة محمد بن هاشم، ج١، ص٢، تريم للدراسات والنشر.

٥. رحلة الثغرين الشحر والمكلا، تأليف العلامة محمد بن هاشم، ، ط١، مطبعة حجازي، القاهرة، بدون تاريخ .

٦. الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، تأليف الشيخ سعيد بن عوض باوزير، دار الطباعة الحديثة مصر ١٣٨١هـ -١٩٦١م .

٧. تاريخ حضرموت السياسي، تأليف الأستاذ صلاح البكري دار الآفاق القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

٨. جني القطاف من مناقب وأحوال الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف، تأليف الحبيب أبوبكر بن علي المشهور، دار المهاجر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩. لمحة من زاوية التاريخ الحضرمي، تأليف عبداللاه بم حسن بلفقيه، تحقيق محمد عبد النور، الطبعة الأولى، دار الفقيه، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .

١٠. الدور الكافي المسمى تاريخ الثروة الكَافِيَّة ورجالها، للعلامة المؤرخ محمد ابن هاشم العلوي، ط١، تريم للدراسات والنشر ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م اعتنى به السيد علي بن أنيس الكاف.

١١. الزعيم أبو بكر بن شيخ الكاف ، الطبعة الثانية، تأليف السيد جعفر بن محمد السقاف والسيد علي بن أنيس الكاف، مركز الكاف للدراسات والنشر، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م .

١٢. نثر وشعر من حضرموت، لروبرت سرجنت، تعريب سعيد محمد دحي.

دواوين الشعر:

١. ديوان العلامة أحمد بن عبد الله السقاف، مخطوط، صورة بيد السيد علي بن محمد الحداد، سيؤن .

٢. ديوان العلامة محمد بن شيخ المساوى ، مخطوط صورة نحتفظ بها في أرشيفنا .

٣. ديوان درر وجواهر، للعلامة عبد القادر بن أحمد السقاف ، جمع السيد طه بن حسن السقاف، مطبوع بالكمبيوتر، مكتبة مسجد خرد تريم .

٤. ديوان الغصن الطري، للعلامة حامد بن محمد السري، جمع حسن علي السري، الطبعة الأولى، مطابع المكتب المصري الحديث، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

الصحف والمجلات:

١. صحيفة حضرموت تصدر بالعربية بأندونيسيا، لصاحبها عيدروس المشهور .

٢. صحيفة الترجمان التي تصدر باللهجة الحضرمية الدارجة بإندونيسيا، لصاحبها محمد بن عقيل .

٣. مجلة الرابطة العلوية التي تصدر في بتاوي (جاكرتا) إندونيسيا للسيد أحمد بن عبد الله السقاف.

٤. صحيفة الإخاء بتريم

٥. صحيفة العرب التي تصدر بسنغافورة

٦. مجلة زهرة الشباب التي يصدرها نادي الشباب بسيؤن

٧. صحيفة التهذيب التي صدرت بسيؤن .

٨. صحيفة الحلبة التي صدرت بالمسيلة .

٩. صوت حضرموت التي صدرت بسنغافورة.

١٠. صحيفة النهضة التي تصدر عن نادي نهضة الشباب بسيؤن (الأديب سالم بن زين باحميد بواسطة الأخ الدكتور أحمد باحارثة).

١١. مجلة الرابطة العربية التي تصدر بمصر .

١٢. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت .

١٣. مجلة الوعي الإسلامي، الكويت العدد ٤٩٤، شوال ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م.

الفهرس

الموضوع ..	الصفحة
المقدمة.....	٧
ترجمة الأستاذ محمد بن هاشم	
مولده ونشأته.....	١١
هجرته ونشاطاته	١١
عودته إلى حضرموت	١٤
مؤلفاته	١٦
أسلوبه في التأليف.....	١٨
أولياته	٢٠
خاتمة حياته.....	٢١
قالوا عنه	٢٣
من مقالات الأستاذ محمد بن هاشم	
العام الهجري الجديد	٣١
سوانح شهر رمضان.....	٣٤
الإمام أحمد بن عيسى المهاجر.....	٣٨
العلامة عبد الرحمن بن محمد المشهور.....	٤١
حضرموت	٤٧
شبام مدينة الحكمة (١).....	٥٢
شبام مدينة الحكمة (٢)	٥٥
نشوء الدولة الكثيرية (٤).....	٥٨
نشوء الدولة الكثيرية (٥)	٦١

المصنوعات الوطنية..... ٦٥
المواشي والدواب بالقطر الحضرمي ٦٧
مهنة العسل بحضرموت ٦٩
أهم الأشجار بحضرموت..... ..... ٧٢
صفحة من الأدب أو ديوان السيد ابن شهاب (١)..... ٧٥
صفحة من الأدب أو ديوان السيد ابن شهاب (٢)..... ٧٩
نظرة في نسمات الربيع له وعليه (٢)..... ٨٣
نظرة في نسمات الربيع له وعليه (٣)..... ٨٩
نظرة في نسمات الربيع له وعليه (٤)..... ٩٢
نظرة في نسمات الربيع له وعليه (٥)..... ٩٧
نظرة في نسمات الربيع له وعليه (٦)..... ١٠٠
سوانح الديوان الضائع..... ١٠٤
سوانح السيد باعبود..... ١٠٧
النقد الأدبي ١١١
الموسيقى الحضرمية وأغانيها..... ١١٣
الوطنية..... ١١٧
الوطنية والحضارم... ..... ١٢٢
الأنانية البارد.. ..... ١٢٦
حتى متى هذا الحال؟ ١٢٩
النفس الحضرمية..... ١٣٣
إلى أين ؟..... ١٣٧
سوانح..... ..... ١٤٢

حالة المسلمين في جاوة ١٤٦
رأي العقلاء الحضارمة في الرابطة العلوية ١٥٣
ماذا يكون الحال لو صح سفر السيد أبي بكر إلى أوربا
(انظروا التاريخ)..... ١٥٨
الاسكندر المكدوني ١٦١
أجد أم هزل؟..... ١٦٤
تحية مودع..... ١٧٠

من محاضرات الأستاذ محمد بن هاشم

محاضرة عن إقليم حضرموت ألقاها بمصر ١٧٥
محاضرة حول اتحاد حضرموت..... ١٩٥
محاضرة العلويون والهجرة ٢٠٢
محاضرة جاوة وأهلها..... ٢٠٨
محاضرة (نزهة بين النجوم) ٢١٦

من خطب وكلمات الأستاذ محمد بن هاشم

كلمة بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي ٢٢٩
كلمته في تأبين العلامة الحسن بن عبد الله الكاف ٢٣٢
كلمته في يوم عزاء السلطان علي بن منصور الكثيري..... ٢٣٦
كلمته في المغفور له السلطان صالح بن غالب القعيطي .. ٢٤٣
كلمته بمناسبة قدوم السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف من
سنغافورة..... ٢٤٨
موجزة تاريخ السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف قرأها في
حفل تأبينه..... ٢٥٢

كلمته في حفل افتتاح طريق الكاف..... ٢٥٨
كلمته في حفل تكريم السيد أبي بكر بن شيخ الكاف..... ٢٦٠
كلمة في حفل تكريم السيد عبد القادر بن أحمد بلفقيه.... ٢٦٤
تقرير عن نشاط نادي الشبيبة المتحدة..... ٢٧٢
كلمته في الفقيد موسى الكاظم بن يحيى..... ٢٧٥
كلمة ترحيب بقدوم المستشرق روبرت سرجنت ٢٧٦

من قصائد الأستاذ محمد بن هاشم

الصلح الوئام ٢٨١
إلى سوح وادي النيل ٢٨٣
النادي العربي ٢٨٥
الغرب والشرق ٢٨٧
في الفقيد العلامة أبي بكر بن شهاب ٢٨٩
في الفقيد عمر بن محمد السقاف ٢٩١
في الفقيد العلامة حسن بن عبد الله الكاف..... ٢٩٣
في الفقيد العلامة محمد بن عقيل بن يحيى..... ٢٩٥
ترحيب بعميد الأسرة الكافية ٢٩٧
حكم الله بالوئام ٢٩٩
على لسان البعثة الجاوية إلى مصر ٣٠١
موشح ٣٠٣
من مرثية ٣٠٥
ترحيب بالقاضي الحضراني ٣٠٦
في الحماس ٣٠٨

عونك اللهم وتيسيرك ٣٠٩
مقطوعات شعرية ٣١٠
المصادر ٣١٩
الفهرس ٣٢٣